

مذكرات
ونستون تشرشل
السياسي الداهية

إعداد وتقديم
علا الخولي

مكتبة جزيرة الورد

مذكرات
ونستون تشرشل
السياسي الداهية

إعداد وتقديم

عُلا الخولي

مكتبة جزيرة الورد

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: مذكرات ونستون تشرشل

اسم المؤلف: علا الخولي

رقم الايداع ٢٠١٧/١٣١٦٧

الطبعة الأولى٢٠١٣

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

تقديم

الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله ، وبعد ،

بين يديك عزيزي القارئ مذكرات ونستون تشرسل ذلك السياسي الداهية المتعدد المواهب فهو رسام وأديب وجندي نجح لفترة في حكم العالم .

سمي (الرجل البدين) وولد في قصر بلاينهام المشهير عام ١٨٧٤ وكانت وفاته ١٩٦٥م عن عمر يقارب التسعين عامًا ، ويقال: إنه هو الذي رفع معنويات شعبه أثناء الحرب ، ولم يخضع لهتلر بل قال له هتلر الجملة الشهيرة: (إننا لا نريد محاربتك نحن نريد استسلامك) ولكن هيهات لم يستسلم تشرسل ، بل حارب حتى النهاية ، وكان النصر حليفًا له ، والغريب فعلاً هو حصول تشرشل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٥٤م ، لكتاباته التاريخية ، وكان وقتها يوقع أمرًا بالبدء في إنتاج القنبلة الهيدروجينية.

إنها رحلة طويلة تكاد هذه المذكرات تحكي القليل عن ذلك الداهية وكيف كان يفكر وكيف كان يرى الأمور أمامه ، إنه زعيم من طراز خاص، رجل دولة ، خطيب مفوه ، مخطط إستراتيجي ، عاشق الطراز الرفيع ، أتقن الشعر وكتبه بأسلوب خاص ، تمتع بروح النكتة ، حقًا إنها شخصية تستحق أن نتعرف عليها وعلى كيفية رؤيتها للأحداث .

على أمل أن نستفيد من مميزات هذه الشخصية ونستبعد سلبياتها .

والله الموفق والمستعان

المؤلفة / علا الخولي

ونستون تشرشل السياسي والرسام والأديب والجندي الذي حكم العالم بدهائه

(موجز مختصر لقصة حياة تشرشل)



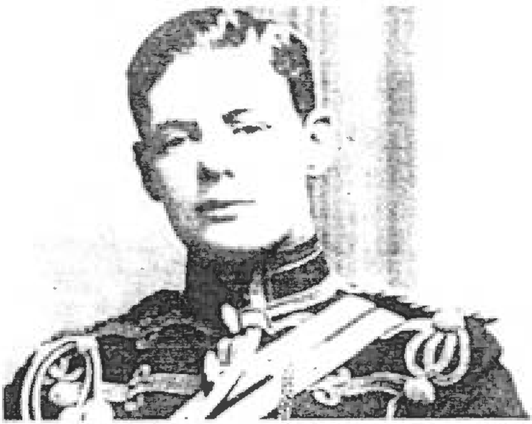
بين المعسكرات والكتب والرسم والسياسة، نشأ شابٌ ينحدر من عائلة مخملية محافظة سياسيًا، جدّه دوق مارلبورو الأولو والده لورد، لم تشأ الظروف أن ينعم هذا الشاب الذي أصبح فيما بعد أسطورة بحياة الرفاه والخيرات، فبعد وفاة والده في ظروف مأساوية تم تجريده من لقبه الذي كان قد اكتسبه منه، فما كان على هذا الفتى إلا أن يشق طريقه بنفسه وأن يكسب رزقه بقلمه ولسانه، إنه رئيس وزراء بريطانيا السير ونستون تشرشل أو ما يعرف بالـ «الرجل البدين»، الذي سميت ثاني قنبلة ذرية ألقيت على مدينة ناجازاكي اليابانية في ٩ من آب ١٩٤٥ باسمه بسبب بدانته.

في ٣٠ تشرين الآخر ١٨٧٤م ولد ونستون تشرشل في قصر بلاينهام الشهير القريب من أوكسفورد مقر حكام مقاطعة مارلبورو، ونشأ في جو عابق برائحة التاريخ والحروب

والانتصارات، وساعدته في ذلك والدته ،على عكس ما ستظهره المعلومات الواردة أدناه لما يمتلكه تشرشل من ذكاء وحنكة سياسية محترفة ، إلا أنه لم يظهر أي نجاح في المدرسة الثانوية حتى أنه لم يتمكن من الوصول أبدًا إلى الصفوف العليا ، وكان يستعمل لغته الخاصة غير مبال باللغة الإنكليزية وأدبها الكلاسيكي .

من المدرسة .. إلى المعسكرات :

بعد فشله خلف مقاعد الدراسة ، ترك تشرشل الثانوية والتحق بالمدرسة الحربية الملكية ليتخرج منها عام ١٨٩٤م ،كانت أولى مهامه مع الجيش الإسباني في كوبا الذي كان يقاتل الاستقلاليين الكوبيين ، ومن بعدها أرسل إلى الهند حيث قضى مدة طويلة ، اعتبرها مدرسة تثقيفية وتربوية ذاتية ، حيث كانت ترسل له والدته صناديق من الكتب التي قرأها وتأثر بكتابها، لاسيما في نظرية داروين في النشوء والارتقاء .



تشرشل شابًا

أرسل تشرشل بعد الهند إلى السودان ومن ثم إلى جنوب إفريقيا ، وإلى جانب كونه جنديًا، عمل مراسلاً لجريدة «مورنينغ بوست . Morning Post» في العام ١٨٩٩ ، تعرض للاعتقال على أيدي قوات البوير الأفارقة المنحدرين من أصول هنديّة ، إلا أنه تمكن من الفرار فيما بعد وعاد إلى جبهة القتال في الناتال .

من المعسكرات .. إلى العمل الحزبي :

بدأ حياته السياسية في حزب المحافظين ، وانتُخب عضوًا في مجلس العموم ، وفي سنة ١٩٠٤ ، انضم إلى حزب الأحرار بعد خلافات بينه وبين المحافظين ، وكان تشرشل قد دخل البرلمان بعد أن جمع مبلغًا من المال كان قد حصل عليه مقابل المحاضرات التي ألقاها في الولايات المتحدة الأميركية ، والتي روى من خلالها تجربته العسكرية في جنوب إفريقيا وقصة هروبه من المعتقل عام ١٩٠٨م ، عين تشرشل وزيرًا للتجارة ثم وزيرًا للداخلية في العام ١٩١٠م ، ووزيرًا للبحرية في العام ١٩١١م ، في مطلع الحرب العالمية الأولى ، كان تشرشل وراء حملة الحلفاء إلى الدردنيل لعزل تركيا عن أوروبا ، والتي أخفقت إخفاقًا ذريعًا، ويعد تشرشل مسؤولاً عن هذا الإخفاق ، مما اضطره إلى الاستقالة ، في العام ١٩١٥م بدا لتشرشل أن حياته السياسية قد انتهت خصوصًا بعدما اشترط المحافظون للدخول في تحالف حكومة الائتلاف بتجريده من منصبه كقائد للقوات البحرية، فتعلم الرسم لتمضية وقته ، واستمر يمارس الرسم حتى آخر لحظات حياته .

تشرشل لم يستسلم ، وقرر العودة إلى المعسكرات ، وفي العام ١٩١٦ ولاه رئيس الوزراء لويد جورج منصب وزير الإمدادات العسكرية ، وبنهاية الحرب صار وزير الدولة لشؤون الحرب والقوات الجوية ، حيث عمل على تحديث القوات الجوية البريطانية .

بين الحربين العالميتين الأولى والثانية :

في أيار ١٩٤٥م قاد تشرشل مواكب المحتفلين بالنصر في شوارع لندن ، إلا أنه ـ كما ورد في أحد كتبه ـ كان يشعر بغصة في القلب لعدم قدرته على الحد من النفوذ الشيوعي داخل أوروبا، وبعد شهرين من ذلك سقطت حكومته في الانتخابات ، وبعد توليه حزب العمال للسلطة انصرف تشرشل إلى الكتابة والرسم مرة أخرى .

أهم مرحلة في حياة تشرشل السياسية برزت في الحرب العالمية الثانية ، فقد عُين عند اندلاع الحرب سنة ١٩٣٩م ، وزيرًا للبحرية ، وفي ١٠ آيار ١٩٤٠ أصبح تشرشل رئيسًا للوزارة البريطانية، وأعلن في ٧ حزيران أن بريطانيا ستتابع الحرب وحدها ، وتعرض بعد ذلك للوم شديد ، بعد أن عجزت بريطانيا عن صد الجيش الألماني في اليونان ، وخاصة في جزيرة كريت، وله أثر في نشوب الحرب بين ألمانية وروسية ، وبذلك تجنبت بريطانيا أي غزو محتمل لأراضيها .

بعيدًا عن السياسة والحروب :

هو الذي رفع معنويات شعبه أثناء الحرب ولم يخضع لأدولف هتلر ، وقال له هتلر حينها: «إننا لا نريد محاربتك نحن نريد استسلامك » ، ولكن تشرشل لم ينصع وقاوم حتى النهاية وكان النصر حليفًا له ، وهو أول من أشار بعلامة النصر بواسطة الإصبعين السبابة والوسطى ، وقال حينها :« إن غزا هتلر الجحيم ، سأمتدح الشيطان ـ ستالين ـ على الأقل في مجلس العموم» .

ولعل من غرائب القرن العشرين التي تكاد ألا تحصي أنه في الوقت الذي كان تشرشل يوقع على أمر بالبدء بإنتاج القنبلة الهيدروجينية كان يفوز بجائزة نوبل للآداب سنة ١٩٥٤ لكتاباته التاريخية .

كان رجل دولة بارزًا ، خطيب مفوهًا ، مخططًا إستراتيجيًا وعاشقًا من الطراز الرفيع ، أتقن الشعر وكتبه بأسلوبه الخاص ، تمتع تشرشل بروح النكتة وبإطلاقه حركات وشعارات ميزته عن غيره ، تعرف في حياته على كليمانتين هوزييه وصارا خطيبين وعندما كتب حياة وأيام جون تشرشل دوق مارلبورو ، شكلت قاعات ذلك القصر وحدائقه النبع الذي استقى منه تشرشل مصادر كتابه ، وقد عرف عنه نزعته الأرستقراطية البعيدة عن الشعب في الداخل ، والاستعمارية المتطرفة في الخارج .

وفاته :



في ٢٤ كانون الآخر ١٩٦٥ غادرت روح تشرشل الحياة ، ودفن في حديقة الكنيسة الصغيرة التابعة لقصر بلاينهايم حيث ولد قبل تسعين سنة، ليطوي بموته صفحة أهم رئيس وزراء مرّ في تاريخ الحكم الملكي البريطاني.

من أقواله :

- في السياسة ليس هناك عدو دائم أو صديق دائم هناك مصالح دائمة .
- الشخص المتواضع هو الذي يمتلك الكثير ليتواضع به .
- المسؤولية ثمن العظمة .
- إذا كنت ترغب بحق في اكتشاف بحار جديدة ، يجب عليك أن تتحلى بالشجاعة اللازمة لمغادرة الشاطئ .
- المتشائم يرى محنة في كل منحة ، والمتفائل يرى منحة في كل محنة .
- لا تستسلم أبدًا أبدًا أبدا أبدًا أبدًا .
- إمبراطوريات المستقبل هي إمبراطوريات العقل .
- إن الحقيقة محسومة ، الرعب قد يستاء منها ، والجهل قد يسخر منها ، والحقد قد يحرفها، ولكنها تبقى موجودة .
- أمضي قدمًا ولو كنت ماشيًا على الجحيم .
- لا أستطيع أن أعدكم إلا بالدموع والبكاء والألم .



مذكرات الداهية ونستون تشرشل

السياسي الذي أذهل العالم بدهائه



الفصل الأول

يقول ونستون تشرشل في بداية مذكراته
وتحت عنوان :جهل المنتصرين
عن الفترة الزمنية من (١٩١٩ ـ ١٩٢٩)



يبدأ تشرشل مذكراته التي كتبها بأسلوب بسيط يقول :

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، كان هناك اعتقاد شامل ، في العالم كله، بأن السلام سيسود العالم ، وكان ممكنًا تحقيق هذه الأمنية القلبية لدى الشعوب ، وذلك بواسطة التزام الثبات على المعتقدات العقائدية الصحيحة، والمنطق السليم ، وبعد النظر ، وكان شعار «حرب من أجل إنهاء الحرب» يتردد على كل لسان وقد اتخذت الإجراءات اللازمة لتحويل هذا الشعار إلى حقيقة واقعة ، وقد تمكن الرئيس ولسن ، عن طريق نفوذ الولايات المتحدة من جعل مفهوم عصبة الأمم ، يطغى ويدخل جميع العقول ، وشكلت الوكالة البريطانية في فرساي هذه الفكرة وكونتها وحولتها إلى آلة ستبقى حتمًا مقاسًا لطريق تقدم الإنسان ، وكانت جيوش الحلفاء ، المنتصرة، بالنسبة لهزيمة الأعداء مضطرة إلى مجابهة مصاعب داخلية ، لا تعرف كيف تقضي عليها ، لكن القوة التوتونية المتكتلة في أوروبا الوسطى قد أضحت مطروحة أمامهم الآن ، كما أن روسيا التي هشمتها المطارق الألمانية كانت هي الأخرى مضطربة نتيجة للحرب الأهلية التي أوقعتها في قبضة الأحزاب البلشفية أو الشيوعية .



الحرب العالمية الأولى

أحداث ١٩١٩ كما يراها تشرشل:

يقول تشرشل: في صيف عام ١٩١٩ وقفت الجيوش الحليفة على ضفاف الراين ورؤوس جسورهم امتدت داخل ألمانية المهزومة، المنزوعة السلاح، والجائعة واجتمع قادة الدول المنتصرة في باريس ليبحثوا في أمر المستقبل ويخططوا له، وأمامهم كانت خريطة أوروبا كي يعيدوا رسمها حسبما يرونه ويتفقون عليه، لقد أصبح التكتل التوتوني تحت رحمتهم بعد اثنين وخمسين شهرًا من الألم والمخاطر، ولم يكن في إمكان أية دولة من دوله الأربع، أن تعارض مشيئة المنتصرين، وألمانية المعتبرة الرأس المدبر للأذية وواجهتها والسبب الأول للكارثة التي أحاقت بالعالم، أصبحت الآن تحت رحمة المنتصرين الذين كانوا يترنحون من العذاب الذي قاسوه أثناء الحرب، لقد كانت الحرب حرب شعوب لا حكومات، فقد امتزجت جميع طاقات الحياة داخل أتونها الملتهب، وفي اجتماع قادة الحرب في باريس، كانت التيارات العنيفة تتجاذبهم من كل صوب، فقد ولت أيام معاهدات أو تراخت وفينا، عندما كان الساسة والدبلوماسيون و الأرستقراطيون، سواء أكانوا من الفريق المنتصر أم المهزوم، يجتمعون ليدخلوا في نقاش لطيف مهذب، بعيدًا عن هتافات الديمقراطية وصخبها، كي يصلوا بالنتيجة لوضع الأنظمة التي لا خلاف حولها في الأساس، وكانت الشعوب التي تشربت بالتعاليم والدعاوات تطالب بإنزال أقصى العقوبات بالمنهزمين، ثأرًا للملايين الضحايا من البشر، والويل للذين يفرطون بمكاسب الجنود ويضيعونها على طاولة المؤتمر.

كان زمام القيادة في يد فرنسا التي أسكتت به بفضل جهودها وخسائرها الفادحة، وبفضل المليون والنصف من الضحايا من الجنود الذين لاقوا حتفهم دفاعًا عن الأرض الفرنسية، فقد شاهدت كنيسة نوتردام، خلال قرن من الزمن، خمس مرات وميض المدافع الألمانية، وسمعت ضجيجها الرهيب خلال أعوام ١٨١٤ و ١٨١٥ و ١٨٧٠ و١٩١٤ و١٩١٨، وخلال السنوات الأربع الرهيبة، وقعت تحت نير الاحتلال العسكري الروسي ثلاث عشرة مقاطعة فرنسية، وقد دمر العدو مساحات كبيرة من الأراضي الفرنسية، ولم تخل مزرعة واحدة أو عائلة واحدة من العائلات الفرنسية التي تعيش بين فردان وطولون من مأساة لفقدان عزيز، أو رجوعه مشوهًا من الحرب لقد كان الفرنسيون يعيشون في

رهبة مستديمة من الإمبراطورية الألمانية الجبارة، وكانت ذكرى الحرب الوقائية التي أراد بسمارك شنها عام ١٨٧٥ لا تزال عالقة في أذهانهم بالإضافة إلى التهديد الذي أدى إلى سقوط حكم دكلاسيه عام ١٩٠٥ م، وكانت خطب غليوم، النارية، وتهديداته التي كانت تقابل بالسخرية في إنكلترا وأميركا، كانت تدخل الهلع في قلوب الفرنسيين الذين عاشوا خمسين عامًا تحت ظل الإرهاب الألماني وتهديداته، والآن لقد جنوا ثمرة الدماء والتضحيات، فزال الخطر والظلم، وحل محله السلم والأمن، وكنت تسمع الشعب الفرنسي يردد عبارة واحدة لا غير هي «أبدًا، مرة أخرى».

لكن الخوف من المستقبل لا يزال قائمًا، فالشعب الفرنسي لا يبلغ بعدده ثلثي الشعب الألماني، الذي يزداد نموه سريعًا، ولن يمضي وقت طويل حتى يتضاعف عدد القادرين على حمل السلاح في ألمانيا، وقد جابهت ألمانيا العالم كله وحاربته منفردة تقريبًا، وكادت أن تبلغ النصر، وكان المراقبون يعلمون أن نتيجة الحرب كانت، أكثر من مرة، تميل بفضل بعض الحوادث العرضية وحسن الحظ، نحو الحلفاء.

وعندما عادت الجيوش الألمانية، يوم الهدنة، إلى وطنها قال الجنرال فوش، القائد الأعلى للقوات الحليفة: «لقد حاربوا بشجاعة، لذلك يجب أن تتركوهم يحتفظوا بسلاحهم»، وفي نفس الوقت طلب أن تصبح حدود فرنسا على نهر الراين، منذ الآن، وربما ستجرد ألمانيا من السلاح، وقد يتلاشى جهازها العسكري وتجرد قلاعها من سبل الدفاع، وربما سيفرض الفقر على ألمانيا بعد أن تفرض عليها أعباء ضخمة من التعويضات، لكن هذه بأكملها ستبقى ظروفًا طارئة وستزول بعد عشر سنوات أو بعد عشرين سنة، وستنطلق من جديد صيحة القبائل الألمانية بمجموعها وترتفع نيران بروسيا المحاربة مرة من أخرى، لكن الراين ذلك النهر الكبير الشديد العمق، سيكون بمثابة الدرع الواقعي الذي تركن وراءه فرنسا وتشعر بالاطمئنان لأجيال قادمة طويلة، لكن آراء العالم الآخر الناطق باللغة الإنكليزية، ومشاعره كانت تختلف عن ذلك، وهذا العالم له قيمته وأهميته الكبرى، فلولا معاونته لها لما استطاعت النجاة، وهكذا جاءت الاتفاقات في معاهدة فرساي منسجمة مع وضع ألمانيا، إذ تركتها بلدًا سليمًا غير مجزأ، فبقيت ألمانيا أكبر مجموعة عنصرية في قارة أوروبا، وعندما استمع المارشال فوش إلى نص اتفاقية الصلح في فرساي، علق عليها بقوله: «إنها ليست سلامًا، بل هدنة لمدة عشرين سنة».

رأي تشرشل في اتفاقية فرساي:
يقول تشرشل :

كانت البنود الاقتصادية في تلك المعاهدة سخيفة إلى حد جعلت منها بنودًا غير صالحة، فقد وجب على ألمانيا أن تدفع مبالغ هائلة كتعويضات ، وكان هذا المطلب ليس إلا تعبيرًا عما يشعر به المنتصرون من غضب ومن فشل لدى الشعوب في تفهم الحقيقة الواقعة وهي أن ليس في وسع أي شعب أن يقوم بدفع هذه الجزية التي تتفق مع متطلبات الحرب العصرية ،

وكانت الشعوب غارقة في الجهل لأبسط القواعد الاقتصادية ، وكان قادة الشعوب، بدافع من حرصهم على الأصوات الانتخابية ، لا يتجرؤون على توضيح هذه الحقيقة ، ولكن بعض الأصوات الضعيفة ارتفعت لتوضح أن دفع تلك التعويضات لن يتم إلا عن طريق الخدمات أو عن طريق شحن البضائع بواسطة القطارات أو البواخر ، وعند وصول تلك البضائع إلى البلاد التي فرضتها فستطغى على الصناعة المحلية ، وكانت الطريقة الوحيدة لسلب شعب مهزوم ، هي في نقل كل ما هو قابل للحركة، ثم في سوق قسم كبير من رجاله إلى العبودية الدائمة أو المؤقتة، لكن الأرباح الناجمة عن عمليات كهذه لا تتناسب مع نفقات الحرب ، ولم يكن في وسع أي زعيم أن يجرؤ على الجهر بهذه الحقيقة المؤلمة للجماهير الناخبة ، لذلك استمر الحلفاء بتبجحهم بأنهم سيستمرون في عصر ألمانيا حتى «يسمع صرير أنابيبها» وبالتالي تختنق ، وكان لهذا أثر كبير في ازدهار العالم، وفي أوضاع العنصر الألماني .

لكن هذه البنود من المعاهدة لم تنفذ ، فقد حصل العكس تمامًا ، فبعد أن صادر الحلفاء موجودات ألمانيا بمبلغ ألف مليون جنيه ، قاموا هم أنفسهم فيما بعد وعلى رأسهم بريطانيا وأميركا بإعطاء ألمانيا قرضًا بمبلغ ألف وخمسمائة مليون جنيه ، وذلك لترميم ما دمرته الحرب في بلادها وبأسرع وقت ممكن ، كل هذا ولم يزل ساسة الشعوب المنتصرة يذكرون أن ألمانيا ستدفع لآخر بنس كل التعويضات رغمًا عنها .

إن التاريخ سيصف هذه العمليات بالجنون ، لقد ساعدوا على تنمية اللعنة العسكرية و«الزوبعة الاقتصادية» ، وبدأت ألمانيا بالاستدانة من جميع الجهات وتبتلع بسهولة جميع

المساعدات الممنوحة إليها بسخاء ، إن هذه هي قصة محزنة من الغباء المعقد الذي استنزف فيها الكثير من الجهد والفضائل .

❖ ❖ ❖

تشرشل يغازل الفرنسيين:

يقول تشرشل :

لقد استنزفت الحرب دماء فرنسا ، وانتصر الشعب الفرنسي بعد أن ظل منذ عام ١٨٧٠م يحلم بالثأر ، لكن هذا الانتصار كلفه غاليًا ، ولكن الخوف من ألمانيا ظل يعكر صفو احتفالات الشعب الفرنسي بالنصر ، ولا شك كان هذا الخوف المتأصل هو الذي دفع المارشال فوش إلى المطالبة بجعل نهر الراين حدا فاصلا لفرنسا ، وذلك كي يضمن سلامة فرنسا من جارتها القوية، لكن الساسة البريطانيين والأمريكيين أصروا على تمسكهم بالنقاط الأربع عشرة ، التي تتعارض مع مطالبة فرنسا بضم جزء من الأراضي الألمانية إلى ممتلكاتها، بالإضافة إلى أن هذه المطالبة تتعارض مع مبادئ القومية وحق تقرير المصير التي قامت معاهدة الصلح هذه على أسسها ، وقد تمكن هؤلاء من كسب كليمنصو إلى صفوفهم حين تمكنوا من إقناعه بأنهم سيقومون بضمان حدود فرنسا ، وإقامة منطقة غير عسكرية ثم تجريد ألمانيا من السلاح بصورة كلية ودائمة ، وسرعان ما وافق كليمنصو على هذه الضمانات بالرغم من معارضة المارشال فوش لها ، ولم يلبث أن وقع ويلسون ولويد جورج وكليمنصو على معاهدة الضمان تلك ، إلا أن مجلس الشيوخ الأميركي رفض أن يصدق على توقيع الرئيس ويلسون ، وقد قبل لنا نحن بأنه يترتب علينا أن نكون على علم ومعرفة بنصوص الدستور الاميركي ، نحن الذين كنا نرضخ لآراء الرئيس ويلسون ورغباته بما يتعلق بقضايا السلام .

لكن الشعب الفرنسي أسقط الرجل الصلب كليمنصو ، في إحدى نزواته الخائفة الغضبة ، وكما قال بلوتارك: «إن الجمود نحو الرجال العظام ، هو من ميزات الشعوب القوية » ، وكانت ضربًا من الحماقة أن تلجأ فرنسا إلى هذا الأسلوب ، سيما في الوقت الذي أصبحت فيه شديدة الضعف ، وجاء بوانكاريه إلى سدة الحكم ، الرجل ذو الشخصية القوية

خليفًا لكليمنصو ، فحاول أن يجعل من المنطقة المحيطة بالراين ، أرضًا مستقلة تحت حماية فرنسا وإشرافها ، إلا أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح ، وكانت محاولته في غزو منطقة الروهر كمحاولة لفرض التعويضات على ألمانيا ، لكن هذا الغزو أثار النقمة لدى الرأي العام البريطاني والأميركي ، بالرغم من اتفاقه مع نصوص معاهدة فرساي ، وكانت النتيجة أن تدهورت أوضاع ألمانيا الاقتصادية والمالية ، وأدى ذلك إلى تدهور المارك الألماني بسبب التعويضات الباهظة التي دفعتها خلال عامي ١٩١٩م و ١٩٣٧م ، كما أن موجه الغضب والكراهية التي اجتاحت ألمانيا ، نتيجة لغزو منطقة الروهر ، دفعت بالمسؤولين إلى طبع كميات هائلة من الأوراق النقدية ، بقصد القضاء على النظام الاقتصادي برمته ، وأصبح الجنيه الإسترليني يعادل ثلاثة وأربعين مليون مليون مارك ألماني، وقد أدى هذا التضخم الفظيع إلى تلاشي المبالغ التي وفرتها الطبقات الوسطى ومالت بطبيعتها نحو الحركة الاشتراكية الوطنية ، وتشوه النظام الصناعي الألماني بأكمله نتيجة لنمو الاحتكارات ، واختفى الرأسمال العامل من البلاد ، وبالتالي ألغيت القروض الداخلية والديون الصناعية القائمة على الرهونات والفوائد ، لكن هذه لم تعوض عن خسارة رأس المال العامل، وأسفرت النتيجة عن قروض خارجية تعط لأمة مفلسة ، وهي الصورة التي تبلور عنها الموقف في السنوات التالية.

أما بالنسبة لبريطانيا فقد تحول موقفها تجاه ألمانيا ، تحول من العنف إلى العطف ، ونشبت الخلافات بين لويد جورج وبوانكاريه واتسعت حدة الشقاق بين الشعبين قلبًا وقالبًا، ووجد العطف الإنكليزي على ألمانيا ، أو الإعجاب بها ، صدى حسنًا قويًا .

وما إن ظهرت عصبة الأمم إلى الوجود حتى تلقت ضربة قوية ، إذ تخلت عنها الولايات المتحدة، وأصيب الرئيس ويلسون بالشلل ، بعد أن كان مستعدًا للكفاح من أجل مثله العليا وعقائده ، وأصبح بعد ذلك كتلة من الحطام وأصيبت سياسته وسياسة حزبه بهزيمة ساحقة في معركة الرئاسة ، وفاز الديمقراطيون في عام ١٩٢٠ ، وفي عشية فوز الديمقراطيين ، سيطرت المفاهيم الانعزالية على الناحية الأخرى من المحيط الأطلسي ، وكان على أوروبا أن تجني ما زرعته وتدفع ثمن ديونها ، وفي نفس الوقت ازدادت التعريفة

الجمركية وذلك للحيلولة دون دخول البضائع التي يمكن لوارداتها أن تسدد بعض الديون، وراحت بعد ذلك الحكومتان البريطانية والأمريكية تحطم وتغرق بواخرها ومنشآتها العسكرية، وذلك لأنه من غير اللائق أن ينزع السلاح من يد المغلوب ويبقى في يد الغالب، كما اعترضت أميركا لدى بريطانيا عن أن الاستمرار في علاقاتها الودية مع اليابان سيشكل بعض الخطر على مجرى العلاقات البريطانية ، الأمريكية ، مع أن اليابان كانت تحترم هذه العلاقات وتحافظ عليها بكل صدق ، وبناء لهذا التحذير ، اضطرت بريطانيا إلى قطع تلك العلاقات مع اليابان مما أدى إلى استياء الحكومة اليابانية، واعتبرت أن هذا التصرف يعتبر امتهانا من بلد آسيوي أوروبي نحو شعب أسيوي صديق .

لقد كان باستطاعة اليابان أن تعتبر نفسها ثالث دولة بحرية بعد هزيمة ألمانيا وروسيا فتتمتع بمركز مرموق ، ورغما عن أن الاتفاق البحري يقضي بأن يخصص لليابان نسبة خمسة إلى ثلاثة من السفن المخصصة إلى الدولتين الكبيرتين ، إلا أن هذه النسبة كانت مناسبة لإمكانيات اليابان المالية للسنوات التالية ، وبالتالي راحت تراقب الانخفاض الكبير في الإنتاج الأميركي والبريطاني بالنسبة لإمكاناتها المالية ومسؤولياتها الجسيمة ، وبذلك يكون الحلفاء قد مهدوا لتجدد الحرب في أوروبا وآسيا ، وباعتقادهم أن هذا قد يؤدي إلى السلام الدائم .

وفي أوروبا أخذ الخلاف الجديد الأكثر فظاعة يبرز إلى حيز الوجود ، هذا الخلاف الرهيب الذي خلفته الحرب الأهلية الروسية وانتصار الثورة البلشفية الساحق ، فبالرغم من أن الجيوش السوفييتية المتقدمة نحو بولندا ، قد صدت في معركة وارسو ، إلا أن ألمانيا وإيطاليا قد بدأتا تذعنان للدعاوي الشيوعية ومشاريعها ، كذلك هنغاريا التي سقطت في قبضة الدكتاتور الشيوعي بيلاكون ، وبالرغم من أن المارشال فوش لاحظ بحكمة بأن «البلشفية لم تتخط حدود النصر»، إلا أن أسس الحضارة الأوروبية اهتزت في السنوات الأولى بعد الحرب ، فالفاشية كانت ظل الشيوعية أو وليدها البشع ، وبينما كان العريف هتلر يحاول تقديم خدماته على الضباط الألمان في ميونيخ ، ويحرض الجنود والعمال ويغذي في صدورهم الحقد على الشيوعية واليهود الذين ألقى بمسؤولية الهزيمة عليهم ، كان هناك

مغامر آخر ، بينيتو موسوليني الذي قدم لإيطاليا نموذجًا جديدًا من الحكومة التي صرحت بأنها ستنقذ الشعب الإيطالي من الشيوعية ، ورفع نفسه إلى قمة الدكتاتورية ، وكما انبثقت الفاشية عن الشيوعية ، كذلك النازية تطورت من الفاشية ، وهكذا تمكنت هذه الحركات من الوقوف على قدميها وتمكنت بعد ذلك من جر العالم إلى صراع عنيف لا يمكن للمرء أن يقول أنه انتهى بانتهائها ...

❖ ❖ ❖

(تشرشل يحكي المأساة):

يقول تشرشل :

في هذه الصفحات ، سأحاول أن أقص قصة أسوأ مأساة تعرض لها الجنس البشري في تاريخه المضطرب ، إن المأساة المخيفة لم تقتصر على الضحايا وعلى الدمار الذي لابد منه في الحروب، ففي الحرب العالمية الأولى وقعت مجازر رهيبة ، كما فقدت كنوز كثيرة من الثروات التي جمعتها الشعوب... وإذا ما استثنينا الأعمال العنيفة التي حصلت أثناء الثورة الروسية ، فإن الحضارة الأوروبية ، بقيت ولم تزل حال انتهاء الحرب العالمية ، كما أن الشعوب المتحاربة عادت لتعترف ببعضها البعض، وبقي الجميع يحترمون القوانين والأعراف الحربية ، كما أن معاهدة الصلح كانت منسجمة مع المبادئ المتبعة في القرن التاسع عشر بين الشعوب المتحضرة ، كذلك يمكن القول أن الجهاز الدولي الذي أنشئ لحمايتنا كلنا ، وخاصة حماية أوروبا نفسها ضد أخطار جديدة .

إلا أن الحرب العالمية الثانية ، لم تكن كذلك ، لقد زالت الروابط التي كانت تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان ، لقد قام الألمان ، تحت الحكم الهتلري باقتراف جرائم منكرة وحشية لا مثيل لها، ولاشك أن المجازر التي أودت بحياة ستة أو سبعة ملايين رجل وامرأة وطفل في معسكرات الاعتقال الألمانية قد تطغى على جرائم جنكيز خان الهائلة ، وتفوقها وحشية ، وقد رسمت المخططات أثناء الحرب في الجبهة الشرقية لإفناء شعوب بأسرها على أيدي الجنود الألمان والروس، أما من ناحية الحلفاء أنفسهم فقد قاموا بغارات وحشية تفوق الغارات الألمانية عشرين مرة، بل كانت تزداد حدة يومًا بعد يوم ، إلى أن بلغت ذروتها في إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناجازاكي وإزالتهما من الوجود .

والآن بعد أن خرجنا من جو الخراب المادي والمعنوي ، نجد أننا لا نزال نواجه نفس المشاكل والأخطار التي تخلصنا منها بأعجوبة ، هذا إذا لم تقل أنها أشد وأدهى.

سأحاول أن أكشف للقارئ كيف كان بإمكاننا تجنب وقوع حرب عالمية ثانية ، نظرًا لكوني عشت هذه الأيام وعملت فيها ، سأحاول أن أبين كيف أن ضعف الفضلاء قد أدى بالنتيجة إلى تقوية الأشرار ، كما سأبين أن أجهزة الدول الديمقراطية تفتقر إلى مقومات الإيمان ما لم تندمج مع أجهزة أقوى وأكبر منها ، إن مقومات الإيمان والثبات هي التي تتمكن من إحلال الأمن والسلام والطمأنينة في نفوس الجماهير ، كما أني سأبين كيف ألا يمكن لأي سياسة أن تستمر لعشر أو لخمس عشرة سنة في آن واحد ، وذلك في قضية الدفاع عن النفس والمحافظة عليها ، وسنرى كيف أن اتباع سياسة التردد قد تصبح عاملاً أساسيًا للخطر ، وكيف أن الحل المعقول الذي ينبع من الرغبة في السلامة والحياة الهادئة قد يؤدي بنتيجته إلى مواجهة الكارثة ، كما أننا سنرى أنه من الضرورة القيام بعمل دولي مشترك بين دول يرجع تآلفها إلى سنين سابقة ، دون الالتفات إلى التيارات المتماوجة في السياسة القومية .

لقد كانت سياسة إبقاء ألمانيا مجردة من السلاح ، سهلة الحفاظ عليها ، وإبقاء المنتصرين بسلاحهم الكامل لمدة ثلاثين سنة على الأقل ، وبنفس الوقت بذل المحاولات لجعل مسألة التفاهم مع ألمانيا حقيقة واقعة ، وإنشاء عصبة للأمم قوية قادرة على الحفاظ على المعاهدات وتطبيقها ، ولا تغير أو تبدل دون اللجوء إلى المفاوضات والاتفاقات ، وعندما تتعاون ثلاث أو أربع دول قوية ، وتطلب من شعوبها تقديم أقصى ما يمكنها من تضحيات ، وتقوم هذه الشعوب بتضحياتها في سبيل الهدف المشترك ، عند ذلك تصبح النتائج المطلوبة معقولة جدًا، إلا أن قوة المنتصرين وعلمهم وثقافتهم كانت عاجزة عن الوصول إلى هذه النتيجة المتواضعة ، فقد ظلوا يعيشون ليومهم دون التفكير بالغد ، وعندما دقت طبول الحرب العالمية الثانية ، كان من الواجب أن نكتب عن أبناء الذين حاربوا وقتلوا بكل إخلاص :

كتفًا إلى كتف ، وجنبًا إلى جنب .

اجتازوا نور الحياة المشرقة .

❖ ❖ ❖

الفصل الثاني

ظهور هتلر
ورؤية تشرشل لشخصية هتلر



يقول تشرشل :

في شهر تشرين الأول عام ١٩١٨ كان العريف الألماني أدولف هتلر طريح الفراش في إحدى المستشفيات بعد أن أصيب بالعمى المؤقت من قنبلة الغاز ، في إحدى المعارك التي شنتها القوات البريطانية بالقرب من كوفنر ، وبينما كان طريح الفراش في المستشفى حلت الهزيمة بألمانيا وعمت الثورة البلاد .

كان هذا العريف ابنًا لموظف من موظفي الجمرك نمساوي الأصل ، وكانت الأحلام تراوده بأن يصبح فنانًا عظيمًا ، لكنه بعد أن فشل في الالتحاق بأكاديمية الفنون في ڤينا ، اضطر إلى البقاء في العاصمة فقيرًا سيئ الحال ، وما لبث أن غادرها إلى ميونيخ وعمل هناك كدهان ، وكعامل مؤقت ، وعاش حياة شقية يغذيها الحقد على العالم كله ، والنقمة عليه لأنه حرمه من نعمة النجاح، إلا أن الشقاء والفقر لم يدفعا به إلى أحضان الشيوعية ، بل ظل يقدس الولاء العنصري الذي كان يتملكه بالإضافة إلى إعجابه الشديد بألمانيا وبالشعب الألماني ، وقد التحق بالجيش الألماني عند نشوب الحرب العالمية الأولى ، وبقي لمدة أربع سنوات في الجبهة الغربية ملتحقًا مع أحد الأفواج البافارية.

وعندما كان في مستشفاه في شتاء عام ١٩١٨ ، بدا له فشله السابق وكأنه اختلط مع الكارثة التي حلت بالشعب الألماني كله ، فسادته نزعة عارمة من الحزن على نفسه وعلى شعبه ، خاصة بعد أن حلت الثورة وعمت الفوضى جميع البلاد .

لم يتمكن أدولف هتلر من فهم أو من تفسير الأسباب التي أدت إلى هزيمة ألمانيا ، إلا أنه كان متيقنًا من ضروب الخيانة الشديدة التي طعنت الجيش الألماني من الخلف ، وراح يفكر في تلك الأسباب العديدة التي أدت إلى الهزيمة من خلال تجاربه الشخصية ، فهو قد اختلط بفئات عديدة متطرفة في ڤينا واستمع إلى قصص الغدر والخيانة الذي قام به عرق غريب آخر هو عدو لدود للشعب الجرماني العريق ، ألا وهم اليهود ، وهكذا تطورت نقمته الأولى المنصبة على الأغنياء والناجحين وتحولت إلى كراهية عارمة .

وعندما خرج من المستشفى ، رأى بعينيه التي أبصرت النور من جديد نتائج ما خلفته الهزيمة وما يدور في المدينة من ملامح ثورة حمراء مرعبة، وشاهد السيارات تطوف بالمدينة ،

تلقي بالمنشورات وتطلق العبارات النارية على المتشردين من أبناء العشب، ورأى زملاءه في الجيش يضعون الأشرطة الحمراء على أذرعهم، فوق بزاتهم العسكرية، ويهتفون بغضب شعارات غريبة تتنافى مع كل ما يعتقده ويؤمن به، وهكذا صدمته الحقيقة المرة، ورأى أن ألمانيا قد أصيبت بطعنة غادرة من الخلف، كان أبطالها من اليهود الذين أمعنوا تقطيعًا بها ليرغموها على الاستسلام بدسائسهم ومؤامراتهم ويؤيدهم في ذلك حلفاء لهم من البلاشفة ليتمموا تنفيذ مخططات ومؤامرات دولية يقوم بها المثقفون اليهود، وشعر بالواجب يحتم عليه بأن يخلص ألمانيا من هذا المرض الخبيث، والأخذ بالثأر من الذين ألحقوا بها الإساءات العديدة، ثم النهوض بالشعب المتفوق إلى مستقبل أفضل.

وانطلق أدولف هتلر يصعد بخطا سريعة نحو القيادة والزعامة، يناصره في ذلك ضباط فوجه، وفي مساء أحد الأيام من شهر أيلول عام ١٩١٩ م، ذهب لحضور إحدى اجتماعات حزب العمال الألمان في أحد المصانع، وسمع لأول مرة في حياته أناسًا يتحدثون بما كان هو يؤمن به من خيانات اليهود ومجرمي شهر تشرين الآخر، الذين دفعوا بألمانيا إلى الهزيمة، فانضم إلى هذا الحزب وخلال فترة بسيطة أصبح أدولف هتلر زعيم الحزب الأول، وغدا يحمل لقب الزعيم أو «الفوهرر» وأصدر جريدة تنطق باسم حزبه هي جريدة «الفولكشاير بيوختر».

إلا أن الشيوعيين لم يقفوا مكتوفي الأيدي، فحاولوا تحطيم حزبه وتفريق اجتماعاته الناجحة، واضطر هتلر إلى إنشاء حرس خاص لصد الهجمات الشيوعية، ونشأت بذلك الوحدات الأولى لقوات العاصفة، وكان نشاطه محصورًا في تلك اللحظة على بافاريا فقط، وكان الجميع في كافة أنحاء الرايخ الألماني كانوا يستمعون بشغف لتعاليم هذا الإنجيل الجديد، فقد كانت النقمة على الأوضاع الحالية تعم ألمانيا كلها، وأدت موجة الغضب التي عصفت بالشعب كله من احتلال فرنسا للروهر عام ١٩٢٣ إلى انضمام الألوف من أبناء الشعب إلى الحزب الجديد الذي أصبح الآن «الحزب الاشتراكي الوطني».

ومنذ البداية وضح هتلر، أن السبيل الوحيد للوصول إلى الحكم هو في الثورة والعنف ضد حكم ويمار وجمهوريته التي خلقت في عار الهزيمة، وانضم إلى دعوة الفوهرر فئة ضمت بين صفوفها، غورنغ وهيس وروزنبرغ وروهم، الذين من ثم اتفقوا على وجوب

استلام السلطة في بافاريا، وانضم إليهم الجنرال فون لوندورف الذي كان رئيس أركان الجيش الألماني أثناء الحرب الأولى، وسار على رأس قوة مجهزة لاحتلال بافاريا، إلا أن رجال الأمن من شدة احترامهم للجنرال لم يطلقوا عليه النار، بل اكتفوا بالتصويب على المتظاهرين، وتمكنوا من اعتقال فئة كبيرة منهم ومن بينهم هتلر نفسه الذي حوكم وحكم عليه بالسجن لمدة أربع سنوات، خفضت إلى ثلاثة عشر شهرًا، وفي سجنه هذا تمكن من تأليف القسم الأكبر من كتابه «كفاحي» الذي أصبح فيما بعد من أهم الكتب التي أقبل على قراءتها قادة الدول الحليفة وزعماؤها العسكريون.

وفي عام ١٩٢٤ خرج هتلر من السجن وصرح أنه لن يتمكن من إعادة تنظيم حزبه قبل خمس سنوات، وفي عام ١٩٢٨ لم يكن لحزبه في البرلمان الألماني «الرايشستاغ» سوى اثنى عشر مقعدًا، ومن ثم ابتدأ الرقم بالارتفاع إلى أن أصبح البرلمان في عام ١٩٣٢ يضم ٢٣٠ عضوًا من الحزب، كما أصبحت الدولة الألمانية كلها خاضعة لنفوذ الحزب الاشتراكي الألماني، وبدأت حركة الاضطهاد بمختلف أنواعها وانصبت النقمة كلها على رؤوس اليهود انتقامًا لما اقترفوه في السابق من جرائم وخيانات ودسائس.

وما إن أطل عام ١٩٣٣ حتى وصل هتلر إلى سيدة الحكم، أولاً كمستشار لألمانيا، وكانت أولى أعماله أن أصدر أمرًا يمنع فيه الحزب الشيوعي من العمل في البلاد، وبدأت حملة قوية عمت البلاد كلها لمصادرة الأسلحة من أيدي الشيوعيين، ونشبت الاضطرابات وبلغت ذروتها حين هب حريق في دار الرايشستاغ، فاستدعيت فرق رجال القمصان السوداء للعمل وللمحافظة على الأمن، وفي نفس الليلة تم اعتقال أربعة آلاف زعيم شيوعي ومن بينهم أعضاء اللجنة المركزية التابعة للحزب للشيوعي، وكان غورنغ الآمر لهذه الإجراءات كلها بعد أن أصبح وزيرًا للداخلية، وبذلك يكون قد أمن هزيمة الشيوعيين خصوم الحزب الاشتراكي الأشداء لكي تكون مقدمة للفوز بالانتخابات الجديدة المقبلة.

وفي الانتخابات فاز النازيون بـ ٢٨٨ مقعدًا في البرلمان واقترع إلى جانبهم ١٧,٣٠٠,٠٠٠ ناخب، وبذلك تمكن هتلر من السيطرة نهائيًا، وفي الحادي والعشرين من شهر آذار عام ١٩٢٣ افتتح هتلر أول مجلس للرايشستاغ في الرايخ الثالث، وجلس حوله كبار القادة، وضباط جيش العاصفة والحرس النازي الخاص الذين يمثلون ألمانيا الجديدة،

وفي الرابع والعشرين من الشهر ذاته وافق الرايشستاغ على منح هتلر سلطات استثنائية لمدة أربع سنوات .

❖ ❖ ❖

هتلر يتحدى:

يقول تشرشل :

بينما كان هذا التغيير المخيف يجري في ألمانيا ، كانت حكومتنا مضطرة إلى التخفيض والتقنين انسجاما مع الأوضاع والأزمات المالية الراهنة التي حدث من تسلحنا ، وبقيت حكومة مكدونالد بالدوين مصمة آذانها عن سماع أو رؤية الأخطار المحدقة بنا نتيجة التغيرات في أوروبا ، ثم حاولت الحكومة أن تطبق قوانين معاهدة فرساي القاضية بنزع السلاح من المنتصرين ، فقدمت عدة مشاريع ومقترحات إلى عصبة الأمم لتضمن تطبيق هذه القوانين ، كما أصرت فرنسا على وجوب بقاء جيشها الذي تعتبره محور حياتها ووجودها ، وقد شجعت هذه المحاولات ، الحكومة الألمانية ، وادعت أن هذا السلوك إنما هو نابع من صميم المجتمع البرلماني الديمقراطي الضعيف والمنحط بطبيعته ، وراح الألمان بدافع من هتلر الذي أوحى إليهم بهذه الأفكار ، يبدون أكثر عجرفة وكبرا ، وما كان من أعضاء الوفد الألماني الذين حضروا مؤتمر نزع السلاح ، إلا أن انسحبوا من الاجتماع في تموز عام ١٩٣٣ ، وحاول الحلفاء مراضاة الألمان بشتى الوسائل إلى أن توصلوا إلى إقرار مشروع اقتراح دعي مشروع هريو ، وهو يقضي بإعادة تنظيم جميع القوات العسكرية الدفاعية في أوروبا ، وجعلها جيوشًا محدودة العدد ، وفرض المشروع على وجوب تخفيض عدد الجيش الفرنسي من خمسمائة ألف إلى مائتي ألف جندي ، بينما يرتفع عدد الجيش الألماني إلى هذا الرقم ، إلا أن الجيش الألماني قد أصبح عدده يجاوز المليون متطوع مجهز بأحدث الأسلحة التي تنتجها المصانع الألمانية التي تم تحويلها إلى مصانع للسلاح ، وكانت النتيجة غير المنتظرة هي في الأوامر الصادرة عن هتلر والقاضية بالانسحاب من كل مؤتمر ومن عصبة الأمم.

لقد كان في وسع عصبة الأمم أن ترد على تحديات هتلر ، وتهديداته العسكرية ، وذلك بفرض العقوبات عن طريق القانون الدولي ، كما أن الحكومة الأميركية لم تكن تكترث لهذه التهديدات إلى أن حان الوقت بعد عدة سنوات ، فوجدوا أنفسهم عند ذلك مضطرين للتضحية بأرواحهم لينقذوا أنفسهم من الخطر المميت .

تشرشل يحكي عن نفسه:

يقول تشرشل :

وفي مطلع عام ١٩٣١ سافرت برحلة إلى الولايات المتحدة الأميركية لإلقاء سلسلة محاضرات هناك ، وفي نيويورك تعرضت لحادث سيارة كاد أن يودي بحياتي ، فقد نزلت من سيارتي من الجانب المعاكس وعبرت الشارع الخامس ، وكانت أنظمة السير المطبقة في أميركا وخاصة فيما يتعلق بالسير المعاكس والأضواء الحمراء التي لم يكن معمولاً بها في بريطانيا في ذلك الحين ، وفجأة وقع اصطدام عنيف كانت نتيجته أن لازمت الفراش في المستشفى لمدة شهرين وأنا محطم شر تحطيم ، ومر هذا العام وأنا بصحة سيئة للغاية ، إلى أن بدأت أستعيد صحتي تدريجيًا بعد ذلك .

لقد كانت السنوات ما بين عام ١٩٣١ و ١٩٣٥ من أمتع سنوات عمري ، فقد انصرفت إلى التأليف وإلى إلقاء المحاضرات ، وقد كسبت الكثير من عائدات مقالاتي وكتبي التي لاقت رواجًا كبيرًا في بريطانيا العظمى وفي الولايات المتحدة الأميركية ، كذلك في القارة الأوروبية كلها.

وفي عام ١٩٣٢ اضطررت للسفر إلى ميونيخ وذلك لمتابعة تأليف أحد كتبي عن تاريخ مارلبورو، وقد أمضيت في ميونيخ حوالي الأسبوع ، ونزلت في فندق ريجينا ، وهناك تعرفت إلى شخص يدعي الهر هانغستانغل الذي كان من المتحمسين لهتلر والذي كان على علاقات طيبة معه، وقد دعوته في أحد الأيام لتناول العشاء معنا بعد أن أعجبتني لباقته ، وأثناء العشاء حدثنا كثيرًا عن هتلر وعن نشاطاته وآرائه ، وكنت أشعر وأنا أصغى إليه ، أن الرجل كان واقعًا تحت سحر هتلر دون ريب ، وقد علمت أن الأوامر قد صدرت إليه بالاعتناء بي ، وبدا أنه يرغب في إدخال السرور والبهجة إلى نفسي ، لقد كان الرجل لطيفًا إلى أبعد الحدود ، ومن المقربين إلى الفوهرر، وقد دعاني إلى الاجتماع به وتطوع إلى أعداد الموعد معه ، إذ إن الفوهرر يتردد كل يوم إلى الفندق في الساعة الخامسة مساء ، وسيسره الاجتماع بي شخصيًا .

في ذلك الحين لم أكن أي عداء لهتلر بالذات، ولم أكن أعلم الكثير عن عقيدته وفلسفته وشخصيته ، بل كنت معجبًا به ؛ لأنه تمكن من النهوض ببلاده بعد الهزيمة المنكرة التي لحقت بها ، وفي أثناء حديثي مع الهر هانغستانغل تطرقت إلى الحديث عن اليهود بشكل

لاحظت أنه لم يكن راضيًا عنه ، وفي اليوم التالي عندما اجتمعت به للمرة الثانية قال لي أن الفوهرر لن يتمكن من الاجتماع بي ، فهو لن يأتي إلى الفندق في هذا اليوم ، وكانت هذه آخر مرة رأيت فيها «بوتزي» وهو اسمه الصغير ، بالرغم من أنني أمضيت عدة أيام أخرى في الفندق ، وهكذا أضاع هتلر فرصته الوحيدة في مقابلتي ، وفيما بعد تلقيت عدة دعوات من الفوهرر ، بعد أن أصبح في ذروة القمة، لكنني كنت أعتذر عن قبولها ؛ لأن أشياء عديدة حدثت أثناء ذلك .

ماذا حدث في الشرق الأقصى ؟

يجيب تشرشل قائلاً :

في الشرق الأقصى ، فكان الاستعداد للحرب ينبع من اليابان بصورة خاصة ، فقد أثرت الأزمة الاقتصادية عليها بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣١ بشكل كبير ، فقد ارتفع عدد سكانها من خمسين مليونًا إلى سبعين مليونًا وازدادت أعداد مصانعها من خمسين إلى مئة وثمانية وأربعين مصنعًا، كما ارتفعت نسبة المعيشة ، وبقي إنتاج الأرز على ما هو فيما كان استيراده من الخارج باهظ التكاليف ، واشتدت الحاجة إلى المواد الأولية وإلى الأسواق الخارجية فاضطرت بريطانيا وأربعون دولة أخرى إلى زيادة التعريفة الجمركية العالمية على البضائع المستوردة من اليابان ، لمواجهة الكارثة الاقتصادية ، وخوفًا من طغيان تلك البضائع على البضاعة الوطنية ، فتحولت أنظار اليابان إلى الصين السوق الرئيسي لتصريف منتجاتها من القطن ، بالإضافة إلى كونها المورد الوحيد لاحتياجاتها الهائلة إلى الفحم والحديد ، لذلك أصبحت السياسة اليابانية تقضي بفرض السيطرة على الصين ووضعها تحت أشرافها وسيطرتها واختلقت اليابان عذرًا تافها وانقضت على منشوريا واحتلت منطقة سكة الحديد، ثم طالبت بحل المنظمات الصينية المعادية لليابان ، إلا أن الحكومة الصينية رفضت هذا الطلب ، فأنزلت اليابان قواتها عند ذلك إلى المنطقة الشمالية من شنغهاي، وقد قاوم الصينيون ببسالة لمدة شهر واحد ، إلا أنهم اضطروا بعد ذلك إلى الانسحاب ، وتقدمت القوات اليابانية متوغلة في داخل الصين إلى أن بلغت سورها العظيم ، ومن ذلك الوقت بدأت الاستعدادات اليابانية تزداد وتقوى ، خاصة قواتها البحرية .

❖ ❖ ❖

الفصل الثالث

المنظر القاتم
وفكرة احتلال النمسا



يقول تشرشل :

لقد كانت فكرة احتلال النمسا تراود مخيلة هتلر منذ البداية ، فقد كتب في كتابه كفاحي العبارة التالية وفي الصفحة الأولى منه «يجب على النمسا الألمانية أن تعود إلى الوطن الأم الكبير»، لذلك فقد كانت النظرات الأولى تتجه نحو فينا منذ تسلم الحكومة النازية السلطة في عام ١٩٣٣ ... إلا أن هتلر كان يخشى الاصطدام مع موسوليني الذي كان يطمح ويطالب بمصالحه في النمسا، خاصة وأن الدوتشي لم يكن متحمسًا لوصول هتلر إلى سدة الحكم ، لذلك فقد تحتم على ألمانيا أن تكون على حذر شديد في أعمالها ونشاطاتها السرية ، وبالرغم من ذلك فقد بدأ ، الضغط على النمسا يظهر منذ الشهور الأولى ، وراح الحزب النازي يطالب الحكومة النمسوية بشدة بوجوب إدخال أعضاء من الحزب التمسوي النازي في الوزارة وفي المراكز الحساسة في الدولة ، وبدأ النمساويون النازيون يتلقون التدريبات العسكرية في معسكرات أعدت خصيصًا لهم في بافاريا، وراحت الطائرات الألمانية تلقي المنشورات على سالزبورج وأينزبروك ، والتي كانت تنغص عيش الجمهورية الوادعة .

وفي عام ١٩٣٤ وصل كبير مستشاري موسوليني في الشؤون الخارجية إلى فينا ، وكانت زيارته بمثابة تحذير للحكومة الألمانية ، وما لبث أن صرح أن إيطاليا تؤيد استقلال النمسا وتحافظ عليه، ولم تمض أسابيع ثلاثة على هذه الزيارة ، حتى قامت الحكومة النمسوية بسلسلة من الإجراءات ضد الأحزاب الاشتراكية في فينا ، وقامت بعد ذلك بحملة عنيفة لنزع السلاح من أيدي المنظمات شبه العسكرية التابعة للاشتراكيين النمسويين ، وأسفرت هذه الحملة عن اصطدامات عنيفة بين الأحزاب والقوات الحكومية ، وأدت إلى انهزام الاشتراكيين ، كما أدت إلى تقوية مركز إيطاليا مستقبلاً في صد تسلل النازيين وتآمرهم ، إلا أن عددًا كبيرًا من الاشتراكيين والشيوعيين انضموا إلى المعسكر النازي ، كتعبير عن سخطهم الشديد ، وأدى ذلك بمجموعة إلى تقوية النازيين والنازية .

وفي شهر حزيران من العام نفسه ، طار موسوليني إلى البندقية لمقابلة الفوهرر لأول مرة في حياته ، وعندما نزل هتلر من طائراته فوجئ بمظاهرة عسكرية يرأسها الدوتشي بنفسه وهو يتألق ببزة عسكرية أنيقة ، وكانت أول كلمة قالها موسوليني لمرافقه حين رأى هتلر : «لم

أحب شكل هذا الرجل» ، وقد جرى الاتفاق في هذه المقابلة على تخفيف حدة الضغط على حكومة النمسا، وقد أكد له هتلر ذلك بوعود قاطعة .

ولم تكن هذه التأكيدات أو هذا التوقف ، بسبب من مداخلات موسوليني ، بل بسبب انشغال هتلر بمشاغل داخلية محضة ...



هتلر وموسوليني

هتلر يضحي بقادة جيش الصاعقة:

يقول تشرشل :

نشبت الخلافات بين هتلر وبين الذين حملوه إلى سدة الحكم . وكان جيش الصاعقة يمثل الفئة الثورية في الحزب ، تحت قيادة روهم . وفي ربيع عام ١٩٣٤ بلغ عدد أفراد هذا الجيش ثلاثة ملايين مجند من ذوي القمصان البنية . وشعر هتلر بالقلق نتيجة لهذا النمو الهائل ، بالرغم من يقينه بولاء جميع أفراد هذا الجيش ، وتعلقهم بشخصه ، وكان يردد أمام قادة جيشه هذا، بأنه سوف يقاوم ويقمع أية محاولة لتغيير نظام الحكم القائم بمنتهى الشدة والبطش ، وإن كل من يجرؤ على رفع رأسه ضد الدولة فسيحطمه بكل شدة وقسوة . وكانت هواجس هتلر ومخاوفه صحيحة، إذ أن روهم قائد جيش الصاعقة ، بدأ محاولة للإطاحة بحكم هتلر ، وفي كانون الأول من العام نفسه، عندما أعلنت الوحدة بين الحزب والدولة ، غدًا روهم عضوًا في مجلس الوزراء ويبحث في أمر دمج ذوي القمصان البنية مع بقية أفراد الجيش النظامي . إلا أن روهم خاف من هذه التضحية بجيشه الذي مضى السنين الطويلة في إنشائه ، ومن ذلك الوقت بدأ الخلاف يظهر مجددًا بين روهم ورئيس الأركان الجنرال فون بلومبرغ ، الذي كان يبدي تذمره الشديد أمام الفوهرر من تصرفات ذوي القمصان البنية الحمقاء . وكان على هتلر أن يختار بين أمرين اثنين أما التضحية بقادة جيشه المنظم أو بقادة جيش الصاعقة الذي رفعه إلى قمة المجد . وأخيرًا قرر التضحية بقادة جيش الصاعقة واستدعى روهم واجتمع به لمدة خمس ساعات حاول خلالها التفاهم مع روهم المتعصب الشاذ دون جدوى ...

وكانت قد تألفت من جيش الصاعقة فرق جديدة من ذوي القمصان السود، ليكونوا بمثابة الحرس الخاص للفوهرر ، وللقيام بالمهام السرية الخطرة . وقد تولى قيادة هذه الفرق الجديدة هنريك هملر !

وهنا تختلف الأقاويل عن الأسباب التي جعلت هتلر يقوم بضربته القوية ضد روهم ورفاقه. فمنهم من كان يقول: إنه بسبب وجود مؤامرة تحاك ضده ، ومنهم من كان يقول: إن الفوهرر أراد القيام بحركة تطهير شاملة وهو لا يزال في أوج عظمته وجبروته . وعلى كل حال ، فقد تطورت الأحداث في يوم الخامس والعشرين من شهر حزيران ، إذ طلب

هتلر من رجال الجيش البقاء في ثكناتهم، ثم قام بتوزيع السلاح والعتاد على أفراد الحرس الخاص من ذوي القمصان السود، وبنفس الوقت أصدر أمرًا لذوي القمصان البنية ليكونوا على أهبة الاستعداد، وطلب من جميع قادة جيش الصاعقة الحضور إلى اجتماع يعقد في الثلاثين من شهر حزيران. وترددت شائعات، وصلت إلى هتلر، إن مساعد روهم يحاول القيام بثورة، عندئذ قرر هتلر القيام بعمل سريع يقضي به على خصومه دفعة واحدة. فأمر غورنغ بالدخول إلى برلين والسيطرة عليها، وطار هو إلى ميونيخ ليقوم بمفاجأة خصومه شخصيًا ويعتقلهم بنفسه يساعده في ذلك اثنا عشر رجلاً من ذوي القمصان السود. وما إن وصل إلى مقر قيادة جيش الصاعقة، حتى فاجأ كبار القادة بنبأ اعتقالهم، ثم استقل سيارة يرافقه هذا العدد القليل من الحرس واتجه إلى ويسي حيث كان روهم. فوصل إلى هناك في تمام السابعة صباحًا.

ترجل هتلر من سيارته واتجه إلى المنزل وحيدًا دون سلاح واقتحم غرفة نوم روهم الذي أذهلته المفاجأة الشديدة، وتم اعتقاله مع عدد من أركان حربه. وعاد الجميع مع الأسرى إلى ميونيخ، حيث وضعوا جميعهم في نفس السجن الذي اعتقل فيه هتلر قبل عشر سنين، وفي نفس اليوم بدأ تنفيذ حكم الإعدام بجميع المعتقلين دون استثناء واستمرت عملية الإعدام طيلة بعد الظهر، وقد أمر هتلر بتغيير الفرق التي كانت تقوم بمهمة الإعدام، بسبب الإجهاد العقلي الذي أصابهم نتيجة للوحشية التي تم فيها تنفيذ حكم الإعدام.

وفي برلين تمت نفس العملية التي جرت في ميونيخ، فقد قام غورنغ بتنفيذ حكم الإعدام بجميع الذين اعتقلهم، وبلغ عدد الذين أعدموا في ذلك اليوم سبعة آلاف شخص!!

ورجع هتلر إلى برلين حيث أطل من شرفة دار المستشارية ليتلقى هتافات الجماهير، التي كانت تعتقد أن الفوهرر كان ضحية مؤامرة رهيبة خرج منها سالمًا بفضل قوته وسرعة بديهته. وهكذا تمكن هتلر بفضل هذه المجزرة الرهيبة من تثبيت أسس حكمه وترسيخ عقيدته، كما حافظ على وحدة ألمانيا الاشتراكية الوطنية، لتحمل لعنتها تلك إلى العالم بأسره...



وأظهرت هذه المذبحة أن الفوهرر لن يردعه أي شيء عن تنفيذ كل ما يريده ،وبدت الأوضاع القائمة ، بالنسبة للعالم الخارجي ، أوضاعًا لا يمكن وصفها بالأوضاع المتمدنة . وأصبح على هذا العالم أن يواجه حكمًا دكتاتوريًا يقوم على الإرهاب وسفك الدماء .

الانقلاب المفاجئ:

يقول تشرشل :

نشطت الحركة بين بافاريا والحدود النمساوية في شهر تموز من عام ١٩٣٤ م ، وبدأ الإعداد للثورة وقلب نظام الحكم فيها . وفي صباح الخامس والعشرين من الشهر نفسه غدت الثورة واضحة إذ دخلت جماعة من المسلحين دار المستشارية ، وقتلوا الرئيس دلفوس، كما استولت فصيلة أخرى من الثوار النازيين على دار الإذاعة وأعلنت حل حكومة الرئيس دلفوس ، وتعيين ريتلين رئيسًا جديدًا .

إلا أن هذا الانقلاب المفاجئ لم يعمر طويلاً ، إذ قام رئيس الجمهورية بالرد على الحركة الانقلابية ، أيده في ذلك موسوليني من إيطاليا وأرسل ثلاث فرق عسكرية إلى ممر برينر ، مما اضطر هتلر إلى التراجع ، وطلب من وزير ألمانيا المفوض وبعض الذين اشتركوا في المؤامرة الرجوع إلى بلادهم فورًا حيث فصلهم من الخدمة ، وبذلك أنهى المحاولة الأولى للإطاحة باستقلال دولة النمسا .

وقد قربت هذه الأحداث بين إيطاليا وفرنسا ، فقد أدى هذا التهديد لاستقلال النمسا إلى إعادة النظر في العلاقات بين فرنسا وإيطاليا ، كما شملت الأبحاث موضوع توازن القوى وأوضاع فرنسا وإيطاليا بالنسبة إلى جنوب إيطاليا الشرقي ، وكان هدف موسوليني الحفاظ على مصالح إيطاليا الاستعمارية في إفريقيا ، بالإضافة إلى تقوية مركزه في أوروبا ضد التهديدات الألمانية .

أما فرنسا التي كانت ترغب منذ وقت طويل في الوصول إلى اتفاق رسمي حول إجراءات الأمن والسلامة في الشرق ، إلا أن تردد بريطانيا في التورط بأية تعهدات وراء نهر الراين ، ورفضها عقد محالفات مع بولندا وتشيكوسلوفاكيا ، كما أن مخاوف دول التحالف الصغيرة من نوايا الروس ومطامحها ، بالإضافة إلى شكوك روسيا في الغرب ، كل هذا أدى إلى فشل برامج فرنسا، إلا أن السيد بارتو وزير خارجيتها عزم على المضي في برنامجه واتبع برنامجًا يقضي بعقد اتفاق يضم ألمانيا وروسيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ودول البلطيق ، تقوم فيه فرنسا بضمان حدود روسيا في أوروبا ، وتضمن روسيا حدود ألمانيا الشرقية ، إلا أن ألمانيا وبولندا عارضتا الفكرة ، لكن بارتو نجح في إقناع روسيا بوجوب الدخول إلى عصبة الأمم.

وكان هدف فرنسا الأول هو البحث عن حلفاء جدد ضد ألمانيا ، فاتجهت نحو روسيا محاولة أن تبعث فكرة توازن القوى التي كانت قائمة قبيل الحرب العالمية الأولى ، إلا أن مأساة وقعت في شهر تشرين الأول حين دعي الملك إلكسندر اليوغوسلافي لزيارة رسمية إلى باريس ، وعندما نزل في مرسيليا ، كان في استقباله المسيو بارتو والجنرال جورج، بينما كانت الجماهير محتشدة في الشوارع تهتف معربة عن فرحها الكبير .

وفجأة ظهر شخص من بين الحشود وتسلق سيارة الملك وأطلق عليه الرصاص من مسدس كان يحمله ، وهجمت الحرس عليه وأمعنت فيه ضربًا بالسيوف وقطعته إربًا ، وقد قتل الملك على الفور ، وأصيب المسيو بارتو والجنرال جورج بإصابات بالغة ، ولم يتمكن الوزير بارتو من المقاومة فتوفي بعد بضع ساعات ، وبوفاته أصيبت السياسة الخارجية الفرنسية بضربة قاصمة ، وخلفه في الوزارة بيير لافال .

إن تاريخ لافال المشين اللاحق ، ومصيره لن يحولا بيننا وبين الإعراب عن حقيقة قوته الشخصية ومقدرته ، فقد كانت وجهة نظره صافية وصلبة، فهو قد آمن بضرورة تجنب الحرب، خاصة بالنسبة لفرنسا ، وهدف إلى إجراء ترتيبات مع حكام ألمانيا وإيطاليا ، اللذين لا يحمل ضدهما أي ضغينة ، وكان لا يثق بروسيا ونواياها ، كما أنه كان لا يحب بريطانيا ، بالرغم من مظاهر الصداقة التي كان يظهرها تجاهها ، وكان يعتقد بأنها حليف لا نفع منه . لذلك قرر الابتداء بالتفاهم مع إيطاليا ، لاسيما وإن الخوف من ألمانيا أصبح كبيرًا جدًا ، إلا أنها كانت

مستعدة للتساهل طمعًا في كسب صداقة إيطاليا ... وسافر في كانون الآخر عام ١٩٣٥ إلى روما حيث عقد عدة اتفاقات بين الدولتين لإزالة العقبات التي تعترض طريق التفاهم بينهما، وخاصة الاتفاق حول معارضة إعادة تسليح ألمانيا . وتعهدت فرنسا بالتساهل مع الإيطاليين في تونس ، كما سلمت لإيطاليا مساحات شاسعة من الأراضي الواقعة على حدود ليبيا والصومال ، وإعطاء إيطاليا نسبة ٢٠٪ من عائدات سكة حديد جيبوتي ـ أديس أبابا ، وكان من المقرر أن تكون هذه الاتفاقات بداية محادثات رسمية تشمل فرنسا وإيطاليا وبريطانيا العظمى ، لإقامة جبهة تقف في وجه الخطر الألماني المتزايد ، إلا أن الصدام بين الجنود الإيطاليين والحبشيين على حدود الحبشة والصومال الإيطالي ، كان الحجة التي استخدمتها إيطاليا في المطالب التي وجهتها إلى الحبشة ، وهكذا أدى مصير الحبشة إلى اضطراب فكرة التضييق على ألمانيا وحصرها في القارة الأوروبية .

❖ ❖ ❖

الفصل الرابع

فقدان التوازن الجوي والعقوبات ضد إيطاليا
وإعلان هتلر إنشاء السلاح الجوي الألماني



يقول تشرشل :

لم تكن ألمانيا تعتقد أن في إمكانها إعادة تسليح جيشها تسليحًا كاملاً متفوقًا قبل عام ١٩٤٣، إلا أن الاكتشافات العلمية الحديثة، وخاصة اختراع الآلة ذات الاندفاع الداخلي، وتقدم فن الطيران، جعلاً من مسألة التفوق العسكري والقوة العسكرية أمرًا يتوقف على جهود الدولة في ميدان العلم والمعرفة . وكانت ألمانيا تتمتع بإمكانات ضخمة في هذه الميادين، فتمكنت ألمانيا من خلق هيكل سلاح جوي في الجيش، بعد أن كان محرومًا من هذه القوة الجوية الهامة، ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت أمام أعيننا الحقيقة المرعبة فقد توصل هتلر إلى الرقم المعادل في عدد الطائرات، الذي وصلت إليه بريطانيا، ولم يتبق عليه إلا أن يصدر أوامره بزيادة الإنتاج والإسراع به كي يرفع من مستوى الطائرات الموجودة ويحسنها، وأصبحت لندن مهددة من الجو، ووجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة الثابتة في جميع القرارات التي نتخذها، إذ لم يعد في إمكاننا اللحاق بألمانيا، إلا أننا بذلنا مجهودات ضخمة جبارة، وحلقت في سماء العاصمة طائرات «الهاريكين» و «السبيتفاير» في عام ١٩٣٥م، إلا أن العدد لا يزال ضئيلاً، وعندما نشبت الحرب شعرنا بتفوق السلاح الجوي الألماني الذي بلغ بمجموعه ضعف سلاحنا الجوي الملكي .

وفي اليوم التاسع من شهر آذار عام ١٩٣٥ أعلن هتلر بصورة رسمية إنشاء السلاح الجوي الألماني، كما أعلن عن التجنيد الإجباري في جميع البلاد، وفي نفس الوقت أعلنت فرنسا تمديد مدة الخدمة العسكرية إلى سنتين، وشرعت ألمانيا في تنظيم جيشها على أسس حديثة، كما أصبح الجيش تابعًا للفوهرر مباشرة، وغدا القائد الأعلى له، وأصبح على كل جندي أن يحلف يمين الولاء لهتلر لا للدستور، كما أصبحت وزارة الحربية تابعة لأوامره مباشرة، واتخذت الإجراءات اللازمة لتدريب الشباب الألمان، فما أن ينشأ الولد حتى ينضم إلى شبيبة هتلر التي تضم جميع أولاد ألمانيا، ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الحرس النازي بعد أن يبلغوا سن الثماني عشرة ويعملوا فيه لمدة سنتين . وعندما يصبح الشاب في سن العشرين يفرض عليه تأدية الخدمة العسكرية لمدة ستة أشهر يقضيها في شق الطرق وبناء المعسكرات وتجفيف المستنقعات، وبعد ذلك ينتقل للعمل مع القوات المسلحة .

وفي الخامس عشر من تشرين الأول عام ١٩٣٥ افتتح هتلر كلية أركان الحرب الألمانية، وبدأ بذلك الإعداد الكبير لتدريب الجيش وتوسيع صفوفه .. كما استدعيت الفئة الأولى من مواليد عام ١٩١٤ للخدمة العسكرية حيث تقرر إعداد وتدريب ٥٩٦ ألف رجل على فنون القتال ، وهكذا قفز رقم الجيش الألماني إلى ٧٠٠ ألف رجل ، إلا أن هذه الأرقام المخيفة لم تبلغ بعد عدد وقوة الجيش الفرنسي واحتياطيه الكبير ، وكان بالإمكان حتى هذا التاريخ اتخاذ أي قرار من جانب عصبة الأمم لوقف هذه العمليات الرهيبة المخالفة لمعاهدات الصلح واتفاقاته ، كما كان بالإمكان تقديم ألمانيا إلى المحاكمة أمام هيئة دولية ، تقدم فيه بيانًا عن تسلحها وتسمح للجان الحلفاء بالتحقيق في هذه الأوضاع ، أما في حالة رفضها الإذعان لهذه الإجراءات ، تقوم الجيوش الحليفة باحتلال جميع المنافذ والمعابر على نهر الراين حتى يضمن الحلفاء تنفيذ ألمانيا لتعهداتها ، وبذلك يصبح بالإمكان تأجيل وقوع الحرب العالمية الثانية إلى أجل غير مسمى ...

❖ ❖ ❖

الضربة الثانية للسلام:

يقول تشرشل :

كانت الضربة الثانية للسلام العالمي ، بعد خسارة بريطانيا للتعادل الجوي ، حين انتقلت إيطاليا إلى جانب ألمانيا ، وبذلك تمكن هتلر من التقدم في طريقه نحو القتال . فبعد أن ساعد موسوليني النمسا على الحفاظ على استقلالها ، قرر أن ينتقل إلى الجانب الآخر ، ولم تعد ألمانيا وحيدة في الميدان العسكري بفضل أطماع ديكتاتور إيطاليا لتوسيع رقعة إمبراطوريته التي شرع في إنشائها .

وقد ظهرت جلية استعدادات موسوليني لاحتلال الحبشة ، بعد مؤتمر ستريزا ، وكان من الواضح أن الرأي العام البريطاني سيعارض مثل هذا الاعتداء الصارخ ، كما أن البعض كان يجد في هذه المعارضة تشجيعًا لإيطاليا في المضي نحو ألمانيا ، خاصة وهي الدولة المعتبرة من الدول الكبرى ، فبانضمامها إلى ألمانيا ستخسر بريطانيا حليفًا مهما .

ولا أزال أذكر الحديث الذي جرى بيني وبين المستر دف كوبر حول هذا التبدل في الميزان الأوروبي الذي جاء معاكسا لمصالحنا، وقد اقترح البعض أن نؤلف وفدًا لمقابلة موسوليني يشرح له النتائج التي ستؤدي إليها حركته في بريطانيا. وبالطبع لم يؤلف هذا الوفد، فلم يكن هذا سيؤدي إلى أي نتيجة، فقد كان موسوليني يعتقد أن بريطانيا أصبحت عجوزًا ضعيفة لا تستطيع القيام بأي عمل حربي عدا الصراخ والضجيج.

وكانت وجهة نظري في هذه المسألة هي في حمل القضية إلى عصبة الأمم ضد إيطاليا، ومطالبة فرنسا بتأييدنا، إلا أنني حذرت من الضغط عليها، وذلك بسبب ارتباطاتها مع إيطاليا، وانشغالها في المشكلة الألمانية. كما أنني نصحت بعدم تزعم هذه القضية والتحمس لها، وذلك بسبب خوفي من ألمانيا ومن الأوضاع التي وصلت إليها أجهزتنا الدفاعية... إلا أن الحكومة وقفت موقفًا مكشوفًا وصرحت بأن بريطانيا ستقف إلى جانب التزاماتها وإلى جانب ميثاق عصبة الأمم، وسافر بعد ذلك وزير الخارجية إلى جنيف ليجمع تأييد الدول الأعضاء في عصبة الأمم لفرض عقوبات على إيطاليا، إذا هي قامت بضرب الحبشة، وكانت هذه العقوبات تعني قطع المساعدات المالية، والمواد الاقتصادية عن إيطاليا، وتزويد الحبشة بها. وكانت هذه العقوبة شديدة الخطورة على إيطاليا التي تعتمد على استيراد البضائع التي تحتاج إليها في الحرب، من الخارج.

وفي الثاني عشر من شهر أيلول وصلت البارجتان البريطانيتان «هود» ورينـاون» إلى جبل طارق بالإضافة إلى سرب من الطرادات والمدمرات. كما اتخذت عصبة الأمم قرارًا بأغلبية خمسين صوتًا يقضي باتخاذ إجراءات جماعية ضد إيطاليا، وعينت لجنة قوامها ثمانية عشر عضوًا لتقوم بمحاولة أخيرة للوصول إلى حل سلمي، وعندما أصدر موسوليني بيانه التاريخي بقوله: «إن إيطاليا ستواجه العقوبات بالنظام والاقتصاد والتضحية» إلا أنه أضاف أن إيطاليا إذا وجدت أن هذه العقوبات ستعرقل برنامجه لغزو الحبشة فسيشن الحرب على كل دولة تقف في طريقه، وقد أضاف معلقًا على قرار عصبة الأمم بقوله: «خمسون دولة، نعم هذه الدول كلها تقودها دولة واحدة!

❖ ❖ ❖

موقف بريطانيا من سفك الدماء:

يقول تشرشل :

عدة حوادث غيرت مواقف بريطانيا هي :آثار سفك الدماء في إبسينيا ، والكراهية للفاشية وتطبيق العقوبات من قبل عصبة الأمم، هياج الطبقات العاملة في بريطانيا ، وحزب العمال البريطاني ، ولم يكن النقابيون وعلى رأسهم المستر أرنست بيفن ميالين إلى المهادنة والسلام ، واجتاحت الرغبة العازمة في محاربة الدكتاتور الإيطالي ، وتطبيق أقصى العقوبات عليه ، وتدخل الأسطول البريطاني إذا لزم الأمر ، وكان عدد كبير من أعضاء مجلس العموم يشاطر النقابات رأيها في هذا الصدد . واستقال مستر لانسبوري من رئاسة الكتلة البريطانية لحزب العمال ، وتولى الميجور أتلي الرئاسة خلفاً له .

وفي هذا الوقت حل البرلمان وأجريت انتخابات جديدة ، وأعلن رئيس الوزراء أن العقوبات تعني أولاً الحرب لكنه كان مصمماً على ألا تكون هناك الحرب ، إلا أنه مصمم في نفس الوقت على العقوبات ، وتجنبت عصبة الأمم ، بطلب من بريطانيا ، فرض العقوبات خوفاً من استفزاز إيطاليا وإكراهها على الحرب ، فاكتفت بمنع بعض السلع من الوصول إلى إيطاليا وإكراهها على الحرب ، فاكتفت بمنع بعض السلع من الوصول إلى إيطاليا وبعض المواد الحربية ، ولم تقطع الزيت عنها واستمر في الوصول إليها بكل حرية ، إذ أن قطعه يعني الحرب بصورة قاطعة ، وكان من جملة السلع الممنوعة ، تصدير الألومنيوم . إلا أن هذا المعدن كانت إيطاليا تنتجه بشكل ضخم يفوق حاجاتها . وبالإجمال كانت العقوبات المفروضة لا تعتبر عقوبات بالمعنى الصحيح ، يقصد منها شل حركة المعتدين ومنعهم من العدوان .

أما بالنسبة لبريطانيا فقد كان بإمكانها منع إيطاليا من المرور في قناة السويس ، وأن تخوض معركة بحرية من الأسطول الإيطالي ، بالرغم من أن بوارجنا كانت قديمة ، وأن الأسطول يفتقر إلى المدافع المضادة للطائرات كما يفتقر إلى الغطاء الجوي الضروري ، إلا أنه باستطاعتنا قطع الإمدادات والمواصلات الإيطالية مع الحبشة ، وكنت واثقاً من أن موسوليني لم يكن ليجرؤ على الاشتباك مع قواتنا ، فقد كان العالم كله ضده في ذلك الوقت ، وكان من المنتظر أن يتعرض حكمه للخطر ، في حالة خوضه غمار الحرب مع بريطانيا ، ومع أنني كنت أعارض فكرة القيام بأي عمل فردي تقوم به بريطانيا ، إلا أننا قد قطعنا شوطاً

بعيدًا في هذه المرحلة ، ومن العار أن تتراجع الآن، لكن الحقيقة كانت ظاهرة في حب الحكومة الحاضرة للسلام والحفاظ عليه، هذا الحب الذي جر العالم في حرب أكثر فظاعة .

❖ ❖ ❖

نتائج سقوط البلاد الحبشية:

يقول تشرشل :

أدى سقوط البلاد الحبشية وضمها إلى الممتلكات الإيطالية ، إلى نتائج إيجابية في ألمانيا ، فقد بدا الإعجاب بموسوليني وطريقته الفذة السريعة التي أنهت فيها إيطاليا الحملة على الحبشة ، وكان الرأي العام السائد أن بريطانيا خرجت من هذه الأزمة مقهورة ضعيفة ، وقال أحد ممثلينا في بلغاريا : «إن إشارات الاحتقار لبريطانيا أصبحت ظاهرة سافرة في جميع الأوساط . وهذا مما جعل ألمانيا تتصلب في مواقفها للتفاوض لإيجاد تسوية في أوروبا الغربية وتسوية أكبر لجميع الشؤون الأوروبية والعالمية ، وكانت هذه الأقوال صحيحة تمامًا ، فقد تولت حكومة جلالته ، دون تفكير بالأمر ، زعامة خمسين دولة للتعبير عن الشجاعة لوقف إيطاليا عند حدها ، وما إن واجهت الحقائق القاسية حتى تراجعت الحكومة عن موقفها الشجاع وتخاذلت ، وبذلك أصابت عصبة الأمم بخيبة أمل كبيرة وألحق بها أشد الأضرار .

❖❖❖

الفصل الخامس

هتلر يضرب

بعض فرق الخدمة الإجبارية في الجيش



يقول تشرشل :

لقد كان الاحتلال الوحشي للحبشة ، الصدمة القوية التي أحسن بها الشعب البريطاني من اتفاق هور - لافال وفشل عصبة الأمم من العوامل التي غيرت أوضاع حزب العمال وحزب الأحرار بالإضافة إلى الرأي العام الحسن النية . وبدت فكرة قبول نشوب الحرب ضد الطغيان الفاشي والنازي ، تلاقي صدى حسنا في النفوس ، حتى الذين يحبون السلام ويعتزون بالمهادنة . وبالرغم من معارضة حزبي المعارضة لجميع الإجراءات المؤدية إلى إعادة التسلح ، إلا أن مجال الاتفاق كان واسعا ، ولو حاولت حكومة جلالته أن ترتفع إلى مستوى الأحداث ، لتمكنت من تزعم جبهة شعبية متحدة ، تقودها في طريق حملة قوية للتأهب والاستعداد.

إلا أن الحكومة بقيت متمسكة بسياسة الاعتدال وأنصاف الحلول . وقد أذهلني عدم اهتمامها بالبحث عن توحيد الانسجام الذي أخذ يسود صفوف الشعب ، ولو أنها حاولت البحث عن هذا التوحيد ، لقوت بذلك مركزها وكسبت قوة كانت ضرورية للبلاد .

أما بالنسبة لألمانيا ، فقد أدى تسليحها من جديد إلى اقتراب موعد الحرب العالمية ، وأصبح نشوبها أمرًا مؤكدًا،فبعد أن تأخرنا عن توقيف هتلر عند حدوده ، وبعد أن فرض هتلر الخدمة الإجبارية في الجيش ، متحديًا بذلك جميع المعاهدات ، وبعد أن غفرت بريطانيا له هذا التحدي العجيب ، وعقدت معه اتفاقًا وسمح له بإعادة بناء أسطوله البحري الذي يضم عددًا من الغواصات يوازي عدد الغواصات البريطانية . وبعد أن صرحت ألمانيا بنفسها أنها أصبحت تملك سلاحًا جويًا يضاهي السلاح الجوي الملكي البريطاني بدأت الآن تدخل عامها الثاني في الاستعداد والعمل النشيط لإنتاج العتاد الحربي الرهيب ، وأصبحت بريطانيا وأوروبا كلها ، وأميركا التي كانت تعتقد أنها بعيدة عن الخطر ، تواجه الآن قوة ضخمة منظمة ، بالإضافة إلى التصميم على خوض حرب ضروس ضد سبعين مليونًا من البشر .

وكانت من جملة بنود معاهدة فرساي ، البنود القائلة بعدم السماح لألمانيا بإقامة

تحصينات دفاعية على الجهة اليسرى من نهر الراين ، وإلى خمسين كيلو مترًا من الجهة اليمني من النهر ، كما أنها منعت أي وجود لقوات عسكرية بحرية في هذه المنطقة ، كما أن معاهدة لوكارنو التي نصت على حفظ الحدود القائمة بين ألمانيا وبلجيكا ، وبين ألمانيا وفرنسا . وتعهد الفرقاء بعدم القيام بأي هجوم عبر هذه الحدود ، وإذا ما خرقت إحدى الدول هذه الاتفاقات ، فإن عملها هذا يعتبر عملاً عدوانيًا لم يسبقه استفزاز ، ويتوجب على الدول المعتدي عليها أن تقوم بأعمال فردية ، وتنقل المشكلة إلى عصبة الأمم ، وأن تطلب معاونة الدول الأخرى الموقعة على هذه الاتفاقية.

وفي نفس اليوم الذي عهد فيه تسليم هذا الاقتراح لعقده كميثاق يعمل به لمدة خمسة وعشرين عامًا أعلن هتلر أنه قرر احتلال منطقة الراين ، وزحفت القوات الألمانية فورًا لتأخذ مواقعها على طول المنطقة وعرضها ،

وهبت فرنسا تطلب العون من حلفائها ، وتشكو أمرها إلى عصبة الأمم ، وكان من حق فرنسا أن تطالب بريطانيا بتنفيذ اتفاقها القاضي بحماية حدودها ضد أي اعتداء من ألمانيا، نتيجة للضغط الذي قاموا به في السابق لإجلائها عن منطقة الراين ، وكان المسيو سارو ، رئيس الوزراء، يرى إعلان التعبئة العامة فورا ، إلا أنه لم ينفذ هذا الرأي قبل الحصول على موافقة بريطانيا عليه أولاً ، إلا أن حكومة جلالته . أقنعت فرنسا بوجوب الانتظار ، حتى تقوم الدولتان بعمل مشترك ، بعد أن يتمكنا من درس الوضع دراسة شاملة وافية ، أما الرد غير الرسمي ، الذي أجابت به لندن ، فقد بعث في نفسي القشعريرة ، إذ سارع المستر لويدجورج إلى القول، أن جريمة هتلر الكبرى كانت في الاستفزاز لا في خرقه الفاضح للمعاهدة ، وأنه كان يأمل بأننا سنبقى رؤوسنا منخفضة، كان الاستفزاز في الظاهر ، هو فشل الحلفاء في نزع السلاح ، أكثر مما فعلوا حتى اليوم.

لقد أخطأت الحكومة الفرنسية في انصياعها لمشيئة بريطانيا وعرضها للمشكلة على عصبة الأمم، وهي التي أصبحت ضعيفة لا قيمة لها بعد فشلها الذريع في مهزلة العقوبات . فلو نفذت الحكومة الفرنسية تعبئتها العامة ، وجهزت مئة فرقة لكانت تمكنت من حمل هتلر على التراجع والانسحاب ، فقد كانت فرنسا في ذلك الوقت من القوة بحيث تتمكن

وحدها من إرغام الألمان على الانسحاب .

وعندما اجتمع هتلر بقادته العسكريين بعد نجاح حملته في احتلال منطقة الراين ، كان في وده أن يصارحهم بأن مخاوفهم السابقة كانت كاذبة ، لكنه برهن لهم بعمله هذا أن أحكامه وآراءه الخاصة أهم وأقوى من أحكام القادة العسكريين ، ولهذا أحنى القادة رؤوسهم باحترام . وكانت الفرحة تغمرهم ، كألمان مخلصين ، حين رأوا أن بلادهم قد بدأت تستعيد مكانتها السابقة في القارة الأوروبية في هذه السرعة الهائلة ، بالإضافة إلى أن أعداءهم السابقين قد أصبحوا ممزقين مشتتين ، وأعلن الفوهرر للعالم : لقد حققت ألمانيا جميع مطامحها الإقليمية ....

وأصيبت فرنسا بالتفكك وسيطر على البلاد الخوف من الحرب ، والرغبة في اجتنابها ، أما الإنكليز السذج فقد أبلغتهم صحافتهم : «أن الألمان ، على كل حال ، لم يفعلوا شيئًا سوى أنهم عادوا إلى بلادهم ، إذ كيف يمكن أن نشعر نحن الإنكليز ، لو تحتم علينا أن نبقى بعيدين عن يوركشاير مثلاً لمدة عشر سنوات أو خمس عشرة سنة ؟ » ... إلا أنهم لم يفكروا أن الحدود الأمامية قد تقدمت إلى الأمام مئة ميل ، وأصبح غزو فرنسا أقرب وأسهل .

❖ ❖ ❖

هتلر ومشروع الخمس سنوات:

يقول تشرشل :

مرت سنتان على الاستيلاء على منطقة الراين ، لم تضيِّع ألمانيا خلالها أية دقيقة من وقتها، إذ بدأت التحصينات تظهر على طول الخط في تلك المنطقة. وأخذت المصانع الألمانية تعمل ليلاً ونهارًا لتجعل من صناعة ألمانيا كلها مصانع سلاح ، وتحول الشعب بأسره إلى آلة للحرب .

ولفتتح هتلر عام ١٩٣٦ ، مشروع السنوات الخمس لإعادة تنظيم الاقتصاد الألماني وإعداده لمرحلة الاكتفاء الذاتي أثناء الحرب . كما حقق في الخارج «التحالف القوي» الذي كتب عنه في كتابه «كفاحي» وبين أهميته لسياسة ألمانيا الخارجية ، فتفاهم مع موسوليني وتم

تشكيل محور برلين-روما.

كانت سياسة هتلر العدوانية لا تعتمد على القوة العسكرية، بل تعتمد على الخلافات الناشبة بين فرنسا وبريطانيا، وعلى شدة خوفهما بالإضافة إلى عدم اكتراث الولايات المتحدة الأميركية. وكانت أعماله وتحدياته الأولى عبارة عن مغامرة يعرف أنه لن يتمكن من الصمود لنتائجها، إذا ما شعر بأن لدى الحلفاء قليلاً من الجدية الصادقة. وكان احتلاله لمنطقة الراين وإقامته للتحصينات فيها أولى هذه المغامرات التي نجح فيها نجاحًا كبيرًا. أما خصومه فقد كانوا على أشد ما يكونون من الضعف والتردد، إلى درجة أنهم لم يشعروا بهذه «البلفة» التي قام بها. أما حين تحركت جحافله في عام ١٩٣٨ لم تكن هذه التحركات عبارة عن «بلفة» أخرى، فقد أصبح العدوان الجديد مدعومًا بالقوة المتفوقة، وما إن بدأت الدولتان البريطانية والفرنسية تشعران بهذا التحول المفاجئ، كان الوقت قد فات.

❖ ❖ ❖

الموقف في إسبانيا:

يقول تشرشل:

أما في إسبانيا فقد تدهور النظام البرلماني فيها عام ١٩٣٦ إلى حد أدى لنمو حركة جديدة تتجه إلى إقامة نظام شيوعي أو حتى فوضوي في البلاد، ومن ثم إلى قيام ثورة عسكرية مبيتة، وكانت التعاليم الشيوعية وكتبها المدرسية التي ألفها لينين نفسه، تقول بأن الواجب يقضي بضرورة التعاون مع جميع الأحزاب والحركات اليسارية في البلاد، ودعمها للوصول إلى الحكم. عندئذ يصبح من السهل الانقلاب عليها ونسفها من الداخل، وإقامة الدولة الماركسية، وكانت هذه التجربة التي نجحت في روسيا، تحدث الآن في إسبانيا، إلا أن الجيش الإسباني كان محتفظًا بقوته، لذلك فقد سار مع الحركات الشيوعية، بينما كان يبيت ضدها مؤامرة عكسية.

وكانت أعمال العنف والقتل بين الفرقاء المتخاصمين تنتشر انتشار الوباء في البلاد، وازداد الوباء الشيوعي حدة جعل من مسألة حمل الخصوم السياسيين من بيوتهم وقتلهم

دون محاكمة أمرًا طبيعيًا . وقد حدثت حوادث كثيرة من هذا النوع في العاصمة مدريد بالذات ، وبلغت هذه الحوادث حدتها حين قتل الزعيم الإسباني المحافظ السنيور سوتيلو ، وكانت هذه الحادثة إشارة الانطلاق للقادة العسكريين لابتداء العمل، وكان الجنرال فرانكو قبل شهر من هذا الحادث قد أرسل إلى وزير الحربية الإسبانية رسالة قال فيها :إنه إذا لم تتمكن الحكومة من المحافظة على الضمانات العادية للحياة ، فإن الجيش سيضطر للتدخل فورًا ... وعندما تمرد الجنرال فرانكو وحمل راية الثورة ، انضمت إليه فرق الجيش كلها ، وأصبح السيد المطلق على الكثير من الولايات، أما البحارة الإسبان فقد هبوا الفورهم وقتلوا ضباطهم وانضموا إلى ما سمي بعد ذلك بالجانب الشيوعي،وقد استطاع الشيوعيون أن يسيطروا بعد أن انهارت الحكومة وراحوا يطبقون نظرياتهم وتعاليمهم .

وبدأت الحرب الأهلية المخيفة ، وقام الشيوعيون بجرائم عديدة وقتلوا خصومهم السياسيين، والأغنياء ، أما قوات فرانكو فقد قامت بدورها بقتل العديد من الشيوعيين وانتقمت للضحايا ، وسارت هذه القوات تحتل القرى الشيوعية وتنتقم من كل شيوعي تجده .

ووقفت الحكومة البريطانية موقف عدم التدخل ، واقترحت كذلك فرنسا مشروعًا بعدم التدخل ، وترك الفريقين يحلان مشاكلهما دون مساعدات خارجية ، وأيدت الحكومة الإيطالية والألمانية والروسية هذا المشروع ، وقد حافظت بريطانيا العظمى على هذا الاتفاق ، إلا أن ألمانيا وإيطاليا من جهة ، وروسيا من جهة أخرى ، سارعت إلى خرق هذا الاتفاق ، وراحت ترسل بالإمدادات العسكرية لفريق من الفرقاء المتخاصمين ، وراحت الطائرات الألمانية تغير على المدن الصغيرة بشكل وحشي ، ولم تلبث فرنسا هي الأخرى أن راحت تبعث بطريقة سرية بأسراب الطائرات للدفاع عن الجمهورية ....

❖ ❖ ❖

أحداث عام ١٩٣٧:

يقول تشرشل :

في الثامن والعشرين من أيار عام ١٩٣٧ ، اعتزال المستر بلدوين منصب الحكم ، بعد تتويج الملك جورج السادس . وقد نال لقب اللورديه تقديرًا لخدماته الطويلة ، بالإضافة إلى وسام ربطة الساق ، وقد خلفه في الحكم المستر نافيل تشمبرلين وزير المالية السابق ، والذي كان يقوم فعليًا بأعباء الحكم طيلة السنوات الخمس الماضية، وكان من أقدر الوزراء ، يتمتع بمزايا ومواهب جمة. وقد رحبت بتسليمه مقاليد السلطة ؛ لأنه كان من الشخصيات المرموقة النابضة بالحيوية ، بالإضافة إلى كفاءته .

أن باستطاعتي إجراء مقارنة بين الشخصيتين المستر تشمبرلين والمستر بلدوين ، اللذين عرفتهما مدة طويلة وكان مقدرًا لي أن أعمل معهما . فقد كان ستاتلي بلدوين يتمتع بشخصية حكيمة بعيدة النظر ، إلا أنه كان يفتقر إلى المقدرة على التنفيذ واتخاذ القرارات ، وكان بعيدًا عن شؤون الحرب والجيش والشؤون الخارجية ، فقد كان يعرف شيئًا عن أوروبا ، وإذا عرف شيئًا فكان يكره ما يعرفه عنها ، إلا أنه كان يعرف بدقة مجرى السياسات الحزبية البريطانية ، وكان قد ترشح خمس مرات عن حزب المحافظين باعتباره زعيمًا للحزب ، ففاز في ثلاث مرات . أما رباطة جأشه فكانت صامدة قوية ، فقد كان يتمتع بموهبة فذة في الصمود تجاه الأحداث والانتقادات العادية ، وكان ماهرًا في تحرير الأحداث إلى خدمته ، وانتهاز اللحظة المناسبة عندما تحين .

أما المستر نافيل تشمبرلين فقد كان يقظًا ، متشبثًا برأيه ، وشديد الثقة بنفسه إلى حد المبالغة . وكان على عكس زميله يعتقد في نفسه المقدرة على تفهم جميع المسائل المتعلقة بأوروبا، بل وفي العالم. وقد حافظ على سياسة تضييق الخناق على الإنفاق الحربي طيلة عهده في الوزارة سواء حين كان وزيرًا للمالية أم حين أصبح رئيسًا للوزارة ،وكان العدو اللدود لجميع إجراءات الطوارئ، وقد سن قوانين وأحكام على الشخصيات السياسية المعاصرة لعهده ، سواء في داخل بريطانيا أم في العالم الخارجي ، وكان يشعر بأنه قادر على التعامل مع جميع تلك الشخصيات . وكانت آماله وأمانيه في أن يحصل على لقب بطل السلام ، لذلك

العمل بإخلاص لتحقيق هذه الغاية، وقد عرض نفسه بذلك لأشد الأخطار كما عرض البلاد أيضًا، لكنه وقع في تيارات لم يتمكن من تقدير قوتها، فواجه أزمات لم يتمكن من حلها أو من الابتعاد عنها ولا الصمود في وجهها .

لقد كنت أوثر العمل مع المستر بلدوين في تلك السنين التي سبقت الحرب العالمية الثانية، على العمل مع تشمبرلين، إلا أنني كنت أشعر أن أيًا من الاثنين لم يكن راغبًا في التعاون معي إلا عند الضرورة القصوى .

❖ ❖ ❖

مقابلة سفير ألمانيا:

يقول تشرشل :

في ذات يوم من عام ١٩٣٧ قابلت سفير ألمانيا في بريطانيا الهر فون ريبنتروب . وكنت قد كتبت مقالاً شرحت فيه أن الهر ريبنتروب قد أسيء فهمه نتيجة لخطابه الذي ألقاه مؤخرًا. وقد التقيته في إحدى الحفلات، وطلب مني أن أقوم بزيارته في السفارة، لنتحدث سويا . وقد استقبلني في دار السفارة، حيث قضينا ساعتين في الحديث . وكان ريبنتروب طيبًا دمث الأخلاق، دبلوماسيًا إلى أبعد الحدود . وقد قال لي أن ألمانيا لا تريد إلا كسب صداقة إنكلترا، وقال: إنه كان في استطاعته أن يصبح وزيرًا لخارجية ألمانيا، إلا أنه طلب من هتلر إرساله سفيرًا إلى إنكلترا، كي يتمكن من العمل لتحقيق فكرة عقد اتفاق أو محالفة بين إنكلترا وألمانيا . وقد كان في وسع ألمانيا أن تصبح حارسًا للإمبراطورية البريطانية، وبالطبع ستطلب استعادة مستعمراتها السابقة، إلا أن ذلك لا يعتبر أمرًا أساسيًا. لكن ما تطلبه ألمانيا هو أن يسمح لها بإطلاق يدها في أوروبا الشرقية . إذ أن من حق ألمانيا أن تحصل على مداها الحيوي، لتضمن العيش لشعبها الذي يتكاثر عدده، لذلك فمن الواجب على ألمانيا أن تهاجم بولندا وممر دانزيغ . ولا يمكن للرايخ الكبير أن يحيا، وهو يضم سبعين مليونًا من البشر، بدون روسيا البيضاء وأوكرانيا . ولا يمكن للرايخ الألماني أن يكتفي بأقل من هذا . لذلك فمطلبه الوحيد هو ألا تتدخل بريطانيا في شؤونه تلك . وكانت في الغرفة، حيث

جلسنا ، خارطة ضخمة معلقة على الجدار ، وكان يشير إليها السفير ريبنتروب ليبين لي ما يقوله .

وبعد أن أنهى حديثه ، أجبته برأيي الصريح ردًا على كل أقواله . ومما قلته : «أن الحكومة البريطانية لن توافق على إطلاق يد ألمانيا في أوروبا الشرقية ، فبالرغم من علاقاتنا السيئة مع روسيا السوفييتية ، وبالرغم من عدائنا الشديد للشيوعية الذي لا يقل عن عداء هتلر لها ، فإنه لو ضمنا سلامة فرنسا، فإننا لن نتخلى عن أوضاع القارة الأوروبية ونترك المجال أمام ألمانيا لتسيطر على شرقي أوروبا ووسطها » .

والتفتت فون ريبنتروب إلى فجأة وهو يقول : «إذن ، فلابد من الحرب، ولن يكون هناك أي سبيل لتجنبها ، فالفوهرر مصمم ، ولن يقف شيء في طريقه » .

وأجبت السفير بقولي : «عندما تتحدث عن الحرب ، فستكون حربًا عامة شاملة ، وهنا يجب على أن أنبهك بألا تستهين بقوة إنكلترا ، فهي بلاد عجيبة ، يصعب على الأجانب فهمها ، ولا يمكنك أن تحكم عليها من موقف حكومتها الحاضر . فعندما تعرض للشعب قضية عادلة، فستتحقق عندئذ بنفسك أن هذه الحكومة بالذات بالاشتراك مع الشعب سيقومان بأعمال عظيمة غير متوقعة ، لذلك لا تستهن بقوة إنكلترا أبدًا ، فهي حادة الذكاء ، وإذا ما أردتموها حربًا عالمية ، فستحرض إنكلترا العالم كله ضدكم، تمامًا كما حدث في الحرب الأولى » .

وهنا ظهر الغضب على وجهه ، فهب من مقعده واقفًا وهو يقول : « ربما تكون إنكلترا ذكية كما تقول ، لكنها هذه المرة لن تتمكن من تحريض العالم ضد ألمانيا » .

وانتقلنا بالحديث إلى مواضيع أخرى أكثر سهولة . وعندما جرت محاكمة فون ريبنتروب بعد انتهاء الحرب ، ذكر حديثنا هذا ، لكن بصورة مغلوطة ، وأصر على استدعائي للشهادة . ولو طلب إلى ذلك لما زدت أو أنقصت حرفًا واحدًا عما كتبته هنا ...

❖ ❖ ❖

الفصل السادس

المستر إيدن في وزارة الخارجية . واستقالته



إن وزير الخارجية في إنكلترا يتمتع بمكانة خاصة . ومع أنه يعامل بمنتهى الاحترام واللباقة ، إلا أن أعماله ومهامه المتعلقة بالشؤون الخارجية تبقى دائمًا تحت المراقبة ، إن لم يكن من جميع أعضاء وزارته ، فمن المنتقدين منهم على الأقل ، كما أنه يتوجب عليه تقديم تقارير كاملة لزملائه ، كما أنه يتحتم على وزير الخارجية اطلاع رئيس الوزراء على جميع الأسرار مهما كانت .

وفي هذه الحقبة من الزمن كان المستر إيدن وزيرًا للخارجية في حكومة المستر بلدوين الذي كان معروفًا بميله الشديد إلى السلام والحياة الهادئة ، كما أنه لم يكن يسهم إسهامًا فعالاً في السياسة الخارجية ، أما بالنسبة للمستر تشمبرلين فكان الوضع مختلفًا، فهو يريد الإشراف الفعلي على وزارة الخارجية ، وكانت له آراء ووجهات نظر قوية في الشؤوون الخارجية ، لذلك فقد أكد رغبته منذ البداية في بحث هذه الشؤون والنظريات مع جميع السفراء الأجانب ، ولهذا السبب أدى توليه منصب رئيس الوزراء إلى تغير ملحوظ في وضع وزير الخارجية المستر إيدن ، بالإضافة إلى بعض الأمور الأخرى التي كانت تباعد بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، لقد كان رئيس الوزراء راغبًا في إجراء شبه تفاهم مع الدكتاتوريين الأوروبيين ، وكان اعتقاده أن هذا يقوم في تجنب كل ما يسيء إليهما بالإضافة إلى روح التفاهم الخاصة ، أما إيدن فقد نال شهرته من جراء تحريضه لجميع دول أوروبا ضد موسوليني لدرجة أنه كان يريد المضي في فرض العقوبات ولو أدى ذلك إلى نشوب الحرب وكان إيدن يؤمن أشد الإيمان بفرنسا ، كما أنه كان يرغب في إقامة علاقات متينة مع روسيا السوفييتية ؛ لأنه كان يشعر بخطر هتلر ، وكان يخاف ضعف تسلحنا وانعكاسه على سياستنا الخارجية، لذلك كنت واثقًا أن الخلاف سيدب بين هذين الرجلين ، خاصة بعد تأزم الأوضاع العالمية واشتدادها .

وكان رئيس الوزراء يجد في اللورد هاليفاكس ، زميلاً ينسجم مع سياسته الخارجية كل الانسجام، وكنت أفضل ، والحالة هذه ، لو اعتمده وزيرًا للخارجية منذ تكليفه بتأليف الوزارة، وأن يعهد بوزارة الحربية إلى المستر أنتوني إيدن ، وهكذا بدأت الخلافات تظهر إلى أن توسعت شقة الخلافات في الفترة الواقعة ما بين صيف عام ١٩٣٧ ونهاية العام ، إلى أن اضطر بعد ذلك المستر إيدن إلى تقديم استقالته في شهر شباط من عام ١٩٣٨ .

لقد كانت سياستنا الخارجية تجاه ألمانيا ، من أهم أسباب الخلاف بين رئيس الوزراء ووزير خارجيته المستر إيدن ، فقد قرر المستر تشمبرلين أن يتابع سياسة التقرب من الديكتاتوريين ، واستدعى في شهر تموز من عام ١٩٣٧ سفير إيطاليا الكونت غراندي للاجتماع به في دوانغ ستريت . وكان المستر إيدن يعلم مسبقًا موضوع الحديث ، لذلك لم يحضر الاجتماع هذا . وقد أفصح المستر تشمبرلين عن رغبته في تحسين العلاقات مع إيطاليا، واقترح عليه السفير أن يبعث برسالة إلى موسوليني يطلب إليه ذلك ، ويناشده العمل في هذا الاتجاه . وسارع المستر تشمبرلين إلى كتابة هذه الرسالة ، أثناء المقابلة ، وبعث بها دون مراجعة وزير الخارجية الذي كان في مكتبه على بعد بضع خطوات من مكان الاجتماع . ولم تسفر هذه الرسالة عن أي نتيجة إيجابية بالطبع، بل ظلت علاقاتنا مع إيطاليا تدهور بسبب تدخل هذه في شؤون إسبانيا الداخلية .

وكان المستر تشمبرلين ، يشعر بأن رسالته تتلخص في خلق جو من العلاقات الودية بين الدكتاتوريين ، وخيل إليه أنه قادر على ذلك . وكان راغبًا في أن يعترف بحق إيطاليا في احتلال الحبشة كخطوة أولى نحو التقارب وكمقدمة لإيجاد حل شامل لجميع الخلافات . كما أنه كان يرغب في التنازل لهتلر عن بعض المستعمرات البريطانية . وفي نفس الوقت لم يكن يرغب في العمل على تحسين أوضاع التسلح في بريطانيا ، أو في إيجاد تعاون وثيق مع فرنسا سواء في الشؤون العسكرية أم في الشؤون السياسية ، أما المستر إيدن فكانت نظرته تقضي بأن أي تعاون مع إيطاليا، يجب أن يشمل جميع الشؤون المتعلقة بالبحر الأبيض المتوسط ، بما في ذلك مشكلة إسبانيا . وكان يريد أن يجعل من مسألة الاعتراف بحق إيطاليا في الحبشة وسيلة للمساومة معها أثناء المفاوضات ، لذلك وجد أن الاعتراف بهذا الحق أولاً ثم الرغبة في إجراء التفاوض لا يدل على الحكمة وبعد النظر .

وفي الخريف اشتدت هذه الخلافات ، واعتبر المستر تشمبرلين أن وزير الخارجية يقف عقبة في طريق التفاهم مع الدكتاتوريين وفي الشروع في إجراء المحادثات مع ألمانيا وإيطاليا ، كما شعر المستر إيدن أن رئيسه متسرع جدًا في محاولته التقرب من الدولتين المذكورتين لاسيما في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا على أشد ما تكون من الضعف من الناحية العسكرية .

❖ ❖ ❖

على الرغم من خلافاتي مع الحكومة، فقد كنت أشعر بالعطف نحو وزير الخارجية المستر إيدن، فقد ظهر لي أنه أكثر الوزراء شجاعة وتصميمًا، على الرغم من أنه أثناء عمله كسكرتير خاص وكوكيل لوزارة الخارجية، من قبل، كان مجبرًا على أن يكيف نفسه مع أمور عديدة كنت أهاجمها شخصيًا، إلا أنني كنت أشعر أنه في قرارة نفسه يعارضها ويستنكرها، كما أنه بدا لي عنصرًا طيبًا وممتازًا، وكان يدعوني مرارًا إلى وزارة الخارجية، وكثيرًا ما كنا نتبادل الرسائل بانطلاق وحرية، ولم يكن هذا الأمر مستغربًا، فقد كان المستر إيدن شأنه شأن بقية الوزراء، يرغب دائمًا في الاتصال بالشخصيات البارزة في البلاد ليستمزج رأيها في شؤون الساعة وفي القضايا الدولية.

وكنت قد انتهيت إلى وجهة نظر مشابهة مع وجهة نظر إيدن فيما يتعلق بنشاط دول المحور حول تدخلهم في الحرب الأهلية الإسبانية، وكنت دائمًا أؤيده عندما يقف موقفًا صامدًا في مجلس العموم، مهما كانت أهمية المواضيع المطروحة، فقد كنت عارفًا بالصعوبات التي يواجهها من بعض أعضاء الوزارة وخاصة رئيس الوزارة بالذات، وكنت على يقين من أن تشجيعي له سيبعث في نفسه روح الأمل والقوة، وما أن نشبت أزمة جديدة في البحر المتوسط، حتى عالجها بعزم ومهارة، واستطاع الوصول إلى حل أتبعته الوزارة على الفور، فقد حدث أن أغرقت غواصات إيطالية عدة سفن تجارية، بينما ادعت إيطاليا أن الغواصات ليست إيطالية بل إسبانية، ودعي مؤتمر الدول البحرية إلى الانعقاد في (نيون) في العاشر من شهر أيلول، وذهب وزير الخارجية يرافقه فانسيتارت واللورد شاتفيلد، لورد الأميرالية الأول، وقرر المؤتمر إيفاد غواصات بريطانية فرنسية تقوم بعمل دوريات في البحر المتوسط، وتحمل أوامر مشددة بإغراق كل غواصة تقابله، وفي الحال رضخت إيطاليا إلى هذا القرار واختفت أعمال القرصنة.

ويعتبر هذا الحادث دليلاً ظاهرًا على أهمية العمل المشترك بين بريطانيا وفرنسا، إذا نفذ بصدق وقوة تجاه الديكتاتوريين الأوروبيين، أن مثل هذه السياسة كان في مقدورها لا أن تمنع نشوب الحرب بل أن تؤجل وقوعها على الأقل، فالحقيقة الماثلة أمامنا هي أن سياسة التهدئة كانت تزيد من حدة عدوان الديكتاتوريين، وتزيد من شعبيتها، وأن أي هجوم إيجابي معاكس من قبل الديمقراطيات الغربية سيؤدي فورًا إلى التخفيف من حدة هذا

العدوان ، وقد بقيت هذه النظرية سائدة طيلة عام ١٩٣٧ ، أما بعد ذلك فقد تغيرت الأوضاع وتبدلت كل التبديل .

وشعر إيدن بقلق بتزايد يومًا بعد يوم من بطء تسلحنا ، وما كان منه إلا أن قابل رئيس الوزراء وشرح له مخاوفه وشكوكه ، وكان رد رئيس الوزراء عليه بأن نصحه أن يعود إلى منزله ويتناول قرصين من الإسبيرين .

أما الخلاف الحقيقي فنتج عن مسألة مختلفة تمام الاختلاف عن المسائل السابقة ، ففي مساء الحادي عشر من شهر كانون الآخر عام ١٩٣٨ ، قام وكيل وزارة الخارجية الأميركية، المستر سمنر ويلس بزيارة السفير البريطاني في واشنطن ، وكان يحمل معه رسالة سرية من الرئيس روزفلت إلى المستر تشمبرلين ، فقد شعر الرئيس الأميركي بخطورة الوضع الدولي المتدهور ، وأحس بالقلق المتزايد فاقترح دعوة بعض ممثلي دول معينة إلى اجتماع لبحث المشاكل الحالية ، لكنه أراد قبل تنفيذ هذا الاقتراح ، أن يستشير الحكومة البريطانية في وجهة نظرها حول هذا الاقتراح ، وطلب أن يكون الرد جاهزًا قبل السابع عشر من كانون الآخر ، وأشار في رسالته إلى أنه إذا وجد اقتراحه هذا قد حظي بموافقة حكومة جلالته القلبية وتأييدها المطلق ، فعندئذ ، وفي هذه الحالة فقط ، سيباشر اتصالاته مع حكومات فرنسا وألمانيا وإيطاليا وللحقيقة كانت خطوة هائلة وفوق ما يتصوره الإنسان .

وعندما قام السفير البريطاني بنقل هذه الرسالة إلى لندن ، أوصى حكومته بضرورة الموافقة عليها بأسرع وقت ممكن ، وتلقت وزارة الخارجية برقية واشنطن ووزعت نسخًا عنها في الثاني عشر من كانون الآخر إلى منزل رئيس الوزراء في الريف ، وفي صباح اليوم الثاني حضر رئيس الوزراء إلى مكتبه ، وأرسلت الوزارة بردها على رسالة الرئيس روزفلت ، حسب تعليمات رئيس الوزراء ، أما المستر إيدن فكان في إجازة قصيرة يمضيها في جنوب فرنسا ، وكان رد المستر تشمبرلين ، أنه يقدر هذه الثقة التي وضعها الرئيس روزفلت حين استشاره في موضوع اقتراحه المتعلق بإزالة حدة التوتر في أوروبا ، إلا أنه يريد أولاً أن يشرح له الموقف بالنسبة إلى الجهود التي يقوم بها للوصول إلى اتفاق مع ألمانيا وإيطاليا ، لاسيما إيطاليا بصورة خاصة ، ومضى يقول في رده: «إن حكومة جلالته مستعدة ، بتفويض من عصبة الأمم أن أمكن ، للاعتراف باحتلال إيطاليا للحبشة ، إذا ما وجدت أن الحكومة

الإيطالية ، على استعداد هي الأخرى لتبرهن عن رغبتها في الإسهام في إعادة الثقة والعلاقات الودية » ، وأنهى المستر تشمبرلين رسالته بقوله أنه يعرض هذه الحقائق ليرى الرئيس روزفلت ما إذا كانت اقتراحاته تتعارض والمجهود الذي تبذله بريطانيا ، وما إذا كان الرئيس يرى أنه من الأفضل تأجيل اقتراح مشروعه الأميركي هذا .

وكانت خيبة الأمل كبيرة لدى الرئيس روزفلت لهذا الرد ، وقد قال للسفير البريطاني: بأنه سيجيب على رسالة تشمبرلين برسالة يبعثها له في السابع عشر من الشهر الحالي ، أما إيدن ، وزير الخارجية ، فقد قطع إجازته وعاد إلى لندن على وجه السرعة ، بعد أن علم من موظفيه المخلصين في الوزارة ، ما جرى أثناء غيابه ، وقد انزعج إيدن من هذا الحادث كثيرًا ، فقد عمل طويلاً لتحسين العلاقات بين بريطانيا وأميركا ، وحاول أن يخفف من تأثير الرد فأبرق إلى المستر رونالد ليندسي ، حول الموضوع .

ووصلت رسالة الرئيس روزفلت إلى لندن في الثامن عشر من الشهر الحالي ، وفيها قال الرئيس أنه يوافق على تأجيل اقتراحاته لأن الحكومة البريطانية تفكر في إجراء مفاوضات مباشرة، وأضاف معربًا عن قلقه الشديد من اقتراح تشمبرلين حول اعتراف بريطانيا باحتلال إيطاليا للحبشة ، وقال: إن مثل هذا الاعتراف سيترك أثرًا سيئًا على سياسة اليابان في الشرق الأقصى ، وعلى الرأي العام الأميركي أيضًا، وقد أضاف المستر كوردل هل ، الذي قام بتسليم الرسالة إلى السفير البريطاني ، بقوله : «إن هذا الاعتراف سيبعث على الازدراء ، وسيرسم صورة واضحة للمساومة القذرة التي ستنفذ في أوروبا على حساب المصالح الأميركية في الشرق الأقصى والتي تهم أميركا كثيرًا ... » .

وقامت اللجنة الوزارية للشؤون الخارجية بدرس رسالة الرئيس روزفلت ، وبعد سلسلة من الاجتماعات أرسلت إلى واشنطن رسالتين مضمونهما إن رئيس الوزراء يرحب كثيرًا برسالة الرئيس روزفلت إلا أنه لا يتحمل أي مسؤولية في حال فشلت العروض الأميركية ، كما أنه يلفت نظر الرئيس روزفلت إلى أنه ربما قد أساء فهم موقف حكومة جلالته بالنسبة إلى الاعتراف ، وقد شرح في الرسالة الثانية حقيقة موقفنا ، فقد كنا عازمين على تقديم اعتراف كهذا ليكون جزءًا من تسوية عامة مع إيطاليا .



روزفلت

وعندما قام السفير البريطاني بتسليم المستر سمنر ويلس الرسالتين قال له : «إن الرئيس روزفلت يعتبر مسألة الاعتراف هذا كدواء مر ، إلا أنه يجب علينا أن نشربه معًا ، كما أنه يريد أن نشرب هذا الدواء معًا وفي آن واحد ... » .

وهكذا رفض المستر تشمبرلين اقتراح الرئيس روزفلت ، علمًا أن نفوذ الولايات المتحدة كان ضخمًا مع ما يمكن لها أن نستعمله من قوة جبارة !

***

وفي ساعة متأخرة من ليل العشرين من شباط ن جاءني الخبر إلى غرفتي القديمة في شارنويل بأن المستر إيدن قد قدم استقالته من الوزارة ، وهنا يتحتم على أن أعترف بأني حزنت كثيرًا، وشعرت باليأس يسيطر علي ، لقد مررت بظروف عصيبة طيلة حياتي ، وفي سنين الحرب ، وفي أحلك ساعاتها المرعبة لم أشعر بالقلق الذي يحرمني طعم النوم ، ففي

أزمة عام ١٩٤٠ حيث كانت المسؤوليات الضخمة ملقاة على عاتقي، وفي السنوات الخمس التي تلتها، كنت فريسة للقلق والفزع، إلا أني كنت أمضي إلى فراشي وأغرق في سبات عميق، وأستيقظ في الصباح نشيطًا، لا أشعر بتعب الليل الفائت بل أمضي إلى عملي لأواجه المشاكل الضخمة وأحاول أن أعالجها. أما اليوم وفي ليل العشرين من شهر شباط عام ١٩٣٨، وفي هذه المناسبة فقط، شعرت بالأرق، ولم أنم طوال الليل، وبقيت حتى الصباح في فراشي أفكر بكثير من الأسى والخوف بذلك الشاب القوي الذي صمد بوجه تيارات مخيفة من الانشقاق والاستسلام، ومن الحسابات الخاطئة، والدوافع الضعيفة ...

❖ ❖ ❖

الفصل السابع

اغتصاب النمسا



عندما تنهزم دولة من الدول أثناء الحرب ، فإنها تبقى محتفظة بكيانها وجهازها وسرية وثائقها، وقد استطعنا أن نحصل على أسرار العدو بكامله، بعد أن خضنا غمار الحرب إلى نهايتها، وكان بإمكاننا أن نتأكد من صحة المعلومات التي توفرت لنا في السابق ، وما قمنا به أثناء الحرب على ضوء تلك المستندات والوثائق التي حصلنا عليها في النهاية ، ففي شهر تموز عام ١٩٣٦ ، كان هتلر قد أصدر أوامره بإجراء الاستعدادات ووضع الخطط لاحتلال النمسا عندما يحين الوقت المناسب ، وقد دعيت هذه العملية عملية «أوتو» ، وقد كشف عن مخططه هذا في الخامس من شهر تشرين الآخر عام ١٩٣٧ عندما قال لقادة القوات المسلحة بأنه يترتب على ألمانيا أن تضمن لنفسها «أمنها الحيوي» وهذا المدى يمكن ضمانه في شرقي أوروبا ، أي بولندا وروسيا البيضاء وأوكرانيا، أما احتلال هذه البلدان فيعني حربًا رئيسية وإبادة للشعوب التي تعيش في تلك المناطق ، لذلك وجب على ألمانيا أن تصفي حسابها أيضًا مع «العدوين المكروهين» إنكلترا وفرنسا اللتين تعتبران أن قيام العملاق الألماني وسط أوروبا سيكون غير محتمل ، ولكي تستغل ألمانيا ما وصلت إليه من تفوق في الميدان العسكري ، وما بعثه الحزب النازي من حماس وطني صادق ، فإن من الواجب عليها أن تقوم بالهجوم في أول فرصة ممكنة ، لكي تقضي على هاتين العدوتين ، قبل أن تتمكنا من الاستعداد .

لقد كان هناك سببان آخران دفعًا بهتلر إلى اغتصاب النمسا خلاف ما ذكره من تصميم في كتابه «كفاحي» من رغبته في ضم جميع الشعوب التوتونية إلى الرايخ ، فاحتلال النمسا يعني فتح أبواب تشيكوسلوفاكيا من جهة ، ومداخل جنوب شرق أوروبا من جهة أخرى .

أما داخل النمسا فكانت الحركة النازية تنمو مع كل انتصار يحققه هتلر سواء في داخل ألمانيا أم في خارجها ، وقد صدرت تعليمات خاصة إلى فون بابن لكي يبقى على أحسن العلاقات مع الحكومة النمساوية بالإضافة إلى محاولته الحصول على اعتراف رسمي من الحكومة بالحزب النازي النمسوي كمؤسسة مشروعة ، وأتقن فون بابن دوره وعمل بذكاء كبير داخل النمسا، وقد رضخ الكثير من الزعماء النمساويين لضغطه ومكائده ، وكانت الحركة السياحية التي تعتمد عليها النمسا، قد تأثرت إلى حد كبير نتيجة للاضطرابات

الداخلية ولأعمال الإرهاب ولحوادث القنابل التي كانت تهز أسس الجمهورية المسلوبة.

وساد الاعتقاد أن الوقت قد حان لاستلام زمام الأمور عن طريق إدخال زعماء الحزب النازي النمسوي إلى الحكم عن طريق الوزراء، بعد أن تم الاعتراف به مؤخرًا..

وفي الثاني عشر من شهر شباط عام ١٩٣٨ استدعى هتلر المستشار النمساوي الهر فون شوشنيغ إلى مقره في برختسغادن.. وحضر المستشار برفقة وزير خارجيته غيدو شميدت، وبين أيدينا الآن نسخة عما كتبه شوشنيغ عن هذه المقابلة التي جرت بينه وبين هتلر، وننقل النص الحرفي لهذا الحوار.

وقد بدأ هتلر بالسخرية من التحصينات العسكرية التي أقامتها الحكومة النمسوية على الحدود وقال: إنها لا تتطلب أي مجهود من المعتدي سوى عملية عسكرية بسيطة لإزالتها من الوجود، ثم استطرد قائلاً:

هتلر: لن أحتاج إلا لإصدار أمر، وستختفي هذه الخيالات المضحكة التي وضعتوها على الحدود، في ليلة واحدة، ولا أظن أنكم تصدقون أن في إمكانكم الوقوف أمامي أكثر من نصف ساعة، ومن يعلم، فقد أصل إلى فينا فجأة كعاصفة من عواصف الربيع، وعندئذ ستختبرون تجربة جديدة، لكني أريد أن أوفر عليكم هذه التجربة، التي ستكلفكم الكثيرين من الضحايا، فبعد الجيش، سيصل جيش الصاعقة، ثم الحرس النازي، وعندئذ لن يتمكن أحد من أن يمنعهم من الثأر، حتى أنا نفسي، فهل تريد أن تجعل من النمسا إسبانيا أخرى، إن كل ما أريده أنا هو تجنيبكم كل هذا.

شوشنيغ: سأوقف عملية التحصينات الدفاعية على الحدود في الحال، كما أني واثق من أنك تستطيع أن تزحف على النمسا، ولكن، يا سيدي المستشار، إن زحفكم هذا سيؤدي إلى سفك الكثير من الدماء وربما سيؤدي إلى حرب عالمية، فأنت تعلم أننا لسنا وحيدين في العالم!

هتلر: إنه لمن السهل أن تقول كل هذا، وأنت جالس على كرسيك المريح، إلا أن وراء هذه الأقوال الكثير من الويلات والدماء، فهل أنت على استعداد لتحمل مسؤولية

كلامك؟ لا تعتقد أن في هذا العالم من يستطيع أن يقف بيني وبين ما قررت أن أنفذه، أتقصد إيطاليا؟ لقد تفاهمت مع موسوليني ونحن الآن على خير ما نكون من؟ إنكلترا؟ لن ترفع أصبعًا واحدًا من أجلكم! فرنسا؟ لقد غامرت، منذ ستتين، عندما زحفت لاحتلال منطقة الراين بمجموعة من الكتائب، ولو قابلت فرنسا هذا الزحف بالهجوم لاضطررت إلى الانسحاب... أما الآن فقد أضاعت فرنسا الفرصة على نفسها.

حصلت تلك المقابلة الأولى في تمام الساعة الحادية عشرة صباحًا، وبعد الغذاء استدعي النمسويون إلى غرفة صغيرة كان بانتظارهم فيها ريبنتروب وبابن، حيث قاما بتسليمهم الإنذار الخطي الذي لم يكن يقبل أي مناقشة، وقد تضمن الإنذار تعيين، سايكس ـ انكورات وهو نمسوي نازي، وزيرًا للأمن في الحكومة النمساوية، كذلك تضمن الإنذار عفوًا شاملاً عن جميع النازيين المعتقلين، ثم ضم الحزب النازي النمسوي رسميًا إلى الجبهة الوطنية التي تشرف عليها الدولة.

وبعد ذلك استقبل هتلر المستشار شوشنيغ وقال له: «سأكرر عليك، أن هذه هي فرصتكم الأخيرة، وإني منتظر تنفيذ الشروط خلال ثلاثة أيام»، وفي مذكرات «يودل» عن نفس هذه الحادثة العبارة التالية: «وقد تعرض فون شوشنيغ وغيدو شميدت إلى أعنف ضغط سياسي وعسكري، إلى أن وقع البروتوكول في تمام الساعة الحادية عشر مساء» وعندما عاد فون بابن مع شوشنيغ قال له: «هذه هي طريقة الفوهرر، وقد اختبرتها بنفسك، ولكن في المرة المقبلة سيكون الفوهرر شخصًا آخر، إنه للحقيقة ساحر كبير».

ومضت المهزلة بأن أرسل موسوليني برسالة شفوية إلى شوشنيغ يقول له: إن ما جرى في برختسغادن كان مشرفًا وعادلاً، ثم أكد له أن موقف إيطاليا من النمسا لن يتغير أبدًا، كذلك أعرب له عن إخلاصه وصداقته الشخصية له، وفي الثالث من شهر آذار بعث شوشنيغ برسالة سرية إلى موسوليني يعلمه فيها أنه قد عزم على إجراء استفتاء شعبي عن الوضع السياسي، وبعد أربع وعشرين ساعة جاءه الرد من الملحق العسكري لبلاده، يخبره باجتماعه بموسوليني ويحذره من مغبة هذا الاستفتاء الذي وصفه بأنه «خطيئة» وقال: إن كانت النتيجة مرضية فسيقول الناس أن الاستفتاء لم يكن نزيهًا، أما إذا لم يكن مرضيًا

فسيصبح وضع الحكومة حرجًا للغاية ، وإذا كانت النتيجة كلمة فلن تكون ذات نفع على الإطلاق ، إلا أن شوشنيغ لم يأخذ بنصيحة موسوليني وتحذيره ، فقد أعلن في اليوم التاسع من شهر آذار عن رغبته في إجراء استفتاء عام في جميع البلاد صباح الأحد القادم في الثالث عشر من الشهر الجاري .

وفي بداية الأمر ، بدا أن سايكس - إنكورات قد قبل بالفكرة ، إلا أنه في صباح يوم الحادي عشر تلقي شوشنيغ مكالمة هاتفية من مركز الشرطة في فيينا تقول: إن الحدود الألمانية في سالزبورغ قد أقفلت ، وسحب موظفو الجمارك الألمان وقطعت مواصلات السكك الحديدية ، ووصلت رسالة ثانية من القنصل في ميونيخ تقول: إن القوات الألمانية متأهبة للتوجه إلى النمسا .

وبعد قليل وصل سايكس - إنكوارت ليخبره أن غورنغ طلب منه أن يلغي الاستفتاء خلال ساعة ، وإذا لم يصله الرد بالإلغاء خلال المدة المذكورة فسيفترض أن سايكس - أنكوارت قد منع من استخدام الهاتف للاتصال به ، وأنه سيتصرف على ضوء هذا الافتراض ، وعندما علم شوشنيغ أن الجيش لا يمكن الاعتماد عليه ، أبلغ سايكس - أنكوارت أن الاستفتاء قد ألغي ، وبعد ربع ساعة عاد هذا يحمل إليه خبرًا سجله على ورقة كتب فيها :

« لا يمكن إنقاذ الوضع إلا باستقالة شوشنيغ في الحال ، وإذا لم يعين سايكس - أنكوارت خلال ساعتين مستشارًا ، فإن غزو ألمانيا للنمسا سيتلوه فورًا » .

وفي خلال هذا الوقت انتظر شوشنيغ وصول الرئيس ميكلاس ليقدم له استقالته ، وعندما دخل إلى مكتب الرئيس جاءته رسالة بالشفرة من الحكومة الإيطالية تقول: إنه ليس في إمكانها تقديم النصح مرة أخرى أو أن تقوم بأي عمل من أجلهم ، ورفض الرئيس تعيين المستشار النازي، وقرر أن يجبر الألمان على القيام بأعمال عنيفة معيبة ، لكنهم كانوا على أتم الاستعداد لارتكاب هذه الأعمال ، فأصدر هتلر أوامره بالزحف على النمسا ومباشرة عملية «أوتو».

وفي محاكمات نورمبرغ قدمت هذه المحادثة الهاتفية التي دارت بين هتلر وبين الأمير فيليب هيسي، مبعوثه الخاص إلى الدوتشي، التي قدمت كوثيقة هامة، وجدنا أن ننقلها بنصها الحرفي:

هيسي: لقد وصلت لتوي من قصر البندقية، وقد وافق الدوتشي على الموضوع بروح ودية، وهو يرسل إليك بالتحيات والاحترام، وقد وصلته المعلومات من النمسا ومن شوشنيغ بالذات، وأعلن أن تدخل إيطاليا هو مستحيل، وهو لن يعدو أن يكون إلا كذبة كبيرة أو «بلفة» وليس في إمكانه أن يقوم بها، وهكذا أفهم شوشنيغ أن سوء الحظ قضى بذلك، ولا يمكن تبديل الأمور الآن، ولم يلبث أن أعلن موسوليني أن أمر النمسا لا يهمه على الإطلاق.

هتلر: حسنًا، أخبر موسوليني، أني لن أنسى عمله هذا.

هيسي: نعم.

هتلر: أبدًا، أبدًا، مهما حصل، وأنا لا زلت مستعدًا لإجراء معاهدة مختلفة معه.

هيسي: نعم، وقد أخبرته بذلك أيضًا.

هتلر: وعندما تنتهي عملية النمسا، سأكون مستعدًا للمضي معه إلى آخر الطريق، ولن يهمني شيء.

هيسي: نعم أيها الفوهرر.

هتلر: اسمع، سأعقد أي معاهدة، ولن أخشى بعد الآن عما سيترتب من الناحية العسكرية إذا ما اشتبكنا في صراع ما، ويمكنك إبلاغه شكري العميق، ولن أنسى مطلقًا عمله هذا.

هيسي: نعم، أيها الفوهرر.

هتلر: لن أنساه مطلقًا، مهما حدث، وإذا ما احتاج إلى أي مساعدة، أو حين يجد نفسه في أي خطر فليثق بأني سألازمه مهما حدث، ولو كان العالم كله ضده.

هيسي : نعم ، أيها الفوهرر .

ولا شك عندما قام بإنقاذه من الحكومة المؤقتة الإيطالية عام ١٩٤٣ قد وفي هتلر بوعده.

❖ ❖ ❖

لقد كانت أمنية العريف النمساوي ، أن يدخل إلى ڤيينا دخول المتصرين ، وفي يوم السبت في الثاني عشر من شهر آذار، أعد الحزب النازي استقبالاً حافلاً للبطل المظفر ، إلا أنه لم يصل أي شخص إلى العاصمة ، بل وصل ثلاثة من الجنود البافاريين الذين ، قدموا لإعداد الترتيبات اللازمة للجيش المحتل ، فرفعوا على الأكتاف ، وبدأت الأخبار تتسرب ببطء ، فقد توقف الجيش عند الحدود مترددًا ، ثم بعد ذلك عند لينز ، وبالرغم من الأحوال الجوية المؤاتية وسهولة المواصلات، فقد تحطمت معظم الدبابات ، وظهرت نقائص المدفعية الثقيلة وعيوبها ، التي سدت الطريق من لينز إلى ڤيينا المتوقفة عن الحركة ، وقد ألقي باللوم على الجنرال فون ريخناو ، وهو من أقرب المقربين إلى الفوهرر ، الذي كشف التقصير الفاضح في تجهيزات الجيش الألماني .

وقد استاء الفوهرر كثيرًا حين مر في شوارع لينز ورأي هذه الفوضى في حركة السيارات ، وأمر بفصل الدبابات الخفيفة لتستمر في مسيرها ، وهكذا دخلت العاصمة في صباح يوم الأحد، ثم نقلت السيارات المصفحة والمدفعية الثقيلة وغيرها في شاحنات ضخمة لتصل إلى فيينا في الموعد المحدد وتشترك في الاستعراض ، ولا شك أن صورة هتلر، لا تزال ماثلة أمام أعيننا، حين عبر بسيارته شوارع فيينا بين ألوف الجماهير المحتشدة ، منهم المتحمس له ومنهم الخائف منه ، إلا أن الفوهرر لم يكن راضيًا عن فشل آلياته الثقيلة ، وراح يوزع التهم على جنرالاته الذين ردوا عليه بأنهم حذوره من مغبة هذا الهجوم لأن الجيش لم يكن مهيئًا بعد للاشتراك في صراع كبير، إلا أن الجميع سيطروا على أعصابهم ، فاحتفظوا بالمظاهر ، وسارت الاحتفالات الرسمية والاستعراضات في مواعيدها ، وبانتهاء الاستعراض وقف هتلر وأعلن حل الجمهورية النمسوية، وضمها إلى الرايخ الألماني .

❖ ❖ ❖

في هذه اللحظة كان الهرفون ريبنتروب يستعد لمغادرة لندن لاستلام مهام منصبه الجديد كوزير للخارجية ، وقد دعي المستر تشمبرلين ، في هذه المناسبة إلى حفلة غذاء تقام على شرف السفير بمناسبة سفره ، وكنت من جملة المدعوين ، وكانت زوجتي تجلس قرب السير إلكسندر كادوغان على مقربة من طرف الطاولة ، وبينما كنا نتناول الطعام جاء رسول من وزارة الخارجية يحمل رسالة إلى السير إلكسندر ، الذي ما أن قرأها حتى هب واقفًا من مكانه ، ثم تقدم من رئيس الوزراء وسلمه الرسالة ، وقد لاحظت أن الرئيس قد غرق في قراءة الرسالة ، التي بدت هامة للغاية ، بينما عاد السير إلكسندر إلى مكانه بكل هدوء ، وكانت محتويات الرسالة ، كما علمت بعد ذلك ، أن هتلر قد غزا النمسا في هذه اللحظة ، وأن قواته تتقدم نحو العاصمة ، وبعد قليل ، قامت السيدة تشمبرلين ودعت الحضور إلى شرب القهوة في غرفة الجلوس ، وبدا في هذه الدقيقة أن المستر تشمبرلين وزوجته أرادا إنهاء المأدبة بأسرع وقت ، فسيطر شعور من الخوف والقلق على الحضور ، وقاموا ليودعوا ضيف الشرف .

أما فون ريبنتروب فكان محتفظًا بهدوئه ووقاره ، كأنه غير عالم بما يحدث في تلك اللحظات، وتقدمت من السيدة ريبنتروب ، وقلت لها «أرجو أن تتمكن ألمانيا وإنكلترا من الحفاظ على صداقتهما .. » وقد أجابتني بلهجتها الرقيقة ... «أرجو أن تحرصوا على ألا تفقدوا هذه الصداقة » ، وتأكد لي أن السفير وزوجته كانا على علم بما جرى ، وأنهما يحاولان إبعاد الرئيس تشمبرلين عن عمله وعن جهاز الهاتف ، إلا أنه اضطر إلى أن يقول للسفير: «أنا آسف جدًا ، لاضطراري للذهاب لأمر هام جدًا ... » ثم غادر الغرفة على الفور ، وبقي فون ريبنتروب وزوجته ، حتى اضطر الجميع بعد ذلك إلى مغادرة المنزل ، وكانت هذه آخر مرة شاهدت الهر ريبنتروب قبل أن يشنق .

وتحرك الروس هذه المرة ، ليدعوا إلى مؤتمر عام لبحث الوضع العام . واقترحوا إعادة البحث في مشروع تنفيذ الميثاق الفرنسي ـ السوفييتي ، ضمن حدود عصبة الأمم ، في حال تكررت تهديدات ألمانيا للسلام .. إلا أن باريس ولندن استقبلتا هذا الاقتراح بكثير من البرود ، فقد كانت فرنسا منشغلة بأشياء أخرى ، وكان المستر تشمبرلين لا يزال على تشاؤمه وانهيار معنوياته، ولم يكن ليتفق معي حول تفسير الأخطار المتوقع حصولها وإمكانية تجنبها أو معالجتها حين تحصل، فقد كنت في ذلك الوقت أحبذ هذه الفكرة ، أي فكرة قيام تحالف فرنسي ـ بريطاني ـ روسي ، وكنت متأكدًا أن هذا هو الحل الوحيد لكبح جماح النازيين .

الفصل الثامن

تشيكوسلوفاكيا



عندما كان هتلر متجها في سيارته نحو فيينا ، التفت إلى الجنرال فون هولدر وقال له «لاشك أن خطوتنا هذه ستقلق التشيكيين» ، وأدرك هولدر على الفور ما قصده هتلر بكلمته تلك ، وظهرت له نواياه المقبلة .

وقد سمعنا أن غورنغ ، يوم دخلت الجيوش الألمانية أراضي النمسا ، قال للوزير التشيكي المفوض في برلين ، مؤكدًا له بصور قاطعة بأن ليس لألمانيا أية نوايا سيئة ضد تشيكوسلوفاكيا، كما أعلن المسيو بلوم ، رئيس وزراء فرنسا يوم الرابع عشر من شهر آذار ، في حديث له مع الوزير المفوض في باريس ، أعلن له بكل جدية ووقار ، أن فرنسا ستقوم بالتزاماتها تجاه تشيكوسلوفاكيا دون أي قيد أو شرط ، إلا أن جميع هذه التأكيدات لم تستطع أن تغير شيئًا من الحقيقة الرهيبة .

ومن جهة ثانية ، حاولت بريطانيا الوصول إلى اتفاق مع إيطاليا حول البحر الأبيض المتوسط، رغبة منها في وقف ألمانيا عند حدها ، كما أن مثل هذا الاتفاق سيقوي من مركز فرنسا ، ويمكنها هي من مراقبه ما يجري من أحداث في أواسط أوروبا ، وقد حاول موسوليني أن يتخذ لنفسه مركزًا قويًا للمساومة خاصة بعد أن اطمأن لسقوط إيدن ، فقرر الاتفاق مع بريطانيا ، وتم توقيع الاتفاق الإنكليزي الإيطالي في السادس عشر من شهر نيسان عام ١٩٣٨ ، الذي يقضي بالسماح لإيطاليا بالعمل في الحبشة وإسبانيا على هواها ، مقابل حسن نيتها في أواسط أوروبا ، وكانت وزارة الخارجية كثيرة التشكك في هذه الاتفاقية، وقد قال لنا مؤرخ حياة تشمبرلين ، فيلينغ ، أنه كتب في رسالة شخصية خاصة : «لو رأيت مسودة الاتفاقية التي قدمتها وزارة الخارجية ، لقلت أنها كافية لأن تجمد دبًا قطبيًا!» .

وكنت من ناحيتي أشاطر وزارة الخارجية مخاوفها تلك .

وكان هتلر من جهته يراقب الوضع باهتمام ، فهو يعلم أن موسوليني بحاجة إلى مساعدته حين تطلق يده للعمل في الحبشة ، وهذا ما سيفرض عليه قبول ما ستعمله ألمانيا في تشيكوسلوفاكيا، وراحت الدوائر الرسمية تدرس البيانات الإنكليزية والفرنسية ، وشعرت بارتياح لعزم الدولتين الغربيتين على إقناع التشيكيين بوجوب التروي حفاظًا على السلام في أوروبا، وفي هذه الإثناء ، بدأ الحزب النازي السويدي بزعامة هانلاين ، بوضع لائحة

بمطالبه المتضمنة الحصول على الحكم الذاتي في المناطق المجاورة لألمانيا ، وسارع الوزيران البريطاني والفرنسي إلى زيارة الوزير التشيكي لإقناعه و «للإعراب عن أملهما الصادق في أن تمضي الحكومة التشيكية إلى هذا الحد ، رغبة منها في تسوية النزاع وحسمه » .

وفي شهر آيار ، وصلت التعليمات من ألمانيا ، إلى الألمان في تشيكوسلوفاكيا ، بزيادة الاضطرابات، وكان موعد الانتخابات قد حان ، وبدأت الحكومة الألمانية تساعد الفوضى ، بحملة مركزة من حرب الأعصاب ، والإشاعات القائلة أن القوات الألمانية تتجمع على الحدود التشيكية ، ولم تؤد التطمينات التي أذاعتها حكومة ألمانيا ، إلى تهدئة التشيكيين الذين أعلنوا هم أيضًا التعبئة العامة في صفوفهم .

لقد كان هتلر متيقنًا أن إنكلترا وفرنسا لن تدخلا الحرب دفاعًا عن تشيكوسلوفاكيا ، لذلك دعا مستشاريه وأصدر التعليمات بالاستعداد للهجوم على تشيكوسلوفاكيا ، إلا أن هذا الهجوم المطلوب لم يكن بالأمر السهل ، إذ يترتب على ألمانيا أن تقذف نحوا من خمس وثلاثين فرقة عسكرية لتتمكن من اختراق الخطوط الدفاعية التشيكية ، فالجيش التشيكي يعتبر من أحدث الجيوش كفاءة وتجهيزًا ، هذا بالإضافة إلى أن روسيا السوفييتية مرتبطة مع تشيكوسلوفاكيا، وهي تتربص بألمانيا في حال محاولتها الهجوم على الأراضي التشيكية .

إلا أن هتلر ، بالرغم من اعتقاده بنجاح فكرته بالاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا ، فقد حاول أن يطمئن قادته الذين عارضوا فكرته تلك ، بأن قال لهم بأنه لن يبدأ هجومه إلا حين يتأكد أن فرنسا وإنكلترا لن تتدخلا في هذه المعركة ، إلا أنه في الثاني عشر من شهر أيلول وفي خطاب إلقاء في اجتماع لشبيبة الحزب في نورمبرغ ، هاجم الحكومة التشيكوسلوفاكية بعنف، ولم تلبث الحكومة هذه أن ردت عليه في اليوم التالي بأن فرضت الأحكام العرفية في بعض المناطق من الجمهورية ...

❖ ❖ ❖

وفي الحادي والعشرين من شهر أيلول ألقى لتفينوف في جلسة الجمعية العامة لعصبة الأمم إنذارًا رسميًا هذا نصه :

«إن جمهورية تشيكوسلوفاكيا، تعاني في الأيام الحاضرة من تدخل إحدى الدول الأجنبية المجاورة، في شؤونها الداخلية، كما أنها تتعرض لتهديد سافر بالهجوم عليها، ولذلك سيجد هذا الشعب الذي نعتبره من أعرق الشعوب الأوروبية حضارة، والذي كافح طويلاً من أجل الحصول على استقلاله، سيجد هذا الشعب نفسه مضطرًا على حمل السلاح من أجل الدفاع عن كيانه واستقلاله، وقد تلقيت منذ أيام سؤالاً من الحكومة الفرنسية، عن موقف بلادي في حال تعرضت تشيكوسلوفاكيا لهجوم أجنبي مفاجئ، وقد وجهت إلى الحكومة الفرنسية جواب بلادي الصريح التالي :

«إننا سنقوم بالتزاماتنا وسنطبق ميثاق عصبة الأمم، وسنقدم كل مساعدة ممكنة لتشيكوسلوفاكيا، وذلك بالتعاون مع فرنسا، كما أن وزارة الحربية على أتم الاستعداد للاشتراك في أي مؤتمر يعقد بين فرنسا وتشيكوسلوفاكيا لدرس الوسائل المناسبة لمواجهة الأحداث» كما أن حكومتي قد تلقت من الحكومة التشيكوسلوفاكية سؤالاً حول موقف الاتحاد السوفييتي وهل هو على استعداد لتقديم المساعدات بموجب الاتفاق السوفييتي - التشيكي، إذا قامت فرنسا هي الأخرى بالوفاء بإلزاماتها، وكان جواب حكومتي على هذا السؤال واضحًا بالإيجاب» .

ولم يلق هذا البيان الصريح أذنًا صاغية لا من حكومة بريطانيا العظمى ولا من حكومة فرنسا، فقد تجاهلت الدولتان هذا العرض، ولم يحسب أي حساب لهذه الدولة الكبرى، وقد أثرت هذه المعاملة المنطوية على الكثير من الازدراء، وتركت أثرًا كبيرًا على عقلية ستالين وتفكيره، وقد كلفنا الازدراء والتجاهل الكثير من التضحيات الغالية فيما بعد .

وألقى هتلر في السادس والعشرين من الشهر الحالي، خطابًا هاجم فيه بعنف تشيكوسلوفاكيا ورئيسها، إلا أنه كان معتدلاً تجاه فرنسا وبريطانيا العظمى، ومما قاله في خطابه، أنه يجب على تشيكوسلوفاكيا أن تتخلى فورًا عن بلاد السوديت، وأنها إذا ما تخلت عن هذه المناطق، فسيعتبر القضية منتهية تمامًا ولن يعود يهمه أمر تشيكوسلوفاكيا على الإطلاق، وأضاف بقوله أن هذا المطلب هو آخر مطلب إقليمي له في قارة أوروبا، وفي الساعة الثامنة من الليلة نفسها صدر البلاغ التالي عن وزارة الخارجية البريطانية :

« بالرغم من المحاولات المبذولة من جانب بريطانيا لتسوية المشكلة التشيكوسلوفاكيا، وإذا ما حدث أن تعرضت البلاد إلى هجوم ألماني عليها، فإن فرنسا ستسارع إلى مساعدتها، كما أن بريطانيا العظمى والاتحاد السوفيتي سيقفان بلا شك، إلى جانب فرنسا » .

وشعرت أن ساعة القتال قد اقتربت ـ فقد كان عدد الجيش التشيكي مليونًا ونصف المليون من الجنود المجهزين بأحدث الأجهزة، تساندهم آليات جبارة رائعة التنظيم، وبدأت تعبئة الجيش الفرنسي في الحال، كما أصدرت الإمبراطورية البريطانية الأوامر بتعبئة الأسطول .

❖ ❖ ❖

وفي هذه الأثناء، بدأ الصراع بين هتلر ومستشاريه، فقد بدا لهم أن الأزمة قد تفاقمت بشكل خطير، فهناك نحو من ثلاثين إلى أربعين فرقة مدرعة قد احتشدت على طول الحدود الشرقية لألمانيا، كما أن الجدار الغربي للبلاد قد سدته الحشود الفرنسية التي كانت تفوق قوة ألمانيا بنسبة ثمانية إلى واحد، كذلك الجيوش السوفيتية التي راحت تشق طريقها عبر بولندا ورومانيا، وفي الحال قام فريق من الجنرالات الألمان بمؤامرة لاعتقال هتلر و «إنقاذ ألمانيا من هذا المجنون» .

وفي هذا الوقت، أبرق المستر تشمبرلين إلى هتلر، دون أن يستشير أحدًا، مقترحًا عليه زيارته وطار المستر تشمبرلين إلى ألمانيا وقد اقتنع أن حل المشكلة التشيكية هو في فصل منطقة السوديت عن تشيكوسلوفاكيا، ولذلك سيقنع هتلر ويتخلى عن هجومه، وفي ميونيخ، حيث نزل المستر تشمبرلين، لحق به المسيو ديلادييه رئيس وزراء فرنسا، وموسوليني، ولم توجه دعوة على روسيا لحضور هذا الاجتماع، كما لم يسمح للتشيكيين بالحضور أيضًا، وقد أبلغت الحكومة التشيكوسلوفاكية بأن مؤتمرًا سيعقد في اليوم التالي يضم ممثلين عن الدول الأوروبية الأربع فقط، وانعقد المؤتمر عند الظهر من اليوم نفسه واستمر حتى الساعة الثانية من صباح اليوم التالي، وتم الوصول إلى اتفاق بين «الأربعة الكبار» ، وأعدت مذكرة وقع عليها الجميع في الجلسة نفسها، وكانت المذكرة تتضمن قبولاً بكل ما تطلبه ألمانيا وموافقة تامة على وجوب الجلاء عن منطقة السوديت خلال عشرة أيام، كما تقرر تعيين لجنة دولية

للإشراف على تخطيط الحدود النهائية .

وهكذا بدأت عملية تقطيع تشيكوسلوفاكيا ، ولم تنته المشكلة عند هذا الحد ، فقد وجهت بولندا إنذارًا إلى الحكومة التشيكوسلوفاكية يقضي بتسليم منطقة «تيشين» الواقعة على الحدود بين البلدين ، وذلك خلال أربع وعشرين ساعة ، ولم يكن هناك من سبيل لرفض هذا المطلب القاسي، كما جاء المجريون يطالبون هم أيضًا بحصتهم من الغنيمة .

***

اتفاق ميونيخ ومشاعر البريطانيين:

يقول تشرشل :

ليس من السهل ، بعد أن مررنا خلال تلك السنوات القاسية أن نصور للأجيال القادمة حقيقة المشاعر المتأججة في نفوس البريطانيين نتيجة لاتفاق ميونيخ ، فقد انقسم الرأي بين أفراد أسر المحافظين وأصدقائهم إلى حد كبير جدًا لم أر مثيلاً له في حياتي ، وكان الرجال والنساء الذين تربطهم ببعضهم البعض علاقات متينة ينظرون إلى بعضهم البعض نظرات كلها احتقار وغضب، ونحن لم نكن لنهتم كثيرًا آنذاك بالرغم من نظرات السخرية والهزء التي يقابلنا بها أنصار الحكومة، واهتزت أركان الحكومة ، إلا أنها ظلت متماسكة ، ولم يصمد إلا وزير البحرية المستر داف كوبر ، الذي قدم استقالته بعد أن بقي محافظًا على كرامته حين أمر بتعبئة الأسطول، ففي الوقت الذي كان المستر تشمبرلين يسيطر على الرأي العام البريطاني سيطرة تامة ، كان المستر كوبر يندفع من بين الصفوف ليعلن إلى الرأي العام معارضته التامة لموقف رئيسه .

وألقى المستر كوبر خطاب استقالته ، في مجلس العموم أثناء مناقشة موضوع اتفاق ميونيخ ، وقد اعتبرت هذه الاستقالة حدثًا بارزًا في الحياة البرلمانية ، وتحدث الوزير لمدة أربعين دقيقة بحرية تامة مرتجلاً خطابًا وطنيًا سيطر فيه على مشاعر خصومه ومعارضيه من نواب الحزب ، وصفق له نواب العمال والأحرار المعارضون للحكومة ، طويلاً وهتفوا له محيين ، وكانت هذه الحادثة بداية انشقاق في حزب المحافظين .

ولا زلت أذكر حين قمت في المجلس وأعلنت «إننا قد منينا بهزيمة منكرة لم يسبق لها مثيل .. فقد ثارت ضدي عاصفة ضخمة في المجلس مما اضطرني إلى التوقف عن الكلام لفترة قبل أن أعود إلى متابعة كلامي ، فقد كان هناك شعور من الإعجاب بما يبذله المستر تشمبرلين من جهود صادقة للمحافظة على السلام ، وخاصة محاولاته الشخصية التي قام بها في هذا الصدد، وهنا لا بد لي من ذكر الأخطاء وسوء التقدير للحقائق الراهنة التي وقع فيها تشمبرلين في محاولاته ، وإن كنت لا أعارض الدوافع التي حدت به إلى اتخاذ المواقف التي وقفها والتي تحتاج إلى الكثير من الشجاعة الأدبية التي كان المستر تشمبرلين يتمتع بها ، وقد مدحت فيه هذه الشجاعة بعد عامين في خطابي الذي ألقيته بمناسبة وفاته .

لقد كان في إمكان الحكومة أن تعتمد حجة أخرى ، بالرغم من أنها تعرض بسمعة الحكومة نفسها ، فلم يكن أمر عدم استعدادنا لدخول الحرب بالأمر الخفي ، لكن هل كان من هو أسرع مني للإدلال على هذه الحقيقة ؟ لقد سمحت بريطانيا للقوة الجوية الألمانية أن تتفوق عليها ، وكانت جميع مراكزنا معرضة للهجوم ، دون أي حماية ، ولم يكن في بلد من أكبر بلدان العالم وأكثرها كثافة في السكان ، سوى مائة مدفع مضاد للطائرات ، وهذا المثل من أبسط الأدلة على الواقع الأليم .

لقد أدى اتفاق ميونيخ إلى سلب الحلفاء جيشًا قويًا ، هو الجيش التشيكوسلوفاكي المجهز بإحدى وعشرين فرقة نظامية ، بالإضافة إلى فرق الخط الثاني التي تبلغ ست عشرة فرقة ، أما خط دفاعها المحصن ، فقد كان يتطلب في هذه الأثناء ، ثلاثين فرقة ألمانية أي ما يعادل قوة الجيش الألماني الرئيسية بأسرها ، وقد ذكر الجنرال الألماني يودل أن ثلاث عشرة فرقة ألمانية، بقيت في الغرب عندما جرى توقيع اتفاقية ميونيخ ، وكانت الخسارة الفادحة حين قضت تلك المعاهدة بسلخ جزء هام من الأراضي التشيكية بما فيها مصنع سكودا البالغ الأهمية الذي كان يعتبر أهم مصنع في أوروبا الوسطى ، وكان إنتاجه بين شهر آب ١٩٣٨ وأيلول ١٩٣٩ معادلاً لما تنتجه جميع المصانع البريطانية من سلاح ، وبذلك أصبح هذا المصنع ملكًا خاصًا لهتلر قدمناه له على طبق من فضة .

❖ ❖ ❖

الفصل التاسع

براغ ، ألبانيا ، وضمانة بولندا
وأحداث عام ١٩٣٩



يقول تشرشل :

في شهر كانون الآخر عام ١٩٣٩ ، سافر فون ريبنتروب إلى وارسو لمواصلة هجومه الدبلوماسي المركز على بولندا ، فابتلاع تشيكوسلوفاكيا يجب أن يتبعه حصر بولندا ، والمرحلة الأولى تقضي بعزلها عن البحر وتأكيد سيادة ألمانيا في دانزيغ ، ومد سلطتها على سواحل البلطيق حتى ميناء ميميل الليتوني ، أما الحكومة البولندية فقد قاومت بشدة هذا الضغط ، بينما كان هتلر يترقب الفرصة المناسبة لمبدأ العمليات العسكرية .

وفي شهر آذار انتشرت الشائعات عن تحركات مريبة تقوم بها الجيوش الألمانية في ألمانيا والنمسا ، خاصة في منطقة فينا سالزبورغ وقد قالت الشائعات أن أربعين فرقة قد أصبحت جاهزة للمعركة ، وفي نفس الوقت كان السلوفاكيون ، بعد أن تأكدوا من أن ألمانيا ستقوم بمعاونتهم ، يخططون لفصل بلادهم عن الجمهورية التشيكوسلوفاكية ، وأحست بولندا بشيء من الارتياح، بعد أن زال الخطر عنها مؤقتًا ، وأعلن وزير خارجيتها في وارسو أن حكومته تعطف على مطالب وآمال السلوفاكيين .

وفي بريطانيا ساد الشعور بالتفاؤل الضال على الرغم من المحن التي كانت تقاسيها تشيكوسلوفاكيا في ذلك الحين نتيجة للضغط الهائل من ألمانيا، أما الصحف البريطانية التي سبق وأيدت اتفاقية ميونيخ ، فلم تفقد ثقتها في السياسة التي جرت إليها البلاد ، وقام وزير الداخلية وألقى خطابًا في العاشر من شهر آذار أعرب فيه عن أمله في مشروع خمس سنوات من السلم يؤدي بعد ذلك إلى خلق «العصر الذهبي» ، وكان البحث جاريًا لإنشاء علاقات تجارية مع ألمانيا، وقامت الصحيفة الأسبوعية الشهيرة «بنش» بنشر صورة كاريكاتورية لجون بول ، وهو يستيقظ من كابوس مرعب ، وفي نفس اليوم الذي نشرت فيه هذه الصورة، وجه هتلر آخر إنذار إلى الحكومة التشيكية التي أصبحت ضعيفة واهنة بعد أن ضاعت خطوطها الدفاعية المحصنة نتيجة لاتفاقية ميونيخ وهجمت الجيوش الألمانية.على العاصمة براغ واحتلتها دون مقاومة ، ولا زلت أذكر أني كنت في غرفة التدخين ، أجلس مع المستر إيدن حين طالعتنا صحف المساء بهذا النبأ الهام، وقد ذهلنا من هذا العدوان السافر المفاجئ الذي لم نكن نتوقعه ، ولم نصدق أن حكومة جلالته، بما لديها من أجهزة قوية للاستخبارات لم تعلم من قبل بمثل هذا الهجوم المفاجئ .

وفي اليوم الرابع عشر من آذار أعلن السلوفاكيون استقلالهم ، واجتازت القوات

المجرية التي تؤيدها بولندا ، اجتازت الحدود إلى المناطق الشرقية من تشيكوسلوفاكيا التي سبق وطالبت بها ، ووصل هتلر بعد قليل إلى براغ ليعلن فرض حماية ألمانيا على تشيكوسلوفاكيا ويعلن ضمها إلى الرايخ الألماني .

وكان رد المستر تشمبرلين على هذا العدوان في خطاب ألقاه في مجلس العموم يوم الخامس من شهر آذار حيث قال : «في تمام الساعة السادسة من هذا الصباح تم احتلال القوات الألمانية لبوهيميا، كما أصدرت الحكومة التشيكوسلوفاكية أوامرها بعدم المقاومة .» ثم قال عن الضمانة البريطانية لحدود تشيكوسلوفاكيا : «لقد تبدلت الأوضاع كلية عندما أعلن مجلس الدايبت السلوفاكي انفصاله واستقلال سلوفاكيا ، وأدى بالتالي هذا الإعلان إلى نهاية الدولة التي ضمنا حدودها بسبب من الانشقاق الداخلي ، لذلك فإن حكومة جلالته تجد نفسها غير مرتبطة بذلك الالتزام ...» .

وكان من المقرر أن يلقي رئيس الوزراء المستر تشمبرلين خطابًا في برمنغهام بعد يومين ، وكنت أتوقع أن يكون هذا الخطاب متسامحًا ، إلا أني فوجئت بتغير شامل لم أكن أنتظره ؛ وقد أدرك تشمبرلين الخطأ الذي وقع فيه كما أدرك أنه خدع نفسه ، وفرض هذا الخطأ على الرأي العام البريطاني فبدل موقفه المسالم السابق مديرًا له ظهره ، وقام ليكشف أمام العالم عن حقيقة شخصيته القاسية الصلبة ، قام المستر تشمبرلين ليلقي خطابًا عنيفًا هاجم فيه هتلر بشدة متهمًا إياه بالتنكر لجميع الوعود التي قطعها على نفسه في مؤتمر ميونيخ وذكر جميع التأكيدات التي أكدها هتلر حين قال: «إن هذا هو آخر مطلب إقليمي لنا في أوروبا» وقال رئيس الوزراء :

« لقد كانت غالبية الشعب البريطاني مقتنعة ، بعد مؤتمر ميونيخ ، بوجوب التقيد بسياسة الحفاظ على السلام ، أما الآن فلا يسعني إلا أن أشارك هذا الشعب خيبة أمله المريرة وسخطه الشديد لتحطيم تلك الآمال ، إذ كيف يمكننا جمع هذه النقائض بين تأكيدات هتلر السابقة وأحداث هذا الأسبوع ؟ وكيف سنطمئن إلى أن هذا الهجوم لن يتلوه الهجوم الجديد على دولة صغيرة أخرى ؟ وهل سيكون هجومه هذا كخطوة أولى نحو فرض سيطرته على العالم بالقوة ؟

وفي الثلاثين من شهر آذار أعلن المستر تشمبرلين في البرلمان : بعد أن تأكد له أن خطوة هتلر التالية هي الهجوم على بولندا وابتلاعها ...

«في حال وجود أي اعتداء من شأنه أن يهدد استقلال بولندا، فإن حكومة جلالته ستجد نفسها مضطرة في الحال إلى مساعدة الحكومة البولندية بكل ما في وسعها، وقد أكدت حكومة جلالته ذلك إلى الحكومة البولندية.

« وأود في هذه المناسبة أن أقول، أن حكومة فرنسا قد فوضتني أن أوضح موقفها المطابق لموقفنا من هذه المسألة الهامة ... وقد أبلغت جميع حكومات الدومينيونات بهذا القرار» !!

ولم يكن الوقت يسمح لتبادل التهم بين الأحزاب في المجلس، وأيد جميع الزعماء الضمانة التي قدمتها الحكومة إلى بولندا، وقلت معلقًا على هذا القرار «لن نجد أية وسيلة أخرى سوى أن نعمل هذا» فقد كان هذا العمل ضروري بعد أن وصلنا إلى هذا الحد، ولكن هذه الضمانة تعني حتمًا نشوب حرب عالمية ...

وهكذا نصل الآن في هذه القصة من الأحكام الخاطئة التي ارتكبها رجال أكفاء من ذوي النيات الحسنة، ولاشك، بعد أن وصلنا نتيجة لتلك الأخطاء إلى هذا المأزق، لنضع المسؤولين عن زمام الأمور مهما كانت نياتهم حسنة، يتحملون وزر أعمالهم أمام التاريخ، وبنظرة إلى الوراء سنجد ما سبق وقبلناه أو ما سبق وتخلينا عنه: لقد كانت ألمانيا منهوكة القوى مجردة من السلاح بفضل معاهدة صارمة، وبعد ذلك قامت ألمانيا لتتسلح من جديد وتتحدى تلك المعاهدة، ثم تخاذلنا فتفوقت علينا ألمانيا في ميدان الطيران الحربي، ثم احتلت منطقة الراين بالقوة واحتلت بناء تحصينات خط سيغفريد، ثم إنها أقامت معاهدة محور بينها وبين إيطاليا، ثم انقضت على النمسا وابتلعتها، ثم تخلينا نحن عن تشيكوسلوفاكيا، وساعدنا على تحطيمها حين وقعنا معاهدة ميونيخ وسلمنا بذلك خط دفاعها المحصن إلى الألمان بالإضافة إلى مصانع السلاح في سكودا التي انتقلت بموجب تلك المعاهدة إلى أيدي الألمان ليقوموا بتزويد أنفسهم بالسلاح، ثم تجاهلنا وساطة ومساعي الرئيس روزفلت لإقامة سلام في أوروبا، ثم إهمالنا لرغبة الاتحاد السوفييتي الصادقة في الاشتراك مع دول الغرب لإنقاذ تشيكوسلوفاكيا، كل هذه الأخطاء والتخليات ذهبت هباء منثورًا.

والآن جاءت بريطانيا لتقدم ضمانتها لبولندا، تلك الدولة التي ساعدت على تقطيع أوصال تشيكوسلوفاكيا قبل ستة أشهر فقط، وسنضطر الآن لكي ندافع عنها أن نهاجم ألمانيا التي أصبحت أكثر قوة ومناعة مما كانت عليه عام ١٩٣٨ حين تراجعنا، أما الآن فقد

عقدنا العزم على مجابهة ألمانيا ، لكن هذا القرار قد اتخذناه في أسوأ الظروف ، وعلى أسس غير مقنعة والتي ستؤدي بحياة الملايين من البشر ...

❖ ❖ ❖

ودفع البولنديون ثمن مقاطعة نيشن التي استولوا عليها من تشيكسلوفاكيا ، فعندما استقبل فون رينبتروب سفير بولندا في برلين ، كانت لهجته جافة حادة أكثر من المرات السابقة ، فقد نجم عن احتلال بوهيميا وإنشاء دولة سلوفاكيا ، وصول الجيش الألماني إلى حدود بولندا الجنوبية ، وقد قال له السفير البولوني ، أن رجل الشارع العادي لا يمكنه فهم السبب الذي دعا ألمانيا إلى حماية سلوفاكيا بشكل يعتبر عملاً عدوانيًا موجها ضد بولندا ، كما طلب السفير معلومات عن المحادثات التي جرت بين فون ريبنتروب ووزير خارجية ليتوانيا ، وبالأخص فيما يتعلق بمرفأ ميمل، ولم يأت الرد على سؤاله هذا إلا بعد يومين حين احتلت ألمانيا هذا المرفأ .

ولم يعد بالإمكان صد الهجوم الألماني على أوروبا الشرقية ، إذ أن المجر قد وقفت إلى جانب ألمانيا، كما أن بولندا حين تخلت عن تشيكوسلوفاكيا أصبحت غير مستعدة للتعاون مع رومانيا ، كما أنها ورومانيا لا ترضيان بمرور القوات الروسية عبر أراضيها للوقوف في وجه ألمانيا ، وكان محور الموضوع يدور حول التفاهم مع روسيا بالذات !!

وفي السادس والعشرين من شهر آذار ألقى موسوليني خطابًا عنيفًا بين فيه بشدة مطالب إيطاليا من فرنسا بشأن البحر الأبيض المتوسط ، وفي السابع من نيسان نزلت القوات الإيطالية في ألبانيا ولم تلبث أن احتلت البلاد كلها بعد مدة وجيزة ، وهكذا أصبحت ألبانيا نقطة ارتكاز للجيوش الإيطالية للاعتداء على اليونان ، بالإضافة إلى تهديدها ليوغوسلافيا وشل حركتها .

وفي الخامس عشر من نيسان بعث الرئيس روزفلت رسالتين شخصيتين إلى هتلر وموسوليني طلب منهما التعهد بعدم القيام بأي عدوان جديد لمدة عشر سنوات أو خمس وعشرين سنة ... وقد رفض موسوليني أن يقرأ الرسالة تلك ، إلا أنه قال بعد أن قرأها : «إنها نتيجة لمرض شلل الأطفال» ، ولم يكن ليعلم أنه سيعاني هو نفسه فيما بعد من آلام مبرحة أشد من آلام شلل الأطفال.

❖ ❖ ❖

في شهر آذار من السنة نفسها، شاركت في وضع مشروع قرار إلى المجلس نطلب فيه تأليف حكومة جديدة، وقد شاركني في وضع هذا المشروع حوالي ثلاثين نائبًا محافظًا من بينهم المستر أنطوني إيدن، وظهرت حركة قوية تدعو إلى تأليف حكومة جديدة قوية، واستمرت طوال الصيف، وكانت الشعارات تنادي بإدخالنا إلى مثل هذه الحكومة، وشعر السير ستافورد كريبس، الذي كان مستقلاً في موقفه، أحس بقلق شديد من الأخطار التي تهدد الوطن، وقام بزيارتي عدد من الوزراء ودعيت إلى تأليف حكومة «تضم الجميع»، ولم يكن باستطاعتي أن أفعل شيئًا في هذه الحال، إلا أن وزير التجارة، المستر ستانلي، كان متحمسًا لهذه الفكرة، فكتب إلى المستر تشمبرلين عارضًا منصبه الوزاري إذا كان هذا يسهل إعادة تأليف وزارة جديدة وعلى أسس جديدة، وقد اكتفى المستر تشمبرلين باستلام رسالته دون التعليق عليها.

وتبنت الصحف هذه الفكرة على مرور الأيام، وتزعمت الدايلي تلغراف والمانشستر غارديان هذه الحملة وراحت تطالب بوزارة جديدة، وقد دهشت لهذا الحماس في المطالبة بوزارة جديدة، وصرت أرى في الشوارع اللافتات ترتفع وتحمل شعارات «تشرشل يجب أن يعود»، وبدأت التظاهرات السلمية تجوب العاصمة وتتجمع أمام المجلس تطالب باشتراكي بالوزارة، ولم أكن في ذلك الحين على اطلاع بهذه الأساليب من الإثارة، إلا أنه لو طلب مني المشاركة في الحكم لما ترددت في ذلك، وقد شاء الحظ أن يحالفني في هذه الفترة، فسارت الأمور بطريقها الصحيح لتؤدي إلى النتيجة المرتقبة والمخيفة...

❖ ❖ ❖

الفصل العاشر

على حافة الحرب

(وتدهور العلاقات مع ألمانيا)



يقول تشرشل :

وأخيرًا وصلنا إلى النقطة الحاسمة ، التي تدهورت فيها جميع علاقاتنا مع ألمانيا ، والتي راحت تهدد بالانقطاع ، ونحن الآن نعرف أن هذه العلاقات لم تكن صادقة بين بريطانيا منذ اليوم الذي جاء فيه هتلر إلى سدة الحكم ، فقد كان هتلر يحاول إكراهنا بشتى الوسائل والطرق على قبول الوضع الحاضر والسماح له بإطلاق يده في شرق أوروبا بينما كنا نقوم بدورنا في تهدئة الخواطر بكل إخلاص ، وها قد جاء الوقت الذي فقدت فيه حكومة تشمبرلين كل أمل في تسوية الوضع المتأزم، وما إن اقتنعت الوزارة أن ألمانيا جادة في طريق الحرب ، حتى سارعت إلى عقد المحالفات ومنح الضمانات دون تفكير بما قد تجره هذه الضمانات علينا من أعباء مرهقة ، بالإضافة إلى إمكاناتنا المحدودة في تقديم العون لتلك البلاد ، وهكذا منحت ضمانات أخرى بالإضافة إلى الضمانات السابقة ، إلى كل من اليونان ورومانيا وعقدت حلفًا مع تركيا .

وترتب بالتالي ، على الحكومة ، أن تدرس إمكانية تطبيق الوسائل العملية لتنفيذ هذه الضمانات نحو بولندا ورومانيا ، وقد كانت هذه الضمانات غير ذات قيمة ، من الناحية العسكرية، ما لم تكن ضمن برنامج من الاتفاقات يعقد مع روسيا ، وحاولت الوزارة أن تنفذ هذا التحالف مع روسيا فطلبت من السفير البريطاني في موسكو أن يبدأ سلسلة من المحادثات مع المسيو لتفينوف، ولم أكن انتظر أية نتيجة من هذه المحادثات بسبب معاملتنا الجافة لروسيا في السابق، وبالرغم من ذلك فقد قدم الروس مشروعًا لعقد تحالف بين بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتي يقضي بتقديم العون إلى دول أوروبا الشرقية التي تتعرض للغزو الألماني ، وكانت العقبة الكبرى التي عرقلت هذا التحالف ، هو خوف تلك الدول الصغيرة من التعاون مع روسيا الذي يقضي بدخول الجيوش السوفيتية إلى أراضيها للدفاع عنها ضد ألمانيا ، والسبب في ذلك خوفها من قلب نظام الحكم الحاضر وضم تلك البلاد إلى النظام الشيوعي السوفيتي التي كانت تعارضه تلك البلاد ، ووقعت البلاد في حيرة من أمرها ، هل تخاف الغزو الألماني أكثر أم العون الروسي، وكان هذا التردد السبب في شل حركة السياسة البريطانية والفرنسية في تلك المنطقة .

وقف المستر تشمبرلين مذهولاً أمام هذه المشكلة الجديدة، وبدأ طريقة المماطلة والتسويف، ولو أنه قبل هذا العرض الروسي لتغير وجه التاريخ وسارت الأمور بطريقة تختلف عما وصلت إليه، وعلى الأقل، لن تكون النتيجة بأسوأ مما أصبحت عليه بالفعل.

وساد الصمت، وأعدت أنصاف الحلول والتسويات والمساومات، وأصيب المشروع بضربة قاصمة، ومنيت محادثات ليتفينوف بالفشل الذريع، وبدا له أن التفاهم مع الدول الغربية أصبح مستحيلاً، وفقدت الثقة بين الروس والغرب، وشعروا بوجوب اتباع سياسة خارجية مختلفة تمامًا عن السابق، وذلك للحفاظ على سلامتهم، وصدر البيان الرسمي القاضي بعزل لتفينوف من منصبه في وزارة الخارجية، وتكليف مولوتوف، رئيس الوزارة، بمهام الوزارة بدلاً منه، وهكذا تم إقصاء الوزير اليهودي الذي كانت ألمانيا تكره وجوده، وتعاون مولوتوف مع ستالين نفسه في رسم سياسة خارجية جديدة أكثر تحررًا من السياسة السابقة، وأكثر انسجامًا مع مصلحة روسيا الخاصة، ولم يكن أمامهم إلا طريق واحد، هو تأييد هتلر المطلق.

مخاوف تشرشل:

يقول تشرشل :

كان خوفي شديدًا من تراجع حكومة جلالته عن ضمانتها لبولندا في حال تعرضها لهجوم ألماني واسع النطاق، ولكن المستر تشمبرلين كان قد عقد العزم على خوض معركة ضارية مهما كان هذا العزم مريرًا بالنسبة له، ولكني لم أكن على معرفة وثيقة به كما أصبحت فيما بعد، وكان خوفي أن يقوم هتلر «ببلفة» جديدة من بنات أفكاره، كاختراعه لسلاح جديد رهيب يمكنه من تخويف مجلس وزارتنا المثقل بالأعباء، وكان الأستاذ ليندمان يحدثني دائمًا عن الطاقة الذرية، وقد طلبت إليه أن يطلعني على المعلومات الكافية حول هذا الموضوع، ففعل وبعثت برسالة إلى كنغزلي وود، وزير الطيران، هذا نصها :

« قرأت في إحدى الصحف قبل أسابيع، عن قصة الطاقة الهائلة التي يمكن بعثها من اليورانيوم، وقد توصلت الاختبارات الحديثة إلى اكتشاف هذه الطاقة بعد أن يتجزأ هذا

أما موقف موسوليني المستتر فكان اهتمامه الشديد في تثبيت مركزه في البحر الأبيض المتوسط وشمال إفريقيا ، وحصوله على نتائج مرضية من جراء تدخله في إسبانيا ، واحتلاله لألبانيا ، ولم يكن يرغب في الدخول في حرب أوروبية من أجل احتلال ألمانيا لبولندا ، فبالرغم من تبجحه وادعاءاته فكان يدرك في قرارة نفسه ضعف مركزه العسكري السياسي : وربما كان على استعداد للدخول في الحرب عام ١٩٤٢ بعد أن تزوده ألمانيا بالسلاح أما في عام ١٩٣٩ فلا ، ثم لا ...

وفي الصيف ، بعد أن اشتد الضغط على بولندا ، أراد موسوليني أن يمثل الدور الذي مثله في ميونيخ ، كوسيط للسلام ، إلا أن هتلر كان قد عقد العزم على احتلال بولندا ، وأوضح لتشيانو عن تصميمه لتسوية الوضع مع بولندا ، وأنه سيضطر للدخول في حرب مع إنكلترا أو فرنسا ، وهو يطلب من إيطاليا الدخول معه في هذه الحرب ، وقال : «وإذا قررت إنكلترا الاحتفاظ بقوات كافية في بلادها ، فعليها أن ترسل بفرقتين من المشاة إلى فرنسا مع فرقة مدرعة ، وعليها أن تبعث بقاذفات القنابل إلى ألمانيا ، أما الطائرات المقاتلة فيمكنها الاحتفاظ بها في بلادها ، لأنها ستحتاج إليها هناك ، لأن قواتنا الجوية ستهاجم إنكلترا في الحال ، وستحتاج إلى تلك المقاتلات للدفاع عن بلادها ، أما عن فرنسا فقال أن تدمير بولندا لن يستغرق طويلاً ، وستتمكن ألمانيا من حشد جيوشها على خط ماجينو وستكون على أتم الاستعداد للدخول في معركة الحياة أو الموت ... ورجع تشيانو لينقل إلى رئيسه ما سمعه من هتلر ، فلقاه مقتنعًا هو الآخر أن الدول الديمقراطية ستخوض الحرب ، كما وجده أكثر تصميمًا على البقاء خارجها .

❖ ❖ ❖

ماذا قال ستالين ؟!

يقول تشرشل :

وقامت محاولات جديدة للتقرب من روسيا ، إلا أنها باءت جميعها بالفشل الذريع ، وقد قال لي ستالين حين زرته في شهر آب عام ١٩٤٢ ، عندما كنا في الكرملين ، موضحًا

النوع من الذرة بواسطة النيوترون ، وقد أوحت هذه التجارب عن وجود قوة هائلة من المتفجرات التي يمكن أن تحتوي على قوة تدميرية مخيفة، ولكن يمكننا الاطمئنان إلى ناحية هامة ، هو أن هذا الاكتشاف الجديد لا يمكن وضعه موضع الاستعمال قبل عدة سنوات .

« وهناك دلائل تشير إلى أن القصص والروايات ستحاك حول إمكانية استخدام هذا الاختراع العلمي الجديد لاستخراج مواد متفجرة سرية منه ، قادرة على أن يمحو لندن من الوجود ، وستجري محاولات عديدة من قبل رجال الطابور الخامس لإقناعنا باستخدام هذه التهديدات لقبول عملية استسلام من نوع جديد ، لذلك رأيت من واجبي أن ألفت نظرك إلى ذلك»

أما الخوف من أن يكون الألمان قد اكتشفوا مثل هذا السلاح الرهيب ، فهذا لا يستند إلى أي أساس علمي صحيح، ولا شك في أن التلويح بهذا السلاح سيظهر وستنتشر الأقاويل المخيفة وستضخم الإشاعات ، وكل أملي ألا تأخذ الجهات المسؤولة بهذه الإشاعات المضخمة .

لقد كان هذا التكهن صحيحًا ودقيقًا بنفس الوقت ، فالألمان لم يجدوا الطريق الصحيح، بل تبعوا طريقًا خاطئًا وما لبثوا أن تخلوا عن فكرة البحث عن اختراع القنبلة الذرية ، واستمروا في أبحاثهم لاختراع الصواريخ الموجهة والطائرات التي تطير دون طيارين ، بينما كنت والرئيس روزفلت نتخذ المقررات الهامة التي سآتي على ذكرها في الوقت المناسب ، لإتمام صنع القنابل الذرية على نطاق واسع .

❖ ❖ ❖

تصريح موسوليني:

يقول تشرشل :

في السابع من شهر تموز صرح موسوليني للسفير البريطاني بكلمة حول موقف بلاده من ألمانيا فقال : « قل لتشمبرلين ، أنه إذا كانت بريطانيا راغبة حقًا في الدفاع عن بولندا وحمل السلاح من أجلها ، فإن إيطاليا لن تتأخر عن حمل السلاح والاشتراك مع حليفتها ألمانيا » ،

ناحية واحدة من موقف روسيا عندما قال: « لقد تأكد لنا أن الحكومتين البريطانية والفرنسية غير عازمتين على الدخول في حرب مع ألمانيا إذا ما هاجمت بولندا ، وإن رغبتهما في عقد الحلف الروسي ـ الفرنسي ـ البريطاني ليست كما تبدو في الظاهر ، بل لرغبتهما في كبح جماح هتلر ، وكنا على ثقة تامة أن هذا الحلف لن يوقف هتلر » .

وقد سأل ستالين أحد المفاوضين : «كم فرقة تستطيع فرنسا أن تقذف بها إلى الميدان ضد ألمانيا؟ » وكان الرد «مائة فرقة» ثم سأل «وكم تستطيع إنكلترا أن ترسل ؟ » وجاءه الرد «فرقتين أولاً ، ثم فرقتين فيما بعد » .

ثم سأل: «هل تعلمون كم فرقة نستطيع أن نقذف إلى الميدان في حال دخلنا الحرب ضد ألمانيا؟» ولما لم يجبه أحد من المتفاوضين استطرد قائلاً : «أكثر من ثلاثمائة فرقة ! » . . .

وهنا أرى من الواجب أن أسجل نص الميثاق المعقود بين ألمانيا وروسيا، بعد أن فشلت المحاولات الغربية لإشراك روسيا في حلف ضد ألمانيا ، وبعد أن اتجهت روسيا نحو ألمانيا التي سارعت إلى عقد ميثاق عدم اعتداء هذا نصه .

«ترى الدولتان المتعاقدتان أن من الواجب عدم القيام بأي عمل وقد احتفل بتوقيع هذا الميثاق باحتفال رسمي كبير ، وقام ستالين ليشرب نخب هتلر وقال : «أنا أعرف أن الشعب الألماني يحب زعيمه حبًا كبيرًا ، لذلك أحب أن أشرب نخبه » .

نستخلص مما تقدم أن الاستقامة هي السياسة المثالية ، وسنرى في هذا الكتاب أمثلة عديدة على هذه النظرية ، فقد يبدو الساسة والدهاة ، على خطأ في حساباتهم التي افترضوها ، إلا أن هذا المثل يبقى أوضح من غيره ، فبعد اثنين وعشرين شهرًا أرغم ستالين وعشرات الملايين من الشعب الروسي أن يدفعوا ثمنًا باهظًا ومخيفًا لما وقع ....

❊ ❊ ❊

الفصل الحادي عشر

الحرب

وبيان هتلر الأول



يقول تشرشل :

أصدر هتلر بيانه الأول في الحادي والثلاثين من شهر آب :

١ ـ لما فشلت جميع الاحتمالات السياسية لتسوية الوضع على الحدود الشرقية بطريقة سلمية ، ولما كانت الأوضاع الراهنة غير محتملة ، فقد قررت أن أفرض الحلول بالقوة .

٢ ـ يجب تنفيذ الهجوم على بولندا حسب الخطة المرسومة ، وقد تقرر موعد الهجوم يوم الأول من شهر أيلول عام ١٩٣٩ في تمام الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحًا.

٣ ـ من المهم أن يكون الاعتداء من جانب إنكلترا أو فرنسا ، بشكل واضح ، وفي حال وقوع حوادث طفيفة على الحدود ، يجب الاكتفاء بالعمل المحلي فقط .

وهكذا قامت ألمانيا بهجومها على بولندا في صباح الأول من شهر أيلول عام ١٩٣٩ ، كما أصدرت حكومتنا أمرها بتعبئة جميع القوات المسلحة ، وبعد ظهر ذلك اليوم طلب مني رئيس الوزراء أن أحضر لزيارته في دواننغ ستريت ، وقد قال لي: «إنه لم يعد هناك من أمل في تجنب الحرب مع ألمانيا ، لذلك فهو يقترح تشكيل وزارة صغيرة للحرب ، تضم وزراء دون وزارات معينة لتسيير دفة الحرب» ، وقال: «إن حزب العمال غير مستعد للاشتراك في حكومة ائتلافية ، أما الأحرار فهم يطلبون المشاركة في الحكم» ، ثم طلب مني أن أكون عضوًا في تلك الوزارة الحربية، وقد وافقت على هذا الاقتراح دون أي تعليق .

وفي المساء انعقد المجلس ، وألقى رئيس الوزراء خطاب تهدئة استقبله المجلس استقبالاً سيئًا، وعلا الصراخ والهتافات ، ولم يكن ثمة شك في أن المجلس استقبل استقبالًا سيئًا ، وعلا الصراخ والهتاف، ولم يكن ثمة شك في أن التاسعة والنصف مساء ، وأن هذا الإنذار سيعقبه إنذار ثان وثالث ، وأعلنت الإذاعة أن رئيس الوزراء سيوجه كلمة إلى الشعب في الساعة الحادية عشرة والربع من صباح الثالث من أيلول ، أي بعد أن تنتهي مهلة الإنذار الثالث .

وتوجه الرئيس بكلمته معلنًا أن بريطانيا أصبحت في حالة حرب مع ألمانيا، وما أن أنهى كلمته، حتى سمعنا صوتًا حادًا غريبًا ينطلق، سرعان ما اعتدنا عليه فيما بعد، وهبطنا إلى الملجأ المخصص لنا على بعد مائة ياردة من البيت، ويتألف من قبو يلجأ إليه السكان، وكانت دلائل المرح بادية على الوجوه، وهي عادة إنكليزية يتمسك بها الإنكليز في أوقات الشدائد.

وبعد عشرة دقائق دوت الصفارة من جديد معلنة انتهاء الغارة، فصعدنا وتفرقنا إلى بيوتنا وتوجهنا إلى أعمالنا، وكان على أن أتوجه إلى مجلس العموم الذي اجتمع عند الظهر حسب العادة بعد أن تلونا صلاة استهلالية قصيرة، وفي أثناء الجلسة تلقيت رسالة من رئيس الوزراء يطلب مني موافاته إلى مكتبة بعد انتهاء الجلسة، وقال لي المستر تشمبرلين: إنه يعرض على وزارة البحرية، مع مقعد في وزارة الحرب، وسررت جدًا لهذا العرض، فقد كنت آمل أن يعهد إليَّ بمهمة معينة محددة، وقد عرضت على هذه المهمة بالإضافة إلى مركزي السابق في الوزارة.

وما إن توليت مركزي في وزارة الحربية، حتى بعثت بكلمة سريعة إلى الأميرالية، أخبرهم فيها عن توليتي للقيادة فورًا، وأبلغهم بأني سأصل إلى الأميرالية في تمام الساعة السادسة، وكان المجلس رقيقًا جدًا إذ بعث بهذا الخبر الطريف إلى جميع الوحدات يقول: «لقد عاد ونستون»، وهكذا رجعت مرة أخرى إلى نفس الغرفة التي غادرتها حزينًا منذ ربع قرن، عندما تنحيت عن وزارة البحرية بعد استقالة اللورد فيشر، وعندما جلست إلى مقعدي القديم، رأيت شنطة الخرائط القديمة التي أعددتها في سنة ١٩١١ م، وفيها خريطة بحر الشمال التي كنت أطلب من دائرة المخابرات أن تسجل لي عليها تحركات الأسطول الألماني كل يوم، كي أكون على اطلاع دائم على تحركاته، وهكذا بعد مضي ربع قرن، عاد نفس الخطر القاتل يهددنا مرة أخرى، وها نحن نضطر مرة أخرى إلى حمل السلاح لنصرة بلد صغير تعرض للغزو وأن نقاتل دفاعًا عن حياتنا وشرفنا ضد قوة وغضب شعب شجاع هو الشعب الألماني المحب للنظام، والبعيد عن الرحمة...

كان أول عمل قمت به في وزارة البحرية، تشكيل دائرة خاصة بي للأرقام، وعهدت

إلى الأستاذ ليندمان، صديقي والمؤتمن لدي منذ سنوات بها، وقد اضطررت على إبقائه بصورة مستديمة مع نخبة من الرجال الأخصائيين والاقتصاديين الذين لا يهتمون بشيء سوى بالحقائق والوقائع، وقد استطاعت هذه المجموعة من الرجال الأكفاء أن تقدم أصدق الجداول والرسوم، وتشرح لي سير الحرب يومًا بيوم.

ولم تكن ثمة هناك دائرة خاصة للإحصاء، فقد كانت الوزارات تقدم ما لديها حسب أرقامها وحساباتها، وكانت كل وزارة تتبع طريقة في الإحصاء تختلف عن طريقة زميلتها الأخرى، كما كانت الوزارات تتحدث بلغات واصطلاحات مختلفة، كثيرًا ما كانت تخلق البلبلة وإضاعة الوقت، أما أنا فكانت مصادري كلها أكيدة وثابتة في المعلومات التي كنت أقدمها.

التدمير السريع لبولندا:

يقول تشرشل:

في مجلس الوزراء كنا نراقب عمليات التدمير السريعة لدولة ضعيفة، حسب البرنامج الذي أعده هتلر، فقد قذف بألف وخمسمائة طائرة إلى بولندا كما أرسل جميع فرقة الآلية والمدرعة، التي اشتركت مع ست وخمسين فرقة أخرى من المشاة، ولم يكن البولنديون أكفاء لملاقاة هذا العدد الضخم، أو هذه المعدات الهائلة، كما لم يكونوا قد استعدوا ورسموا خطة حكيمة لحماية أنفسهم، فكل ما عملوه من استعداد عسكري أنهم وزعوا جيشهم على طول الحدود، بينما بقيت البلاد دون أية قوة احتياطية، وهكذا لم تصمد بولندا أمام الجيش الألماني إلا أسبوعين اثنين، وما لبث جيشها الذي يعد مليونين، أن فقد معظم محاربيه وأضحى لا قيمة له.

أما روسيا، فقد أرسلت بجيوشها في السابع عشر من شهر أيلول عبر حدود بولندا الشرقية الخالية من أي مقاومة، ثم سارت غربًا، وفي الثامن عشر منه تلاقت مع الجيوش الألمانية في بريست ليتوفسك، وزادت بذلك عملية التدمير المخيفة ودافعت وارسو بشجاعة فائقة واستبسل أبناؤها، وبعد عدة أيام من القصف الجوي المستمر، من المدفعية

الألمانية الثقيلة التي نقلت عبر الطرق الرئيسية الألمانية من الحدود الغربية، توقفت إذاعة وارسو عن البث، ودخل هتلر إلى المدينة الخربة، وانتهى كل شيء خلال شهر واحد وأضحى الشعب البولندي الذي يبلغ عدده خمسة وثلاثين مليونًا تحت رحمة الغزاة الذي أمعنوا فيه تقتيلاً.

لقد شاهدنا تكتيكًا جديدًا من التعاون الوثيق بين القوات الجوية المغيرة والقوات البرية الزاحفة، والقصف العنيف للمدن وطرق المواصلات الرئيسية كذلك رأينا تسليح الطابور الخامس وبث العيون، وهبوط المظليين بصورة واسعة النطاق، كما رأينا الاندفاع الهائل لقوات ضخمة من الآليات والمدرعات التي لا يمكن مقاومتها ... ولم تكن بولندا آخر من تحتم عليها أن تعاني مثل هذه المحنة.

❖ ❖ ❖

رسالة روزفلت:

يقول تشرشل :

ساد الجمود لفترة طويلة، العالم الغربي، بعد هجوم هتلر الساحق على بولندا، وعمت الدهشة لهذا التوقف الغريب، بعد أن أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على ألمانيا.. إلا أن التحرشات الألمانية، وعمليات الهجوم المباغت على السفن التجارية في البحر، قد أزعج حركة التجارة، وبدأت السفن التجارية، تغادر الموانئ يوميًا على شكل مجموعات وقوافل وتزودت كل واحدة منها بمدفع مضاد وببحارة مدربين، وراحت كانسات الألغام تجوب البحار بالإضافة إلى القطع البحرية الصغيرة المجهزة بقنابل الأعماق ضد الغواصات وأدت عملها على خير ما يرام، وشعرنا بأن هجوم الغواصات الألمانية على السفن التجارية قد انتهى، وغدت البحار تحت إشرافنا وسيطرتنا، وكان من المتوقع أن يزداد عدد الغواصات الألمانية بعد مدة وجيزة، لأن بناء الغواصات كان يجري في جميع الموانئ الألمانية بسرعة هائلة، وكان علينا أن ننتظر بدء حرب الغواصات خلال سنة أو سنة ونصف على الأكثر، إلا أننا كنا ننتظر إكمال بناء مدمراتنا وقطعنا المضادة للغواصات التي أصبحنا بفضلها نملك زمام الأمور لمواجهة الخطر بقوة.

وتلقيت رسالة من الرئيس روزفلت، وكنت قد قابلته مرة واحدة أثناء الحرب الأولى في حفلة عشاء، وقد أدهشتني حيويته وشبابه وحضور ذهنه، وقد كتب لي في رسالته الشخصية تلك: «لما كنا قد توصلنا إلى مراكز مشابهة أثناء الحرب العالمية الأولى، فإني أريد أن تعلم مدى سروري وغبطتي حين علمت برجوعك مرة أخرى إلى الأميرالية، وربما تكون مشاكلكم قد ازدادت تعقيدًا، إلا أن المشاكل الرئيسية لم تتغير، وفي هذه المناسبة أود أن أؤكد لك ولرئيس الوزراء عن استعدادي التام وترحيبي الكبير حين ترغبون الاتصال بي شخصيًا بواسطة رسائل مغلقة، وأن تنقلا لي كل ما تريدان نقله، وبوسعكما إرسال رسائلكما الشخصية ضمن حقيبتنا الدبلوماسية أو حقيبتكم».

وأجبت على رسالته في الحال واستخدمت توقيع «شخص من البحرية» وبدأنا بذلك سلسلة من المراسلات الطويلة الخالدة التي بلغ عددها ألف رسالة، والتي استمرت حتى وفاة الرئيس روزفلت.

❖ ❖ ❖

وقع في شهر تشرين الأول حادث أثر على الأميرالية بشدة، فقد جاء التقرير يقول أنه في ليل الرابع عشر من الشهر ذاته دخلت غواصة إلى ميناء سكابافلو، وأغرقت إحدى بوارجنا وهي في الميناء، بعد أن انطلقت الطوربيدات بشكل لا يصدق، وأصاب أحدهما قوس البارجة وأحدث فيه انفجارًا كبيرًا، ولم يصدق قبطان البارجة ما حدث لبارجته وهي راسية في الميناء مطمئنة، وظن أن الانفجار داخلي، ومرت عشرون دقيقة بين الطوربيد الأول والثاني الذي ألحقته بسيل كبير منها فأغرقت البارجة بعد أن تحطمت شر تحطيم، وفي عشرة دقائق ابتلعتها المياه، وكان معظم البحارة في مراكز عملهم، لكن السرعة التي تم فيها إغراق البارجة جعل من المستحيل عليهم النجاة من الغرق المحتم.

ولا ريب أن هذه المأساة، كانت عملاً بطوليًا رائعًا لقائد الغواصة الألمانية القبطان برامين، وقد اهتز الرأي العام البريطاني لهذا العمل الجريء، وكان في إمكان هذا الحادث أن يقضي على أي وزير من الوزراء لو اعتبر مسؤولاً عن الإجراءات الدفاعية التي اتخذت قبيل

الحرب، أما لكوني حديث عهد في الوزارة، فقد تخلصت من هذه الأزمة ومن اللوم ومن استغلال المعارضة لهذا الحادث.

وجاءنا الخطر المميت الثاني، فقد أغرقت اثنتا عشرة سفينة تجارية عند مدخل موانئنا خلال شهري أيلول وتشرين الأول، بالرغم من تنظيم تلك الموانئ من الألغام، وقد شكت الإميرالية على الفور، بإمكانية استخدام العدو للألغام الممغنطة، ولم تكن هذه الألغام جديدة علينا، فقد استخدمناها على نطاق ضيق في نهاية الحرب الأولى، لكن الأضرار الفظيعة التي يمكن أن تحدثها الألغام الأرضية، لم يكن فهمه شيئًا سهلاً، وكان من المتعذر علينا أن نجد طريقة لعلاج هذه المشكلة الجديدة قبل أن نرى نموذجًا من هذه الألغام، وقد تطورت الأعمال وزادت الخسائر، إذ بلغت خلال شهري أيلول وتشرين الأول نحوا من ستة وخمسين ألف طن، مما حدًا بهتلر إلى الإشارة إلى هذا «السلاح السري» الجديد الذي لا يمكن اتقاؤه، وفي ذات ليلة، بينما كنت في شارتويل جاءني الأميرال باوند، وقد بدأ عليه القلق والاضطراب وأخبرني أن ست بواخر جديدة قد أغرقت عند مداخل نهر التايمز، وكانت البواخر التي تدخل موانئنا وتخرج منها تجاوز المئات كل يوم، وكانت حياتنا كلها متوقفة على هذه الحركة المستمرة، ولا شك أن الخبراء لدى هتلر قد أبلغوه أن هذا النوع الرهيب من الهجوم سيقضي علينا ويدمرنا، ومن حسن الحظ أن هتلر كان ينتج هذا السلاح على نطاق ضيق محدود.

وفي الثاني والعشرين من شهر تشرين الآخر، وفي تمام الساعة التاسعة شوهدت طائرة ألمانية تسقط شيئًا ضخمًا بمظلة كبيرة إلى البحر قرب شوبارنيس، ويطوق الساحل هنا مساحات شاسعة من الطمي التي تظهر عند حدوث المد ومن الممكن فحص هذا الشيء الضخم حال حدوث الجزر، وهنا ساعدنا الحظ وواتتنا الفرصة المناسبة، وفي الحال استدعى إلى مركز الأميرالية ضابطان من أبرز الضباط المتخصصين بالأسلحة البرمائية وهما: أوفري ولويس، وتحدثت معهما ومع لورد البحر الأول، واستمعت إلى آرائهما، وفي تمام الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل توجها إلى ساوثيند لأداء مهمتها الخطرة في الكشف عن هذا الشيء الغامض، وتمكنا قبل فجر يوم الثالث والعشرين من العثور على

اللغم وفحصه .

وبدأت عملية دقيقة عندما وجد الضابطان لغما آخر قريبًا من اللغم الأول ، وراح أوفري يحاول تعطيل اللغم الأول ، بينما وقف زميله لويس ومعه البحار القدير فيرنيكومب يراقبه استعدادًا لكل مفاجأة ، وبعد ساعات رهيبة تم تعطيل اللغم الأول واستخلاصه ، ثم أرسل إلى بورتسماوث لإجراء الدراسات الدقيقة عليه ، ووصل في الحال أكثر من مئة ضابط ليشاهدوا الخطر الذي كان يهدد حياتنا .

وبدأنا منذ ذلك الحين سلسلة من التجارب العلمية ، بعد أن تمكنا من اكتشاف سر تركيب الألغام ، لاختراع وسائل الدفاع ضد هذه الألغام وتوصلنا إلى اختراع بعض الأسلاك الكهربائية وتطويق السفن بها ، إلا أن هذه الطريقة لم تؤد إلى النتيجة المطلوبة ، فقد استمرت حوادث الانفجارات لكن السفن المصابة لم تغرق في الحال ، بل كانت تستمر في مسيرها إلى أقرب مرفأ لإصلاحها من جديد .

وبعد مدة طويلة من التجارب توصلنا إلى اختراع وسائل أكثر فعالية لمكافحة الألغام ، وكانت النتيجة مدهشة ، وتمكنت أخيرًا كانسات الألغام من تطهير البحار من جميع الألغام المزروعة وبدأ الخطر يزول ، وقد كلفتنا هذه العملية الكثير من المجهود الحربي ، واضطررنا إلى تحويل الكثير من المعدات والأموال من ميادين أخرى إلى هذا الميدان، وقد جندنا لهذه العملية الهامة ما يقارب الستين ألف رجل ، إلا أن النتائج كانت مذهلة وتأثيرها المعنوي على رجالنا ورجال أسطولنا التجاري كانت رائعة ، ولم نكن حتى ذلك الوقت قد تعرضنا لأي اعتداء معين في الميدان الواسع للمعارك البحرية ، لكن هذا الاعتداء سرعان ما حدث ...

ففي يوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الآخر ، شاهد الطراد المسلح «راولبندي» بينما كان يقوم بعملية استكشاف بين أيسلندا وفاروس، شاهد بارجة عدوة تقترب منه بسرعة ، وظن قائد الطراد أن البارجة هي بارجة الجيب «دويتشلاند» فأبرق إلى الإدارة المركزية في الحال ، وكان قائد الطراد يعلم أنه من الجنون أن يحاول الدخول في معركة بحرية مع البارجة العدوة ، أما الطراد فلم يكن أكثر من سفينة تجارية تحولت إلى طراد مجهز بأربع مدافع قديمة من عيار إحدى عشرة بوصة لذلك أبرق إلى الإدارة المركزية وقرر المجازفة

والقتال حتى النهاية ، واقتربت البارجة بسرعة هائلة وراحت تطلق نيرانها من مسافة عشرة آلاف ياردة ، فرد الطراد عليها ، وبدأت النيران الهائلة تنصب عليها حتى تحولت إلى كتلة من النار ، وما لبثت أن غرقت بعد حلول الظلام مع قبطانها و ٢٧٠ رجلاً من رجالها الشجعان.

وبالطبع لم تكن البارجة العدوة هي البارجة «دويتشلاند» وإنما كان الطراد «شارنهورست» ومعها «غنيزناو» ، اللذان غادرا ألمانيا لمهاجمة قطع أسطولنا في الأطلنطي ، إلا أنهما بعد أن اصطدما براولبندي ، اضطرا إلى العودة في الحال بعد اكتشاف أمرهما ، وهكذا لم تذهب تضحيات رجال الطراد البواسل هباء ، فقد تمكن الطراد «نيوكاسل» من التقاط إشارة الطراد «راولبندي» وتوجه إلى ميدان المعركة وحاول مطاردة العدو ، إلا أن هذا تمكن من الإفلات منه .

وفي شهر آب وصلت الأنباء إلى القيادة العليا ، أن بارجة أو اثنتين قد غادرتنا ألمانيا متوجهة إلى الأطلنطي ، فقام أسطولنا في الحال بالبحث عنها، وعلمنا بعد مدة أن البارجة غراف شبي الألمانية قد أغرقت إحدى بواخرنا الضخمة كليفت في شهر أيلول ، وذلك قرب برنا مبوكو ، واضطربت الإمبرالية لهذا النبأ المفجع ، وضج الرأي العام ، وارتسمت علامات الاستفهام وراح الهمس يدور : «أين هو أسطولنا ؟ » ... فتألفت على الفور وحدات مسلحة لمطاردة البارجة وإغراقها ، وقد انضم إلى الوحدات عدد من حاملات الطائرات والبوارج والطرادات المجهزة بقوة كافية لتتمكن من القضاء على البارجة الألمانية .

وخلال الأشهر التالية كانت تسع وحدات بحرية مطاردة تجوب البحار بحثًا عن البارجتين الألمانيتين «دويتشلاند» و «غراف شبي» ، وكانت الثانية أكثر جرأة من الأولى ، فقد استمرت بنشاطها ، فكانت تضرب السفن الصغيرة ثم تختفي في الآفاق الشاسعة ، واستمر البحث عن «غراف شبي» إلى أن عثر عليه في الثاني عشر من كانون الأول ، قرب مصب نهر لابلاتا ، من قبل الطراد «أجاكس» ، وكان على ظهره الكومودور هاروود .

وتم في الحال حصار البارجة العدوة وانضم إلى المعركة الطرادان «أخيل» و«لايكسيتر»، وبدأت معركة حامية الوطيس واشتعلت البحار بالنيران اللاهبة لمدة ساعة وعشرين دقيقة ، وأصيبت طراداتنا بأضرار بالغة مما اضطرها إلى الانسحاب تحت ستر

الدخان الكثيفة بانتظار حلول الظلام كما أصيبت البارجة العدوة وشوهدت أبراجها تتساقط مشتعلة، وكانت فرصة العدو الذهبية حين شعر قائد الطراد بأن الذخيرة ستنضب فاضطر إلى الانسحاب تاركًا الفرصة للبارجة العدوة للانسحاب إلى ميناء مونيتفيديو فتبعها الطرادان البريطانيان دون أن يشتبكا معها في أي معركة، ودخلت البارجة إلى الميناء للتزود بالوقود ولإصلاحها من جديد، بينما وقف الطرادان بانتظارها وإغراقها في الحال عند خروجها من الميناء.

وأبرق قائد البارجة في السادس عشر من كانون الأول إلى القيادة يقول أن سبيل النجاة قد سد أمامه وطلب تزويده بالتعليمات اللازمة هل يقوم بإغراق الطراد أم يستسلم؟ وجاءته التعليمات من الأميرالية الألمانية: «حاول أن تبقى في المياه المحايدة ... ثم حاول أن تتجه إلى بيونس إيرس إن استطعت، ولا تستسلم في أورغواي ... وإذا قررت إغراق البارجة دمرها تدميرًا كاملاً».

وهكذا، بعد ظهر اليوم التالي، شوهدت بحارة البارجة تغادرها إلى إحدى السفن الألمانية الراسية في الميناء، وعند المساء توجهت البارجة ببطء إلى عرض البحر حيث كانت طراداتنا بانتظارها، وما أن اقتربت من عرض البحر حتى سمعنا انفجارًا مدويًا وشاهدنا النيران تشتعل في البارجة العدوة، فعلمنا أن «غراف شبي» قد أغرقت نفسها، كما علمنا أن قائدها لانغسروف قد أصيب بانهيار عصبي لخسارته الفادحة فانتحر بعد يومين.

الفصل الثاني عشر

الجبهة في فرنسا
والحملة البريطانية



يقول تشرشل :

اتجهت الحملة البريطانية حال نشوب الحرب إلى فرنسا ، وما إن انتصف شهر تشرين الأول حتى كانت أربع فرق بريطانية تتمركز على الجبهة الفرنسية ـ البلجيكية ، وانضمت إليها ست فرق أخرى في شهر آذار، وقد وجدت القوات البريطانية أن الجبهة مستعدة تمام الاستعداد ، فقد حفرت الخنادق لمقاومة الدبابات ، وأنشئت مراكز من الأسمنت المسلح ، ركزت عليها مدافع ورشاشات مضادة للدبابات ، بالإضافة إلى الأسلاك الشائكة الممتدة على طول الجبهة ، وكانت مهمة جنودنا تحسين الجبهة الدفاعية التي أعدها الفرنسيون وتنظيم شكل من أشكال خط سيغفريد ، وتقدم العمل بصورة سريعة بالرغم من الجليد ، وعندما أخذت الصور الجوية تبين أن الألمان بدورهم بدؤوا يوسعون خط سيغفريد من الشمال عبر الموزيل ، وقد كانت المواد الأولية في متناول أيديهم مما سهلت لهم مهمة العمل ، إلا أننا كنا نسير بسرعة تضاهي سرعتهم في التنفيذ ، وتم تشييد المنشآت اللازمة لقاعدة ضخمة ، وأنهينا تعبيد الطرقات وتحسينها ومدت سكة حديد جديدة يبلغ طولها مئة ميل ، ثم أتممنا إنشاء نحو من خمسين مطارًا جديدًا وقاعدة جوية صغيرة ، كما تزودنا بكميات هائلة من العتاد والذخيرة توزعت في المستودعات على طول طرق مواصلاتنا ، وقد تزودنا بالمؤن التي كانت تكفي لمدة عشرة أيام بين السين والسوم ، بالإضافة إلى كميات أخرى تكفي لسبعة أيام شمالي السوم ، وقد ساعدتنا هذه المؤن وأنقذتنا بعد أن تمكن الألمان من اختراق الجبهة .

كانت روح الجيش الفرنسي ، تختلف عن السابق أثناء الحرب الأولى ، فقد ولت تلك الروح الثائرة المشبعة بالانتقام بعد أن حققت نصرها الأول وكان معظم القادة الذين تولوا زمام الأمور، قد قضوا نحبهم منذ وقت طويل ، وكان الشعب الفرنسي لا يزال مشدوها من هول المذبحة التي ذهب ضحيتها نحو مليون ونصف المليون رجل ، وكانت فكرة الهجوم لا تزال مرتبطة بمخيلتهم وبالفشل الذي أصابهم أثناء هجومهم عام ١٩١٤ وعام ١٩١٧ وبالآلام والخسائر التي تكبدوها أثناء الهجوم ، وسيطر عليهم الشعور بأن الأسلحة والاختراعات الحديثة قد زادت من قوة الدفاع وأصبحت تشكل خطرًا أكبر على الهجوم والمهاجمين ، ولم يكن هناك من يمكنه أن يتفهم الحقيقة الجديدة القائلة بأن السيارات المدرعة قادرة على الصمود أمام نيران المدافع ، بالإضافة إلى سرعتها الفائقة التي تمكنها من قطع مائة

ميل في اليوم الواحد، ولم يكترث رجال الجيش وقادته لذلك الكتاب القيم حول هذه المواضيع، الذي كتبه شخص يدعي القومندان ديغول ... فقد كانت أفكار المارشال العجوز بيتان مسيطرة على عقول القادة ومغلقة الطريق أمام الأفكار الجديدة الجريئة .

وقد سمعنا بعد انتهاء الحرب النقد الكثير حول سياسة خط ماجينو، ولا شك أن فكرة الدفاع لدى الفرنسيين كانت نتيجة هذه السياسة، إلا أن التدابير الاحترازية الصحيحة للدفاع عن حدود شاسعة تمتد إلى مئات الأميال، تقضي بإقامة أكبر عدد ممكن من الحواجز والعقبات والحصون، فهي توفر من استخدام القوات المحاربة، ولو أحسن استعمال خط ماجينو لكان باستطاعته أن يقدم خدمة كبيرة لفرنسا.

❖ ❖ ❖

النكتة البريطانية المعروفة:

يقول تشرشل :

هناك نكتة معروفة في بريطانيا تقول: إن وزارة الحربية اليوم تستعد للحرب الماضية، وكانت هذه النكتة مطابقة لواقع حال الجيش الفرنسي آنذاك، وكنت من جملة المؤمنين بنظرية الإجراءات الدفاعية التي يجب تنفيذها بدقة، وكنت بالإضافة إلى ذلك عارفًا بمدى تخوف الفرنسيين من الهجوم نتيجة المذابح المخيفة في الحرب الأولى، كما أن الوقت الذي أضعناه قد فسح المجال أمام الألمان لبناء خط سيغفريد، وكانت المجازفة ضخمة لو فكرنا بقذف البقية الباقية من الشبيبة الفرنسية لاقتحام هذا الجدار الهائل من الأسمنت المسلح، وكانت نظرتي في الأشهر الأولى للحرب لا تختلف كثيرًا عن وجهه النظر السائدة المتعلقة بالدفاع، وكنت أعتقد أن الأجهزة المضادة للدبابات ومدافع الميدان قادرة على صد أي هجوم مهما كان، إلا أن هذه النظرية كانت خاطئة، فقد قدر لنا أن نشهد بعد ثمانية أشهر هجومًا هائلاً شنته القوات ألمانية تتقدمها السيارات المصفحة التي لم تؤثر فيها قوة المدافع لقساوة فولاذها، فتمكنت من تحطيم جميع ما أعددناه من مقاومة دفاعية، وجعلت من المدفعية سلاحًا لا قيمة له، لأول مرة في تاريخ الحروب منذ اختراع البارود .

لكن الجيش الفرنسي لم يكن في وسعه شن أي هجوم قبل نهاية شهر أيلول، إلا أن بولندا في ذلك الوقت كانت قد استسلمت، ولم يحل شهر تشرين الأول حتى تمكن الألمان

من حشد سبعين فرقة من الجبهة الغربية متفوقين بذلك على الحشود الفرنسية، ولو فكر الفرنسيون بشن هجوم من الجبهة الشرقية لتركوا الجبهة الشمالية خالية، وهي الجبهة الأكثر أهمية.

أما السؤال الذي طالما أثير: «لماذا بقيتم جامدين إلى أن دمرت بولندا؟» فالجواب عليه هو أن المعركة قد تقررت نتيجتها منذ سنوات، فالفرصة كانت مواتية ومضمونة عام ١٩٣٨ يوم كانت تشيكوسلوفاكيا موجودة، وفي عام ١٩٣٣ كان في وسع عصبة الأمم أن تستصدر أمرًا ترغم به ألمانيا على الرضوخ دون حاجة إلى إهراق نقطة دم واحدة، ولا يجوز أن نلقي باللوم على الجنرال غاملان لأنه لم يقم بهذه المجازفة التي ازداد خطرها منذ الأيام الأولى للأزمات التي تخاذلت أمامها فرنسا وبريطانيا.

والآن ما هي احتمالات شن هجوم ألماني عام على فرنسا؟ كانت هناك ثلاثة احتمالات هي: أن تقوم ألمانيا بشن هجومها عبر سويسرًا للالتفاف حول الجبهة الجنوبية لخط ماجينو، إلا أن العقبات الطبيعية والإستراتيجية كانت تحول دون قيام هذا الهجوم، أما الاحتمال الثاني فهو في إمكانية غزو فرنسا من الحدود المشتركة بين البلدين، ولم يكن هذا الاحتمال ممكنا، إذ لم نكن نعتقد أن الجيش الألماني يملك المعدات اللازمة لتحطيم المنشآت المقامة واختراق خط ماجينو، يبقى الاحتمال الثالث وهو الهجوم عن طريق بلجيكا وهولندا، فبإمكان الجيش الألماني أن يتجنب اختراق خط ماجينو ويوفر الخسائر المتوقعة من جراء الهجوم على التحصينات المنيعة، ولم يكن في استطاعتنا صد الهجوم على بلجيكا، وإن كان ذلك في مصلحتنا، وكان هناك خطان يمكننا أن نتقدم نحوهما إذا ما دعتنا بلجيكا لاحتلالها، فالخط الأول هو ما يدعي خط «الشلدت» وهو قريب من الحدود الفرنسية، ويمكن الوصول إليه بسهولة، وبإمكاننا الاحتفاظ به للتضليل، وهذا في أسوأ الاحتمالات، كما يمكننا إذا ساعدتنا الظروف أن نقوم بإنشائه وتدعيمه، أما الخط الثاني فهو الخط الذي يسير مع نهر الوز عبر جيفيت ودينانت ونامور ولوفين إلى انتويرب، ولو استطعنا أن نحتفظ بهذا الخط مهما كلفنا الأمر، فإن الجناح الأيمن للجيش الألماني سيتوقف، وسيمكننا معرفة قوة الجيش الألماني، فإذا كان ضعيفًا، عندئذ يمكننا ابتداء هجوم كاسح ندخل به إلى ألمانيا ونشرف على منطقة الروهر الهامة بالنسبة للإنتاج الحربي الألماني.

ويقول رؤساء الأركان: «إن الخطة الفرنسية المسماة خطة «د» تقضي بأن يسرع الحلفاء

إلى احتلال خط جيفيت ـ نامور ، إذا تمكن البلجيكيون من الاحتفاظ بحوض الموز ، كما أنه يترتب على القوات البريطانية أن تعمل في الجهة الشمالية ، ونحن نجد أن هذه الخطة غير معقولة ، إلا إذا وضعنا خططها مع البلجيكيين أنفسهم لاحتلال هذا الخط ، قبل مدة من الزحف الألماني ، وبعد أن يتبدل موقف بلجيكا الحالي ، وترسم الخطط اللازمة بوقت قريب لاحتلال خط جيفيت ـ نامور والمسمى في بعض الأحيان خط المور ـ انتويرب ، ونحن نجد أنه يترتب علينا أن نواجه الزحف الألماني في أماكن نعدها في وقت مبكر على الحدود الفرنسية بالذات » .

وفي اجتماع مجلس الحلفاء الأعلى في باريس ، اتخذ القرار التالي : «نظرًا للأهمية الكبرى المترتبة على وجوب إبقاء الألمان في أقصى مكان ممكن إلى الشرق ، فمن الضروري جدًا بذل كل محاولة للمحافظة على خط الموز ـ أنتويرب ، في حال تعرضت بلجيكا للهجوم الألماني » .

وهكذا أمضت الحملة البريطانية فصلي الربيع والشتاء في تجهيز مواقعها وتحصينها ، واستعدادها للحرب الدفاعية أو الهجومية ، وقد كانت استعدادات الجيش رائعة ومنظمة وأكثر قوة في نهاية فصل الشتاء ، إلا أننا كنا لا نزال نشكو نقصًا كبيرًا في الدبابات ، ولم يكن لدينا فرقة مدرعة واحدة ضمن الحملة البريطانية في فرنسا ، فقد أهملنا تطوير هذا النوع من السلاح الفعال في فترة ما بعد الحرب الأولى ، ولم يكن عندنا سوى كتيبة تضم سبع عشرة دبابة خفيفة ومائة دبابة «مشاة» معظمها مجهزة بالمدافع الرشاشة فقط ، لقد أهملنا هذا السلاح الهام الذي قدر له أن يسيطر على ميادين القتال ...

أما الجيش الفرنسي فلم يكن بحالة حسنة ، ففرنسا لم تواجه الحرب عام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ بروح معنوية مرتفعة أو بشيء من الثقة والإيمان ، فالسياسة الداخلية المضطربة قد خلقت نوعًا من الانقسام والسخط ، وكانت الدعايات السامة التي يبثها غوبلز تلاقي آذانًا صاغية تحفظها وترددها، وكانت تأثيرات الانقسام والشيوعية والفاشية تنعكس على الجيش وتتغلغل في صفوفه خاصة في فترة الانتظار الطويلة قبل الهجوم ، ولم يكن هناك من أدنى شك في أن الانتظار الطويل قد أخر في كفاءة الجيش الفرنسي فلو قاتل في الخريف مثلاً لكان قتاله رائعًا وأروع منه في الربيع... وسرعان ما وجد هذا الجيش نفسه عرضة لهجوم ألماني كاسح صعقه بعنف.

وختامًا لهذا الفصل أذكر هذه الحادثة المهمة التي حدثت في اليوم العاشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٤٠ م والتي أكدت المخاوف بالنسبة إلى الجبهة الغربية ، فقد قضت الظروف بأن تهبط طائرة ألمانية كانت تقل ضابطًا ألمانيا ، في بلجيكا ، وعندما اعتقلته القوات البلجيكية حاول الضابط أن يتلف بعض الوثائق التي كان يحملها ، إلا أنهم تمكنوا من مصادرتها قبل أن يتمكن من إتلافها ، وقد تضمنت تلك الوثائق الخطة الكاملة لغزو بلجيكا وهولندا وفرنسا ، هذه الخطة التي وضعها هتلر بنفسه.

وبعد قليل أطلق سراح الضابط فعاد إلى بلاده وأخبر قادته بما جرى له وعندما نقلت إلى التفاصيل ذهلت وأنا غير مصدق كيف لا يضع البلجيكيون خطة يشركوننا فيها في الحال ، لكنهم لم يفعلوا شيئًا من هذا وقد طلبنا منهم أن يتعاونوا معنا ، لكن الملك وقادة الجيش آثروا التروي والانتظار عله يأتيهم المستقبل بأشياء جديدة تقلب الأوضاع مرة أخرى ، أما من الناحية الثانية ، فقد استدعى هتلر غورنغ وأمطره بسيل من الشتائم ثم اضطر إلى تغيير خطة الغزو من أساسها ، وقد تأكد لنا الآن من الوثائق المصادرة أن هذه الخطة كانت صحيحة .

لقد آثر ملك بلجيكا أن يبقى على الحياد ، آملاً أن يتمكن من الصمود أمام الجيش الألماني ، ثم يطلب الجيوش البريطانية والفرنسية لتسارع إلى نجدته ... لقد كان العصر عصر التردد والتخاذل، ولم نكن لنلومه على موقفه هذا ...

❖ ❖ ❖

الفصل الثالث عشر

إسكندنافيا وفنلندا

شبه جزيرة البلطيق وأهميتها العسكرية



يقول تشرشل :

إن لشبه الجزيرة الممتدة من داخل البلطيق إلى الدائرة القطبية أهمية عسكرية كبيرة ، وتمتد سلسلة الجبال إلى المحيط ويفصل بينها ممر من المياه الإقليمية تتمكن ألمانيا بواسطته من المرور والاتصال بالبحار الخارجية ، مما يجعل حصارنا البحري لا قيمة له ، وكانت ألمانيا تعتمد بصورة رئيسية على استيراد مسحوق الحديد من السويد الذي يصلها في أيام الصيف من ميناء لوليا السويدي عند رأس خليج بوثنيا ، أما في الشتاء وعندما تتجمد مياه الخليج تصلها من النرويج ، لذلك فإن احترامنا لحياد هذه الخلجان يعني سماحنا لهذا الاستيراد والتصدير الذي تستغله ألمانيا تحت ستار الحياد متحدية بذلك تفوقنا البحري ، وقد شعرت الأميرالية بهذا الخطر ، وأخطرت بدوري وزارة الحرب عن هذا الموضوع .

وعندما أثرت هذا الموضوع الهام اصطدمنا بعقبة احترامنا التام لحياد الدول الصغيرة ! هذا المبدأ الذي كنا نتعلق به بالرغم من استغلال ألمانيا لهذا الاحترام ، ولبث الموضوع بين أخذ ورد إلى أن أخذت الوزارة باقتراحي بعد مدة طويلة حيث بدا أن الوقت قد فات على اتخاذ مثل هذا القرار.

وفي نفس الوقت كان الألمان يفكرون بنفس الاتجاه الذي كنت أفكر به، فقد قدم الأميرال ريدر ، رئيس أركان البحرية الألمانية ، اقتراحًا إلى هتلر باسم «كسب قواعد جديدة في النرويج» وقد وضح في اقتراحه مقدار الضرر الذي سيلحق بألمانيا بحال تم احتلال البريطانيين للنرويج وتحكمهم في مداخل البلطيق ، وقد أصدر هتلر بناء على اقتراحات ريدر أوامره إلى القيادة العليا بإعداد الخطة لعملية غزو النرويج .

وفي هذه الأثناء تحولت شبه جزيرة إسكندنافيا إلى ميدان للصراع أثار ضجة كبيرة في بريطانيا وفرنسا ، وأثر على محادثاتنا مع النرويج بشدة ، فقد أدت مواثيق المساعدات المتبادلة المعقودة بين روسيا وأستونيا ولاتفيا وليتوانيا إلى احتلال هذه الدول وتدميرها ـ وبذلك أصبح الجيش الأحمر يقطع الطريق للدخول إلى روسيا من ناحية الغرب ، وبقيت الطريق عبر فنلندا .

ومن ناحية فنلندا فقد وقع أحد الساسة الفنلنديين مع روسيا معاهدة صلح في عام ١٩٢١، كان من أهم مطالب الروس العديدة رد الحدود الفنلندية عند برزخ كاريليا إلى الوراء مسافة كافية لتصبح مدينة ليننغراد في مأمن من خط المدفعية المعادية، كما تسلمت روسيا عددًا من الجزر الفنلندية، أما الاختلاف الذي أدى إلى محاولة غزو فنلندا فكان حين طلبت روسيا استئجار الموانئ الوحيدة التي لا تتجمد في فصل الشتاء كي تجعل منها قواعد بحرية وجوية، وكان الرضوخ لهذا الطلب يعني تهديد سلامة فنلندا بصورة أكيدة، وقد رفضت الحكومة الفنلندية هذا الطلب وانقطعت المفاوضات، وأعلن مولوتوف بناء على ذلك إلغاء ميثاق عدم الاعتداء المعقود مع فنلندا، وبعد يومين بدأ الهجوم الروسي على فنلندا على ثماني جبهات وقام الطيران السوفييتي بضرب العاصمة هلسنكي من الجو.

وقد استبسل الفنلنديون في الدفاع عن بلادهم، فقد مضت الأسابيع الأولى للهجوم السوفييتي دون أن يتمكنوا من تحقيق أي نصر، وبرهن الجيش الفنلندي عن بطولة نادرة في صد الهجوم الكبير، وقوبلت الدبابات السوفييتية الضخمة بسلاح جديد من القنابل اليدوية التي سميت بكوكتيل مولوتوف، وقد استمرت الحملة حوالي الشهر إلا أنها باءت بالفشل الذريع، وتأكد للحكومة السوفييتية بأنها تقابل عدوًا يختلف بقوته عما كانت تتوقعه أن يكون، لذلك قررت القيام بهجوم كاسح كبير مما يحتاج إلى إعادة تنظيم، فخففت من حدة القتال على طول الجبهة الفنلندية بعد أن تمكن الفنلنديون من صد عدوهم القوي.

وساد شعور من السخط لدى الجميع ضد الحكومة السوفييتية، بالإضافة إلى الشعور بالاحتقار لعجز القوات الروسية عن غزو فنلندا الباسلة، وبالعطف والحماس على فنلندا بالذات، وبالرغم من أننا نخوض حربًا كبرى فقد كانت لدينا رغبة شديدة في مد يد العون إلى الفنلنديين وذلك بتزويدهم بالطائرات والآليات الحربية وإرسال المتطوعين من بريطانيا والولايات المتحدة وحتى فرنسا، ولم يكن هناك إلا ممر واحد لإرسال المتطوعين والمعدات الحربية، وهو عبر ميناء نارفيك النرويجي الذي اكتسب أهمية إستراتيجية كبرى، وكان استعمال هذا الميناء كقاعدة للتموين يؤثر على حياد النرويج والسويد، وكان هُمّ هاتين الدولتين البقاءَ خارج نطاق الحرب، فقد كانتا تخشيان كلا من ألمانيا وروسيا، وطلبت

الحكومة البريطانية من النرويج والسويد السماح لها بنقل الجنود والمؤن إلى فنلندا .

* * *

كانت إحدى القطع البحرية الألمانية المسماة «إتلمارك» تشغل تفكيري، وهي القطعة البحرية التي كانت تساعد غراف شبي بالإضافة إلى كونها سجنًا عائمًا لبحارة البواخر التي كانت غراف شبي تغرقها، وقد وصلتنا ـ الأخبار أن هناك ثلاثمائة بحار بريطاني على ظهر (إتلمارك) التي تمكنت من الاختفاء لمدة شهرين في جنوب الأطلنطي وعندما اطمأن ربانها إلى أنه أصبح في مأمن من مطاردتنا، حاول العودة بباخرته إلى ألمانيا ، وفي الرابع عشر من شهر شباط شاهدت إحدى طائراتنا الباخرة المذكورة في المياه الإقليمية للنرويج .

وفي الحال تحركت المدمرات البريطانية بقيادة القبطان فيليب فيان على متن مدمرته «قوزاق» وقطعت طريق الباخرة الألمانية، إلا أنها لم تباشر بضربها فالتجأت الباخرة إلى خليج جوسينغ، وأعطيت الأوامر بتفتيش الباخرة، وشوهد في نفس الوقت زورقان نرويجيان مسلحان أبلغاهما أن الباخرة الألمانية غير مسلحة، وقد سمحا لها بالمرور عبر المياه الإقليمية، فاضطرت المدمرتان البريطانيتان إلى الانسحاب على الفور .

وما أن وصلت هذه الأخبار إلى الأميرالية، حتى عادت وأصدرت إلى مدمراتنا الأوامر بدخول الخليج، فدخل القبطان «فيان» بمدمرته الخليج وصعد إلى أحد الزورقين النرويجيين وطلب من قائده أن تساق «التمارك» إلى ميناء بيرغن للكشف عليها حسب القانون الدولي، فكرر القائد النرويجي أن الباخرة غير مسلحة، وقد فتشوها مرتين ولم يجدوا على متنها أي أسير بريطاني، عند ذلك طلب القبطان «فيان» من القائد النرويجي مرافقته إلى ظهر الباخرة الألمانية فرفض هذا طلبه .

واغتنمت الباخرة الألمانية هذه الفرصة لتتحرك وتحاول الاصطدام بالمدمرة «قوزاق» إلا أنها فشلت، وفي الحال صعد إليها فريق من البحارة ونشب قتال عنيف بالسلاح الأبيض بين رجال الباخرتين أدى إلى مقتل أربعة من الألمان وجرح خمسة واستسلم الباقون، وبدأ البحث في الحال عن الأسرى البريطانيين، وبعد تفتيش دقيق عثر عليهم في المستودعات

وفي خزان بترول فارغ ، وقد كممت أفواههم كي لا يتمكنوا من الاستغاثة وطلب النجدة من رفاقهم ، كما عثر على مدفعين وأربعة مدافع رشاشة ، وعلمنا فيما بعد أن النرويجيين لم يقوموا بتفتيشها بالرغم من صعودهم على متنها .

وكان هذا الحادث قد ساعد الألمان على اتخاذ قرارهم بوجوب غزو النرويج الذي أعد هتلر خطة غزوها في الرابع عشر من كانون الأول ، وبعد أن اجتمع الفوهرر مع الجنرال فون فولكنهورست تقرر بدء العملية في التاسع من شهر نيسان .

وفي هذه الأثناء كان الروس قد ضاعفوا من مجهودهم الحربي ، وقاموا بهجومهم الكبير على فنلندا في اليوم الأول من شهر شباط ، والذي استمر حوالي اثنين وأربعين يومًا ، يصحبه قصف جوي عنيف ، وتمكن الجنود الروس من اختراق خط الدفاع الفنلندي وتحطم خط مانرهايم وتركز الهجوم الروسي على خليج فيبوري .

وفي أول شهر آذار أرسلت الحكومة الفرنسية خمسين ألف متطوع ومائة قاذفة قنابل إلى فنلندا، كما قامت الحكومة البريطانية أيضًا بإرسال خمسين قاذفة قنابل ، إلا أن الفنلنديين قد وصلوا إلى حد من الأعياء والجهد وكادت معداتهم الحربية أن تنفد فسافر المستر باسيكيفي مرة ثانية إلى موسكو لإجراء المباحثات في شروط الهدنة ، ووافقت الحكومة الفنلندية على شروط الروس في الحال.

❖ ❖ ❖

الفصل الرابع عشر

الهجوم على النرويج



يقول تشرشل :

في ليلة الجمعة الخامس من شهر نيسان دعا وزير ألمانيا المفوض في أوسلو عددًا من الوجهاء والوزراء إلى حفلة عرض فيها شريطًا سينمائيًا عن عملية احتلال بولندا التي وضح فيها المناظر المرعبة التي صورت أثناء قصف مدينة وارسو، وقد علق الوزير على الصور بقوله: «إن البولنديين يجب أن يشكروا أصدقاءهم الإنكليز والفرنسيين على ما حل بهم من كوارث»!!

وتفرق الضيوف وعلى وجوههم أمارات الرعب والقلق، خاصة مما يقوم به الإنكليز من نشاط كبير في النرويج ومن زرع للألغام في مداخل الخليج الغربي المؤدي إلى ميناء نارفيك، واحتجت الحكومة النرويجية على هذه الإجراءات الخطيرة، إلا أن الأميرالية البريطانية أعلمت المفوضية النرويجية في لندن أن البوارج الألمانية بدأت تتحرك متجهة نحو الساحل النرويجي، بينما كانت الجحافل الألمانية تجتاح الدانمارك، لكن الأخبار لم تصل إلى النرويج إلا بعد أن تعرضت هي للهجوم الألماني.

كان الهجوم الألماني الصاعق يتميز بالمفاجأة والشدة والدقة، في مداهمة بلد أعزل وشعب بريء كشعب النرويج، فقد استخدمت ألمانيا سبع فرق عسكرية، وثمانمائة طائرة وثلاثمائة طائرة نقل، بالإضافة إلى الهجوم البحري الكبير، ولم تمض ثمان وأربعين ساعة حتى سقطت جميع الموانئ النرويجية في أيدي الألمان، وتغلغلت الدعايات الألمانية بسرعة البرق بين صفوف الشعب، ووقف الماجور كويزلنغ، ليعلن نفسه حاكمًا على المناطق التي سقطت في أيدي الألمان.

وبدأت في الحال تعبئة الجيش الذي راح يقاتل بضراوة الجيوش الغازية الزاحفة شمالاً من أوسلو، والتجأ الوطنيون إلى الجبال والغابات، وانسحب الملك وحكومته إلى هامار التي تبعد مئة كيلو متر عن أوسلو، وطاردتهم المدرعات الألمانية وقصفتهم الطائرات من الجو إلا أنهم تمكنوا من الوصول، وأذاعوا بيانات تدعو إلى المقاومة والثورة، ولا شك أن السرعة التي تمكن بها هتلر، بعد ذلك، من السيطرة على البلاد تعتبر عملا وحشيًا من أعمال الحرب والسياسة ومثلاً حيًا يدل على مدى إتقان ألمانيا لفظاعة الحرب ووحشيتها.

❖ ❖ ❖

وبهجوم هتلر على النرويج انتهى وميض الحرب، وتلاه أعظم انفجار عسكري عرفته البشرية، فمنذ أن تحالف ستالين مع هتلر، تلقى الشيوعيون الفرنسيون الإشارات من موسكو بوجوب إعلان استنكارهم للحرب ونعتها بجريمة استعمارية رأسمالية ضد الديمقراطية! وحاول الشيوعيون وسعهم في تحطيم معنويات الجيش، وعرقلة أعمال المصانع، وتمكنت الدعايات الهدامة من تحطيم الروح المعنوية لدى الجيش والشعب،

ولم يحدث شيء من هذا في بريطانيا، فقد كانت توجيهات موسكو للشيوعية المحلية في بريطانيا ضعيفة كل الضعف، وقد أدت الحملة على النرويج إلى اضطرابات عنيفة نشبت في بريطانيا، واتقدت العواطف الثائرة، وطالبت المعارضة بإجراء مناقشة في المجلس عن الوضع الحربي، فتقرر إجراء هذه المناقشة في السابع من شهر أيار، وحاول المستر تشمبرلين تهدئة العواطف المعادية، لكنه قوطع بالاستهزاء، ورد المستر تشمبرلين على المستر هربرت موريسون بقوله: إني لم أكن أتمتع بصلاحيات كبيرة أثناء حملة النرويج، وراح الخطباء يهاجمون الحكومة بعنف مشوب بالمرارة، وقام المستر أيمري الذي قوبل بالهتافات العالية ليقول ما سبق وقاله كرومويل: «لقد أمضيتم وقتًا كثيرًا هنا لا ينسجم مع النفع الذي كنتم تفعلونه، وأني أقول لكم الآن: «اخرجوا وخلصونا منكم، بحق الله، اذهبوا ...» .

وفي اليوم التالي أعلن المستر هربرت موريسون، باسم المعارضة عن عزمه طلب الإسراع على الثقة، وقام رئيس الوزراء ليعلن قبوله التحدي، وقام المستر لويد جورج ليلقي خطابًا قصيرًا وجه فيه ضربة قاضية على رأس الحكومة؛ إلا أنه أبرأ ذمتي بقوله: «لا أظن أن وزير البحرية يعتبر مسؤولاً عن ما حدث في النرويج» وقد قاطعته على الفور بقولي: «إني أتحمل كل المسؤولية عن كل ما قامت به الأميرالية متحملاً العبء كله» فحذرني المستر لويد من مغبة جعل نفسي ملجأ يقي الحكومة من الشظايا، ثم التفت إلى المستر تشمبرلين وقال: «إن القضية أضخم بكثير مما نتصور، لقد طلبت منا في السابق أن نضحي»، وأنا أقول: «إن الشعب بأسره على أتم الاستعداد للتضحية إذا رأى على رأسه القيادة الصالحة، وإذا رأى هذا الشعب أن الذين يتولون زمام الأمور يقومون بدورهم بأقصى ما يمكن من جهد»، وأنا أقول بكل احترام: «إن من واجب رئيس الحكومة أن يقوم بتضحية كبيرة مقدمًا بذلك مثلاً أعلى للشعب، إذ ليس ثمة من شيء يكون أكثر إسهامًا من النصر في هذه الحرب من تضحيته بمركزه» .

وعندما طرحت الحكومة الثقة فازت بها بأغلبية واحد وثمانين صوتًا ، بالرغم من امتناع ثلاثين نائبًا محافظًا على التصويت ، إلا أن النتيجة لم تقنع المستر تشمبرلين ولم تطب نفسه بعد الألم الذي أصابه .

❖ ❖ ❖

جحافل هتلر تجتاح هولندا وبلجيكا:

يقول تشرشل :

في اليوم العاشر من شهر أيار وردت الأخبار الهائلة بأن جحافل هتلر قد اجتاحت هولندا وبلجيكا ، واجتازت حدودهما في عدة مواقع ، واتجهت حركة الجيش نحو الأراضي المنخفضة وفرنسا ...

وفي مكتبي بالأميرالية وجدت بعض الوزراء الهولنديين الذين وصلوا من أمستردام ، بعد أن هوجمت بلادهم دون أي سبب ، وطلبوا منا أن نفعل شيئًا، ولحسن الحظ أن عمارة بحرية كانت قريبة فأصدرنا إليها الأمر بالتوجه فورًا وضرب العدو وإنزال أكبر عدد ممكن من الخسائر بقواته مع علمنا أن الأمر قد انتهى، وأصبحت البلاد في أيدي الألمان ، وكانت الملكة لا تزال في البلاد، إلا أنها لن تتمكن من البقاء طويلاً .

وفي أثناء هذه المعركة الجديدة وصلتني رسالة تستدعيني للمثول أمام الملك في تمام الساعة السادسة ، وما أن وصلت إلى القصر حتى سمح لي بالدخول على الفور ، واستقبلني جلالته ببشاشة ولطف كثيرين وأمرني بالجلوس ، ونظر إلي وقال: « أعتقد أنك تعلم لماذا استدعيتك؟» وأردت أن أجاريه في طريقته فأجبت: «لا أعتقد أني أعلم يا سيدي » فضحك جلالته وقال : «أريد أن أطلب منك تأليف الوزارة » وأجبته بأني سأمتثل لأمره في الحال .

ولم يشترط جلالته على نوع الحكومة وقوميتها ، وشعرت أن تكليفي ليس مشروطًا بتأليف حكومة قومية ، إلا أني كنت أفضل في هذه الظروف بالذات قيام حكومة قومية ، ولكن إذا تعذر على التفاهم مع المعارضة ، فأني عند ذلك لن أكون ممنوعًا من الناحية الدستورية من تأليف حكومة قوية تضم جميع القادرين على الوقوف إلى جانب بلادهم في هذه الظروف العصيبة شرط أن تكسب تأييد الأغلبية في المجلس، وأخبرت جلالته أني عازم على تقديم أسماء خمسة أو ستة وزراء ممن ستتألف منهم الوزارة ، قبل منتصف الليل .

ودعوت المستر تشمبرلين هاتفيًا وطلبت منه تولي رئاسة المجلس، فوافق وجرى الاتفاق على إذاعة بيان استقالته في الساعة التاسعة، وقد قام بهذه المهمة بطريقة رائعة كريمة ودعا إلى تأييد خلفه والالتفاف حوله، وبعد ذلك تمكنت من تأليف الوزارة وأرسلت لجلالته قائمة بخمسة أسماء، كما وعدته أن أفعل، وقررت أن أتولى بنفسي مهام وزارة الدفاع، وهكذا تم لي تسلم القيادة في الدولة، وبقيت محتفظًا بها طيلة خمس سنوات وثلاثة أشهر، بكل إخلاص وقوة، إلى أن انتهت الحرب واستسلم أعداؤنا دون قيد أو شرط.

وهكذا كانت نهاية الجزء الأول من مذكرات تشرشل يليه الجزء الثاني.

❖❖❖

الجزء الثاني من مذكرات تشرشل



الفصل الأول

معركة فرنسا

وهجوم ١٢٦ فرقة ألمانية عليها



منذ نشوب الحرب في أيلول عام ١٩٣٩ ، خصص الألمان قوتهم الرئيسية لغزو بولندا ، وكانت تقف على الحدود الغربية الممتدة من أكس - ليشابل إلى حدود سويسرا ، اثنتان وأربعون فرقة ألمانية ، وكانت هذه الحشود خالية من أية فرقة مدرعة ، وكان بوسع فرنسا أن تواجه هذه القوة بنحو من سبعين فرقة ، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك وقرروا أنه من المعتذر الهجوم على ألمانيا آنذاك، أما الآن فقد تغير الوضع تمامًا ، فقد اغتنم العدو الفرصة التي منحت له خلال ثمانية أشهر، وبعد أن تمكن من احتلال بولندا عبأ ما يقارب المائة والخمسة والخمسين فرقة من بينها عشر فرق مدرعة ، وقد ساعده في ذلك الاتفاق المعقود بين هتلر وستالين ، والذي مكن هتلر من سحب وتخفيض قواته على الجبهة الشرقية إلى أقل عدد ممكن ، وقد وصف الجنرال هولدر تلك القوات البسيطة المتبقية أمام روسيا بأنها قوة صغيرة تصلح لجمع الضرائب فقط ، وهكذا استطاع هتلر أن يخصص لهجومه الكاسح على فرنسا مائة وست وعشرين فرقة مجهزة بأقوى الأسلحة ، تدعمها ثلاثة آلاف سيارة مصفحة وألف دبابة ثقيلة .

أما فرنسا فقد حشدت مائة وثلاث فرق ، بينها الفرق البريطانية الموجودة في فرنسا ، وإذا تقرر إشراك الجيوش البلجيكية والهولندية فسيزداد العدد بمقدار اثنتين وعشرين فرقة إضافية، ولما كان الهجوم الألماني الذي بدأ في العاشر من أيار عام ١٩٤٠ قد استهدف الجبهات الثلاث مجتمعة، فقد بلغ مجموع القوات الحليفة مائة وخمس وثلاثين فرقة ، أي ما يوازي عدد الفرق الألمانية تقريبًا، ولو كانت هذه القوة الكبيرة منظمة تنظيمًا حسنًا ومدربة تدريبًا تامًا لكان في إمكانها وقف الهجوم الألماني ، إلا أن الجيش الألماني آنذاك أصبح في وضع يمكنه من اختيار الوقت والاتجاه والقوة اللازمة لبدء هجومه ، وكان أكثر من نصف الجيش الفرنسي متمركزًا في القطاعات الجنوبية والشرقية من البلاد ، بينما بقيت إحدى وخمسون فرقة فرنسية بريطانية لتواجه الهجوم الكاسح في الشمال الذي تقوم به نحو من سبعين فرقة ألمانية ، وقد بدأ الألمان هجومهم بزحف الدبابات الحديثة التي لا تخترقها قذائف المدافع والطائرات ، وقد صدرت الأوامر إلى خمس فرق مدرعة وثلاث فرق آلية بعبور الأردين إلى سيدان ومونترمي .

أما الفرنسيون فقد واجهوا هذه الدبابات بدبابات من النوع الخفيف وقد بلغ عددها ألفين وثلاثمائة دبابة ، وقد تضمنت فرقهم الآلية المدرعة بعض الأنواع القوية ، إلا أن معظم قوتهم المدرعة تلك كانت مجزأة ومتفرقة على عدة جبهات ، أما بريطانيا التي كانت أول من اخترع الدبابة فقد أكملت تدريب أول فرقة مدرعة لها قبل أيام من بدء الهجوم ، ولم تتمكن من إرسالها إلى فرنسا.

أما الطائرات الألمانية ، فكانت تفوق الطائرات الفرنسية بالعدد والقوة ، أما القوة الجوية البريطانية العاملة في فرنسا فكانت تضم عشرة أسراب من طائرات «الهاريكين» ، التي تمكنا من الاستغناء عنها ، بالإضافة إلى تسعة عشر سربًا من أنواع مختلفة أخرى ، أما طائرات الانقضاض ، هذا النوع الجديد من الطائرات الذي بدأ في الظهور منذ غزو بولندا ، فلم تكن فرنسا أو بريطانيا قد أنتجته بعد ، وقد أثرت هذه الأنواع من الطائرات على كتائب المشاة الفرنسيين وحطمت من معنوياتهم بشكل كبير .

❖ ❖ ❖

بدأ الهجوم الألماني ليلة التاسع - العاشر من شهر آيار عام ١٩٤٠ ، وقد سبق هذا الهجوم، غارات جوية على المطارات وطرق المواصلات والمنشآت العسكرية ، وبدأ الهجوم عبر حدود بلجيكا وهولندا واللوكسمبورغ ، وتمكن الألمان من مباغتتهم في كل مكان ، وكان جنود العاصفة وهم يحملون المدافع الخفيفة ، ينطلقون من جميع الجهات ليشعلوا الجبهة بالنيران .. وعندما بدأ الزحف الكبير على هولندا وبلجيكا صرختا تطلبان النجدة ، أما الهولنديون فقد أركنوا إلى خطهم المائي وفتحوا جميع الثغرات التي لم يتمكن الألمان من الاستيلاء عليها ، كما راح حرس الحدود يقاومون الغزاة ، إلا أن الألمان كانوا قد اخترقوا الجبهة على عدة مواضع وأقاموا الجسور واستولوا على فتحاتها والمفاتيح التي تضبطها ، بينما راحت الطائرات المغيرة تضرب بقوة ، وأصبحت مدينة روتردام بعد ليلة واحدة كتلة من الأنقاض ، كذلك لاهاي وأوترخت وأمستردام ...

وفي الرابع عشر من أيار ، بدأت الأخبار السيئة تصلنا عن اختراق الألمان للجبهة في سيدان، ولم يتمكن الفرنسيون من الوقوف في وجه الجيش الألماني ، ومقاومة الدبابات

وطائرات الانقضاض الهائلة، وقد وصلتنا إلى مجلس الوزراء رسالة من المسيو رينو، يطلب فيها إرسال عشرة أسراب من الطائرات لمساعدته في إعادة تنظيم الخطوط، كما وصلت رسائل أخرى إلى رؤساء الأركان تشرح الموقف وتقول أن الجنرالين غاملان وجورج يعتبران الوضع خطيرًا جدًا، وقد ذهل الجنرال غاملان من سرعة الزحف الألماني، وفي جميع الأماكن التي اشتبكت فيها الجيوش كانت قوة الهجوم الألماني تسيطر على الموقف في الحال، أما الطائرات البريطانية فقد قاتلت ببسالة وقوة وحطمت الجسور الرئيسية في سيدان، إلا أن الخسائر التي تعرضت لها الطائرات البريطانية كانت كثيرة إلى حد مخيف، فمثلاً خسرنا في يوم واحد حوالي سبع وستين طائرة أنزلتها المدفعية الألمانية المضادة للطائرات، كما أنا أسقطنا حوالي ثلاث وخمسين طائرة ألمانية، ولم يبق لدينا في ذلك اليوم سوى ٢٠٦ طائرة من أصل ٤٧٤ طائرة في فرنسا ... واتضح لنا أن الاستمرار على هذه الحال سيؤدي إلى نهاية القوة الجوية البريطانية، وكان السؤال الآن، ماذا في وسعنا أن نرسل من طائرات إلى فرنسا دون أن نترك بلادنا بلا دفاع، وكانت نداءات فرنسا الملحة، ورغبتنا في القيام بالتزاماتنا تدفعنا إلى إرسال المزيد، إلا أننا سنصل إلى حد لا يمكننا تجاوزه لأنه سيكلفنا بذلك حياتنا.

وبحثت وزارة الحرب، التي كانت تجتمع كل يوم، هذا الوضع المخيف، وكان ماريشال الجو داودينغ قد أعلمني أن باستطاعتنا الدفاع عن وطننا بخمسة وعشرين سربًا مقاتلاً من الطائرات، حتى لو هاجمنا السلاح الجوي الألماني كله، أما إذا انخفض هذا العدد، فلا يمكننا الدفاع بعد ذلك، وكانت الهزيمة لا تعني فقط تدمير مطاراتنا وقوتنا الجوية، بل تعني تدمير مصانع إنتاج الطائرات الذي يتوقف عليها مستقبل بلادنا كله....

وفي الساعة السابعة والنصف صباحًا من يوم الخميس في الخامس عشر من شهر أيار وصلتني مخابرة هاتفية إلى المنزل وأنا في فراشي من المسيو رينو، وكان يتكلم بالإنكليزية، والاضطراب باديًا على صوته وهو يقول: «لقد هزمنا، لقد خسرنا المعركة» فقلت له: «لا يمكن أن تهزموا بهذه السرعة!!» فأجاب: «لقد تحطمت الجبهة عند سيدان، وهم الآن يتقدمون بالدبابات والآليات المدرعة»، وأجبته على الفور بأني سآتي إلى فرنسا للتحدث معه.

لقد استطاع الألمان أن يقتحموا الجبهة ، واندفعت قوات كبيرة بعد أن اضمحل الجيش الفرنسي التاسع، وفي السادس عشر منه توغلت القوات الألمانية ستين ميلاً وراء الجبهة ، كما انتهى القتال في ذلك اليوم أيضًا ، في هولندا بعد أن استسلمت القيادة العليا ...

في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم نفسه ، توجهت إلى فرنسا ومعي الجنرال ديل ، نائب رئيس أركان حرب الإمبراطورية والجنرال إيسماي ، ووصلنا بعد ساعة إلى مطار «لابورجيه» ، وظهر لي الوضع أسوأ بكثير مما كنت أعتقده ، وقد قال الضباط الذين كانوا في استقبالنا أن الألمان سيصلون باريس خلال أيام معدودة ، وهذا على أكثر تقدير ، وتوجهت إلى سفارتنا وبعد أن استمعت إلى الأخبار ، توجهت إلى الكي دورسيه ، ودخلت إلى الغرفة حيث كان بانتظارنا رينو ووزير الدفاع ديلاديه والجنرال غاملان ، وكان الجميع وقوفًا ، ولاحظت على وجوههم دلائل التعب والاضطراب ، ورأيت أمامهم خريطة قد رسم عليها بخط أسود جبهة الحلفاء ، وقد أحدثت فيها ثغرة صغيرة مشؤومة عند سيدان .

وأوضح القائد باختصار تفاصيل ما حدث ، فقد اخترق الألمان الجبهة إلى الشمال والجنوب من سيدان على بعد ستين ميلاً ، وقد تمزق الجيش أمامهم وتحطم شر تحطيم ، وبدأت السيارات تتجه بسرعة هائلة نحو أميان وأراس ، معتزمة الوصول إلى البحر عند إبيغيل أو قربها ، وربما غيرت هذه القوات وجهة سيرها ، وتحولت نحو باريس ، وقال: إن القوات المدرعة البالغة ثماني فرق تزحف وراء السيارات وتوسع في أجنحتها أثناء تقدمها بعد أن شطرت الجيش الفرنسي وفصلت بينه تمامًا ، وقد استمر الجنرال يحدثنا عن الوضع حوالي خمس دقائق ، وبعد أن أنهى حديثه ساد الوجوم والصمت لفترة طويلة ، ثم سألته: «أين القوة الاحتياطية وأين قوات المناورات؟» ، وأجابني غاملان وهو يهز برأسه : «لا يوجد عندنا قوات احتياط أو قوات مناورة...» .

وساد الصمت فترة أخرى ، وارتفع الدخان في الحدائق من المشاعل ورأيت الموظفين يحملون الوثائق والمستندات الهامة ويضرمون فيها النيران ، استعدادًا للجلاء عن باريس .

وعلى الرغم من أن للتجارب الماضية ميزات عديدة ، إلا أنها تنقص نقصًا هامًا هو في كون الأمور لا تتكرر على نفس الصورة مرتين ، ولولا ذلك لكانت الحياة تسير بسهولة كبيرة ، وفي السابق تحطمت جبهاتنا وتمكن العدو من اختراقها ، لكننا كنا دائمًا نتمكن من

وصل الأشياء ببعضها ونخفف من حدة الهجوم ، أما الآن فالتجربة كانت مختلفة ، فقد انقطعت طرق المواصلات، وتم الاستيلاء على الريف القائم وراء الجبهة باندفاع هائل من السيارات المدرعة ، ولم يكن باستطاعتنا المقاومة لعدم وجود احتياطي إستراتيجي لدى الفرنسيين ... لقد أجابوني بأنه ليس لديهم احتياطي، وقد أذهلني جوابهم هذا، إذ كيف يمكننا اعتبار هذا الجيش الفرنسي الكبير بعد الآن ؟ ولم أستطع أن أتصور أن قائدًا يعهد إليه مهمة الدفاع عن جبهة تقدر مساحتها بخمسمائة ميل، ويبقى عاجزًا عن المناورة ، إذ لا يمكن لأي قائد أن يدافع عن جبهة واسعة كالجبهة الفرنسية ، خاصة بعد أن يندفع العدو بهذه القوة الهائلة ويخترق الجبهة ، لذلك يتوجب على القائد أن يطلق فرقة الاحتياطية لمهاجمة العدو في نفس اللحظة التي تكون حدة هجوم العدو قد خفتت .

إذن لماذا أقامت فرنسا خط ماجينو هذا ؟ فهو بلا شك قد وفر استخدام قوات كبيرة من الجيش، وبنفس الوقت خلق مراكز اندفاعية ، باستطاعة الجيش أن يستخدمها أثناء هجومه المعاكس بالإضافة إلى استخدامه لتلك المراكز لحشد قوات إضافية تساعد الجيش عند الضرورة ، وهذه هي الطريقة الوحيدة لمواجهة مثل هذا الموقف ، ولكنهم يقولون: إنه ليس عندهم احتياطي ، وهنا لابد أن أعترف أن قولهم هذا كان أكبر مفاجأة تلقيتها في حياتي، فلماذا لم يعرفوني بهذا الأمر من قبل ، حتى ولو كنت منهمكًا في أعمالي في الأميرالية ؟ بل لماذا لم تعرف الحكومة البريطانية بهذا الأمر من قبل ، وخاصة وزارة الحربية ؟ ولا أعتقد أن القيادة الفرنسية ما كانت لتكشف لنا عن هذا الضعف أو عن طريقة توزيع قواتها ، فهذا العذر هو أقبح من الذنب ، إذ إنه من حقنا أن نعرف، فالجيشان يخوضان معركة حياة أو موت في الجبهة ... وعدت إلى النافذة لأراقب ألسنة اللهب تلتهم الوثائق والمستندات الخاصة بالجمهورية الفرنسية . وكانوا لا يزالون يقذفون بمزيد من المستندات إلى النيران المتأججة ...

وعاد الجنرال غاملان إلى الحديث مرة أخرى ، ويقول: إذا لم يكن من الضروري إعادة جمع القوات المشتتة لتضرب القوات الغازية ، وقال: إن هناك ثماني فرق أو تسع يمكننا سحبها من المراكز الهادئة في الجبهة عند خط ماجينو ، كما أن هناك ثلاث فرق مدرعة لم تشترك بعد في المعركة ، بالإضافة إلى ثماني أو تسع فرق ستصل في طريقها من إفريقيا خلال أسبوعين ، وفي هذه الحالة سيجتاز الألمان طريقهم عبر ممر بين جبهتين فيمكن شن الغارات

المعاكسة عليهم، ولن يتمكن الألمان من الصمود نتيجة ضغط الجبهتين عليهم ...

ومع أن أقوال الجنرال غاملان كانت منطقية ومعقولة، إلا أنني شعرت بأن بقية الرجال لا يصدقون ما يقوله، وسألت الجنرال غاملان عن الموعد الذي سيحدده للهجوم، وعن الطريقة التي سيتبعها في هجومه، وكان رده: «أننا أقل منهم عددًا وعدة، وأضعف منهم في أساليب الحرب...» وبعد ذلك اكتفى بأن هز كتفيه، ولم نتكلم بعد ذلك، إذ لم يكن من ضرورة لذلك ... ثم أين تقف بريطانيا إزاء هذا الوضع، بإسهامها الضعيف الذي لا يتعدى العشر فرق والتي لا يوجد بينها فرقة واحدة من الدبابات الحديثة، وذلك بعد مضي ثمانية أشهر من إعلان الحرب ؟؟

❖ ❖ ❖

وفي الصباح، قبل أن أغادر المكان، وصلني التفويض من مجلس الوزراء في لندن لنقل أربعة أسراب من الطائرات المقاتلة إلى فرنسا، ورجعت إلى السفارة لأطلب إرسال ستة أسراب أخرى، تاركًا خمسة وعشرين سربًا فقط للدفاع عن الجزر البريطانية كلها، وهذا هو الحد النهائي، وجاءتني الموافقة في المساء، فتوجهت لتوي إلى منزل المسيو رينو وأبلغته النبأ، كما طلبت منه استدعاء المسيو ديلادييه ليسمع النبأ المفرح، الذي بدا لي أنه سيرفع من معنويات أصدقائنا الفرنسيين، وعندما سمع المسيو ديلادييه بالخبر لم ينبس بكلمة واحدة، واكتفى بأن قفز من مكانه وأمسك بيدي وعصرها وأمارات الفرح ترتسم على وجهه ... وفي صباح اليوم التالي عدت إلى لندن، وقد أخبرت أصدقاءنا الفرنسيين، قبل أن أغادر باريس، أنهم ما لم يبذلوا جهدًا فائقًا فإن مغامرتنا الكبرى في إرسال تلك الأسراب من الطائرات تصبح دون فائدة، وقد قيل لي: إن خسائر العدو كانت أكبر من خسائرنا بخمسة أضعاف، كما قيل لي أن فرنسا فقدت معظم طائراتها ...وخيل للجنرال غاملان أن الوضع قد أصبح منتهيًا، وقد أخبروني بعد ذلك أنه أعلن بأنه لن يتمكن من الصمود أكثر من يوم واحد فقط، وأن باريس ستسقط بين ليلة وضحاها !! وفي نفس اليوم الذي وصلت فيه لندن، وصلتني الأخبار أن الألمان دخلوا بروكسل وفي اليوم التالي دخلوا كامبرية ثم اجتازوا سان كانتان، بينما كانت القوات الحليفة تتراجع منسحبة ...

وفي منتصف ليل الثامن عشر ـ التاسع عشر، قام الجنرال بيلوتي بزيارة اللورد غوت في

القيادة العليا، ولم تكن شخصية هذا القائد تبعث على الارتياح والثقة، ومنذ تلك اللحظة بدأت فكرة الانسحاب إلى الشاطئ تراود مخيلة قائد الإعلام البريطاني، وقد أبرق إلينا يقول أن الوضع في فرنسا قد تغير ولم تعد المسألة مسألة خرق لخط الدفاع، بل أصبح الوضع يشكل صورة القلعة المحاصرة والمهددة بالسقوط.

❖ ❖ ❖

ويدأ المسيو رينو بتغيير أعضاء وزارته وقيادته العليا، وعين الماريشال بيتان نائبًا لرئيس الوزراء، ونقل المسيو ديلادييه إلى وزراء الخارجية وأخذ عنه مهام وزارة الدفاع والحربية واحتفظ بها لنفسه، كما عين الجنرال ويغان قائدًا أعلى بدلاً من الجنرال غاملان.

كان آخر أمر أصدره الجنرال غاملان هو أن تشق الجيوش الشمالية طريقها إلى الجنوب إلى نهر السوم مهما كلفها الأمر، وأن تهاجم مدرعات العدو التي قطعت طرق مواصلاتنا، وفي نفس الوقت يترتب على الجيش الثاني والجيش السادس أن يخترقا الصفوف باتجاه الشمال نحو ميزيير، وقد أعجبت بهذه القرارات المتخذة، فقد كانت قرارات صائبة جدًا.

وقد أثار اضطراب القيادة الشمالية، وهزيمة الجيش الفرنسي الأول وغموض الموقف العام، أثار القلق في نفوسنا، وبقيت في نفس الوقت جميع الإجراءات التي اتخذناها هادئة مرنة وجاءتنا رسالة من اللورد غورت تقول أنه يدرس إمكانية انسحاب جيوشنا إلى دنكرك، بحال اضطر إلى ذلك... ولم يكن باستطاعة رئيس الأركان الموافقة على مثل هذا الاقتراح الذي لم نكن نحن أيضًا نوافق عليه، فبعثنا برسالة إلى اللورد غورت، نعلمه بها بوجوب الاتجاه بالقوات البريطانية نحو الجنوب الغربي لتنضم إلى القوات الفرنسية في الجنوب، وفي نفس الوقت يحث البلجيكيين على العمل بنفس الخطة، وإذا لم يوافقوا عليه أن يخبرهم عن استعدادنا لإجلاء أكبر عدد ممكن من القوات من موانئ المانش، وقررنا في نفس الجلسة أن نرسل الجنرال ديل إلى مقر قيادة الجنرال جورج، الذي كنا على اتصال تلفوني دائم معه، بينما كانت اتصالاتنا مع اللورد غورت متقطعة وصعبة، وقد وصلتنا الأخبار بأن الذخيرة والمؤن لم تعد تكفي إلا لمدة أربعة أيام فقط.

وفي العشرين من أيار، بعد أن درسنا وضع جيشنا من جديد، قررنا بالجلسة الخاصة ما يلي: «يتوجب على الأميرالية أن تقوم بحشد أكبر عدد ممكن من السفن الصغيرة، وذلك

كإجراء احتياطي ، لنكون على استعداد للإبحار إلى الموانئ القائمة على طول الساحل الفرنسي » ، وفي نفس اليوم عقد المؤتمر الأول لجميع من يعينهم الأمر لدرس قضية الجلاء الطارئ عبر القناة لقوات كبيرة جدًا ، كما وضعت الخطة لإجلاء عشرة آلاف رجل عن موانئ كاليه وبولون ودنكرك ، كل أربع وعشرين ساعة ، وقد أسميت هذه الخطة «عملية دينامو» التي برهنت على أنها الطريقة الوحيدة التي أنقذت الجيش بعد عشرة أيام .

❖ ❖ ❖

وفي ليلة العشرين من الشهر نفسه دخل الألمان مدينة إيبفيل ، بعد أنْ قطعت طرق مواصلات الجيوش الشمالية ، وأصبح اتجاه قواتهم واضحًا الآن وكانت الفرق الآلية والمدرعات تتدفق كالسيل الجارف دون أن تلقى أية مقاومة من الفرنسيين ، وكانت تتقدم مجتازة المدن والقرى بمعدل ثلاثين أو أربعين ميلاً في اليوم الواحد ، وكان الضباط الألمان ينظرون إلى السكان ويبتسمون بسخرية وهم يلوحون لهم بأيديهم ، وتتحدث الأخبار أن جماعات من الأسرى الفرنسيين كانت تسير معهم والبنادق لا تزال في أيديهم ، وكان الألمان يجمعونها بين الفترة والأخرى ويحطمونها تحت الدبابات ... وقد أذهلني هذا الفشل في الوقوف أمام هجمات المدرعات الألمانية التي تمكنت من تحطيم جيوش قوية بكاملها ، كما أذهلني الانهيار السريع في المقاومة الفرنسية بعد أن تمكن الألمان من اختراق الجبهة ، فقد كانت القوات الألمانية تسير على الطرقات الفرنسية الرئيسية بحرية تامة ، ولم يبد أن أي طريق قد أغلق في وجه الأعداء ولو في نقطة واحدة تدل على شيء من المقاومة ...

❖ ❖ ❖

الفصل الثاني

المسير نحو البحر



لقد كان هتلر الرجل الوحيد الذي يستطيع اختراق حياد بلجيكا وهولندا، وبلجيكا لن تطلب العون من الحلفاء إلا إذا هوجمت، لذلك بقي زمام المبادرة العسكرية في يد هتلر الذي وجه ضربته في اليوم العاشر من شهر آيار، وانتقلت الجيوش الفرنسية والبريطانية من وراء خطوطها إلى بلجيكا لمحاولة إنقاذها، بدلاً من البقاء عند خطوط الدفاع المحصنة، وقد كانت هذه المحاولة حسب خطة رسمها الجنرال غاملان والملقبة بالخطة «د»، وكان الفرنسيون قد تركوا نقطة الدفاع المقابلة للإردين، دون دفاع قوي، فتمكنت الجيوش الألمانية من الاندفاع بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ وقسمت خط الجيوش الفرنسية، وبعد ثمان وأربعين ساعة أصبحت الجيوش الألمانية تهدد بقية الجيوش المتمركزة بالشمال قاطعة خط مواصلاتها الجنوبية وعن البحر أيضًا، وكان على القيادة العليا الفرنسية، أن تأمر جيوشها بالانسحاب فورًا وبأقصى سرعة ممكنة متحملة الخسائر البالغة في المعدات، إلا أن الجنرال غاملان لم يواجه هذه الحقيقة المخيفة، بينما كان قائد الجيوش الشمالية، بيلوتي، عاجزًا عن اتخاذ القرارات الهامة بنفسه، لذلك عمت الفوضى جميع الجيوش في الجبهة الشمالية المهددة.

وعندما شعرت هذه الجيوش بالخطر المحدق بها، تراجعت إلا أن العدو كان قد طوقها من الأيمن، فقامت بإنشاء خط دفاعي، لكنها لو بدأت هذه الجيوش بالتراجع قبل هذا الوقت الذي تراجعت فيه، لكان باستطاعتها أن تصل إلى خطها القديم فتتمكن من النجاة، لكن هذه الجيوش تأخرت وفقدت ثلاثة أيام بين أخذ ورد فاستكمل العدو حركة التطويق! ورأت وزارة الحرب في بريطانيا أن القتال الفوري في الجنوب هو الطريقة الوحيدة لإنقاذ الجيش البريطاني، لكن اللورد غورت، لم يوافق على هذه الفكرة وبإمكانية نجاحها فالخطة المقترحة من وزارة الحرب تقضي بإشغال العدو على عدة جبهات لتتمكن من خرق جبهة واحدة لتنفيذ خطة التراجع، وفي هذا الوقت تغيرت القيادة العليا في فرنسا وصرف الجنرال غاملان وخلفه في القيادة الجنرال ويغان، وأدى هذا التغيير في القيادة إلى التأخير ثلاثة أيام أخرى، واقترح الجنرال خطة مشابهة لخطة سلفه واضطررنا إلى قبولها مرغمين، وحاولنا بكل جهد أن ننفذها مخلصين إلى أن انقطعت طرق المواصلات أمامنا، بعد أن صد

الألمان هجماتنا الضعيفة واحتلوا أبراس وانهارت الجبهة البلجيكية، وأوشك الملك ليوبولد على الاستسلام، وفقدنا كل أمل في الانسحاب إلى الجنوب، ولم يبق أمامنا إلا البحر، وفي الحال، أقام اللورد غورت رأس حسر حول دنكرك محاولاً شق طريقه بكل قوته، وكنا في هذه الأيام بحاجة إلى كل ما عرف عنا من نظام وطاعة ودقة في القيادة ...

❖ ❖ ❖

وهنا سنعرض قصة كثر الجدل حولها، فقد ذكر الجنرال هولدر رئيس أركان الجيش الألماني، أن هتلر قد تدخل في هذا الوقت شخصيًا ولأول مرة لأنه شعر بالخوف على آلياته المدرعة لأنها أصبحت في وضع خطر للغاية، فهي الآن في أرض وعرة محاطة بالأقنية ولا يمكنها التقدم بشكل سريع، وبنفس الوقت لا يمكنه احتمال أي خسارة في معداته، فهو بحاجة إليها في المرحلة الثانية من حملته، واعتقد أن سلاح الطيران سيتمكن من السيطرة ومنع التراجع والانسحاب عن طريق البحر، لذلك أرسل أوامره بوقف آلياته المدرعة وتراجعها في بعض الأماكن، وهكذا أصبح في مقدور البريطانيين الانسحاب والوصول إلى دنكرك، هذا حسب قول هولدر نفسه، وعلى كل حال فقد تمكنا من التقاط رسالة ألمانية في صباح الرابع والعشرين من آيار، تأمر بوقف الهجوم على دنكرك، ويقول هولدر أيضًا: إنه رفض التدخل في تحركات الجيوش التي كانت تحت أمرة رونشتادت والتي كانت تحمل الأوامر الصريحة بمنع العدو من التقدم والوصول إلى البحر، وقال: إنه كلما أسرع في تحقيق النصر كان أسهل فيما بعد التعويض عن الدبابات والمدرعات المفقودة.

ولم يلبث هتلر أن أصدر أمرًا بإيفاد ضابط ارتباط شخصي إلى الجبهة، ومضى الجنرال هولدر يقول:

«لم أعرف كيف اقتنع هتلر بضرورة عدم تعريض قواته المدرعة إلى الخطر ومن المرجح أن يكون كايتل قد أوحي له بهذه الأفكار عن طريق القصص التي كان يقصها عليه».

وقد صرح قادة آخرون بقصة مشابهة وأشاروا إلى أن هتلر قد أصدر أوامره هذه لأسباب سياسية، منها فسح المجال أمام إنكلترا لطلب السلام بعد الهزيمة التي لحقت بفرنسا، وقد ظهرت بعد انتهاء الحرب بعض الوثائق التي صدرت عن مقر قيادة

رونشتادت على شكل يوميات دونت في ذلك الوقت أما هذه الوثائق فتروي القصة بشكل مختلف تمامًا ! فالأوامر صدرت عند منتصف ليل الثالث والعشرين من أيار من مقر القيادة العامة، تحمل توقيع براوخيتش تذكر فيها أن الجيش الرابع سيبقى تحت قيادة رونشتادت ليقوم بالمرحلة الأخيرة من معركة التطويق ، وفي صباح اليوم التالي، عندما وصل هتلر لزيارة رونشتادت ، أخبره أن الآليات المدرعة ، التي توغلت بعيدًا قد ضعفت قوتها ، وهي بحاجة إلى فترة من التوقف لاستعادة نشاطها كي تتمكن من توجيه الضربة القاضية للعدو الذي يقاتل بضراوة ، وكان رونشتادت ينتظر هجمات شديدة من الحلفاء في الشمال والجنوب ، وهي الخطة التي اقترحها ويغان ، وقد وافق هتلر على وجوب توقف السلاح المدرع لتجهيزه للمعركة الحاسمة المقبلة ، ومع ذلك ، فقد وصل في صباح اليوم التالي الأمر من براوخيتش، القائد العام ، باستمرار تقدم المدرعات ، وهنا رفض رونشتادت الأمر الموجه إليه ، بعد أن اطمأن إلى موافقة هتلر الشخصية ، ولم ينقل هذا الأمر إلى قائد الجيش الرابع «كلوغه» بل طلب منه أن يستمر في تجميع القوات المدرعة ، وقد احتج «كلوغة» على هذا التأخير، ولكن رونشتادت لم يصدر أوامر القيادة العليا إلا في صباح يوم السادس والعشرين وأضاف أنه يجب ألا يهاجموا دنكرك بالذات ... وقد ذكرت هذه اليوميات عن احتجاج قادة الجيش الرابع على هذا التخصيص وكتب رئيس أركان حربه يقول :

«أن الوضع في الموانئ كان على الشكل التالي : فالبواخر الكبيرة كانت تقترب من الأرصفة ، وتمد الألواح الخشبية إلى الشاطئ وبسرعة عجيبة كانت أسطحة البواخر تكتظ بالرجال ، أما أسلحتهم وعتادهم الحربي فيتركونه وراءهم ، لكننا لم نكن نريد أن نرى هؤلاء الرجال أنفسهم يعودون مرة أخرى وقد تسلحوا بسلاح جديد ليقوموا بجولات جديدة ضدنا» .

ومن هذه اليوميات يتبين أن المدرعات قد توقفت بناء للأوامر التي صدرت عن رونشتادت لا عن هتلر ، ولابد أن تكون هناك وجهة نظر خاصة ، إلا أن القادة الألمان أجمعوا على أن هذه الأوامر قد أضاعت فرصة عظيمة عليهم .

❖ ❖ ❖

لم تكن القوات الألمانية تضغط بشدة على خط الدفاع البلجيكي ، ولكنها ما أن بدأت

ضغطها المتزايد حتى انهار الخط وتمكن الألمان من تحطيمه على جانبي كورثاني، التي لا تبعد عن أوستند ودنكرك أكثر من ثلاثين ميلاً، وما لبث ملك بلجيكا أن يئس من الوضع الحاضر فقرر الاستسلام.

واتخذ اللورد غورت قراره الحاسم بالتخلي عن خطة الجنرال ويغان القاضية بالزحف نحو الجنوب ونحو الشمال، وقرر بدلاً عنها بعد اقتناعه التام بأن إشراف الحكومتين البريطانية والفرنسية قد انتهى على ميدان المعركة، وكل سيطرة للقيادة الفرنسية العليا قد زالت، لذلك قرر أن يستبدل فكرة الهجوم نحو الجنوب، بسد الثغرة التي ستحدثها استسلام بلجيكا في الشمال، وأن يزحف باتجاه البحر، وهكذا أصدر أوامره إلى الفرقتين الخامسة والخمسين بوجوب الانضمام إلى اللواء البريطاني الثاني لسد الثغرة في الجبهة البلجيكية، كما نقل إلى الجنرال بلانشار الفرنسي عزمه على تغيير الخطة الأولى ووافق الجنرال وقرر الانسحاب إلى الخط الواقع وراء قناة ليز غربي ليل، وقرر إقامة رأس جسر حول دنكرك.

وفي الصباح الباكر من اليوم السادس والعشرين من شهر آيار، قام غورت وبلانشار برسم خطة الانسحاب نحو البحر، ولما كان على الجيش الفرنسي أن يقطع مسافة أطول، لذلك مهدت قوات الحملة البريطانية الطريق بينما بقيت القوات الأخرى في خطوط الدفاع في الجبهة حتى ليله الثامن والعشرين من أيار، وكان اللورد غورت يتصرف حسبما يراه مناسبًا على مسؤوليته الخاصة، إلا أننا في الوزارة كنا قد توصلنا إلى نفس النتيجة حسب المعلومات التي حصلنا عليها، لذلك أصدرنا له برقية تأييد للإجراءات التي قام بها طالبين منه التوجه إلى البحر بالاشتراك مع القوات الفرنسية والبلجيكية، ثم بدأ حشد أكبر عدد ممكن من المراكب والسفن.

وفي هذه الأثناء، استمرت عملية إقامة رؤوس الجسور حول دنكرك، كما تقرر أن يحتفظ الفرنسيون بالأماكن الواقعة بين «غريفلاين» و «بيرغ» بينما يحافظ البريطانيون على القناة عبر فيرنز إلى نيوبورت والشاطيء وتلقى اللورد غورت من الوزارة تأكيدًا للأمر الذي صدر إليه في إجلاء أكبر عدد ممكن من الرجال، وكنت قد أخبرت المسيو رينو أن هدفنا هو

سحب القوات البريطانية، كما طلبت منه أن يصدر أوامر مماثلة، وكانت حركة المواصلات قد أصبحت ضخمة حتى إن قائد الجيش الفرنسي الأول أصدر أمره في السابع والعشرين من أيار إلى جنوده يقول: «إن المعركة تدور الآن دون تراجع حتى خط ليز».

أصبح الخطر يهدد فرقًا بريطانية أربعة، بالإضافة إلى الجيش الفرنسي الأول كله، بالعزلة والانقطاع، وراحت (الكماشة) الألمانية تحاول الضغط بكل قوتها على جيوشنا، وكانت هذه اللحظة من اللحظات الحاسمة التي تلعب فيها وسائل النقل الميكانيكية دورها البارز، فما أن أصدر اللورد غورث أمره بالتراجع حتى كانت الفرق الأربع تتراجع بسرعة مذهلة في ليلة واحدة، وتمكنت بقية الفرق البريطانية من الاحتفاظ بالممر المؤدي إلى البحر بكثير من الجهد، وبعد معارك دامية تمكن العدو من إغلاق (الكماشة) بعد أن تم تأخيرها ثلاثة أيام بفضل الفرق البريطانية الثانية، وتم إغلاق ذراعي الكماشة بصورة تشبه تلك العملية الروسية العظيمة حول ستالينغراد سنة ١٩٤٢، وقد تم انسحاب الجيوش البريطانية والفرنسية، خلال هذه الفترة، وتمكنت من النجاة عدا اللواء الخامس من الجيش الفرنسي الذي فقد...

***

قبل عشرة أيام طلبت من المستر تشمبرلين درس إمكانية استمرارنا في الحرب وحدنا، والآن ما لبثت أن عرضت الأمر بصفة رسمية على مستشارينا العسكريين، وقد وضعت الأسئلة بطريقة تترك المجال أمام رؤساء الأركان لإبداء آرائهم بحرية تامة، مهما كانت تلك الآراء، وبالرغم من ثقتي التامة بأنهم سيطلبون الاستمرار في الحرب، إلا أني وجدت من الحكمة أن أحتفظ بسجلات خطية عن مثل هذه الآراء، كما أردت أن أؤكد للبرلمان أن آراءنا بالاستمرار في الحرب تدعمها آراء الخبراء العسكريين المحترفين. وهنا أسرد نص السؤال بحرفيته مع رد رؤساء الأركان عليه:

١ - لقد أطلعنا على التقرير عن «إستراتيجية بريطانيا في حال حدوث تطور معين» على ضوء المهمة التي كلفنا بها رئيس الوزراء في رسالته التالية:

« في حال عجزت فرنسا عن الاستمرار في الحرب ، وفي حال اتخذت موقف الحياد ، وفي حال احتفاظ الألمان بوضعهم الحالي واستسلام الجيش البلجيكي بعد مساعدة الحملة البريطانية على الوصول إلى البحر ، وفي حال التقدم بعروض من شأنها أن تضع بريطانيا تحت رحمة ألمانيا بسبب اقتراحات نزع السلاح ووقف القواعد البحرية عن العمل في جزر أوركني وغيرها ، فما هو الأمل في استمرار الحرب ضد ألمانيا ، وربما ضد إيطاليا أيضًا ؟ وهل سيتمكن الأسطول والسلاح الجوي ، من حمايتنا ضد غزو ألماني خطير ، وهل ستتمكن قواتنا التي سنحشدها في هذه الجزر من مقاومة الغارات الجوية عليها ، مع العلم أن هذه القوات تضم وحدات لا يبلغ عدد أفرادها العشرة آلاف ! شرط أن نأخذ بعين الاعتبار أن إطالة مدة المقاومة ستشكل خطرًا كبيرًا على ألمانيا التي ستكون منصرفة إلى السيطرة على الأجزاء التي احتلتها في أوروبا .

٢ ـ هذا وقد توصلنا إلى نتائج سنذكرها في الفقرات التالية :

٣ ـ يمكن لأسطولنا البحري أن يتعاون مع سلاحنا الجوي في الدفاع ومنع ألمانيا من القيام بهجوم كبير عن طريق البحر .

٤ ـ إذا افترضنا أن ألمانيا استطاعت أن تتفوق على قواتنا الجوية ، فنحن نعتقد أن الأسطول سيتمكن من المقاومة لفترة محدودة فقط .

٥ ـ إذا لم يتمكن أسطولنا من المقاومة ، وإذا ما تمكن العدو من التغلب على سلاحنا الجوي، وإذا حاولت ألمانيا أن تغزونا ، فلن تتمكن قواتنا الساحلية من الدفاع ومنع إنزال قوات برية على الشواطىء ، وفي هذه الحال ستكون قواتنا البرية غير قادرة على الصمود أمام غزو ألماني كبير».

٦ ـ فإذا ما تمكنت ألمانيا من إحراز تفوق جوي ، فباستطاعتها غزو بلادنا وإخضاعها عن طريق الجو فقط .

٧ ـ لن تتمكن ألمانيا من التفوق علينا في الجو ، إلا إذا تمكنت من القضاء على سلاحنا الجوي برمته ، وإذا ما تمكنت من تحطيم جميع مصانع الطائرات في كوفنتري وبرمنغهام .

٨ ـ قد تقع الغارات الجوية على مصانع الطائرات في الليل وفي النهار ، ونحن نرى أنه بإمكاننا أن نلحق بالعدو خسائر فادحة أثناء قيامه بغارات في النهار ، ومهما حاولنا فلن نتمكن من حماية جميع مصانع طائراتنا خاصة أثناء غارات العدو الليلية ، فعلينا أن نحول بينه وبين تنفيذ أهدافه قدر إمكاننا » .

٩ ـ إن نجاح العمليات الجوية في القضاء على صناعة الطائرات ، لا تعتمد على القنابل والتخريب الذي ينجم عنها ، بل يعتمد أيضًا على التأثير المعنوي على العمال الذين سيتوقف عليهم وحدهم الرغبة في الاستمرار في العمل بالرغم من الاضطرابات والمخاوف » .

١٠ ـ إذا استمر العدو في غاراته الليلية على مصانع طائراتنا ، فقد ينجح في إلحاق الأضرار المادية والمعنوية بنا ، وسيتوقف العمل في مصانعنا على الفور .

١١ ـ علينا أن نتأكد من أن الألمان متفوقون علينا في عدد الطائرات بنسبة أربعة إلى واحد، بالإضافة إلى أن مصانع طائراتهم أكثر توزيعًا وقوة من مصانعنا .

١٢ ـ ومن ناحية ثانية ، فبإمكاننا نحن أيضًا توجيه ضربات قوية على مصانع العدو ، ما دامت لدينا قوة كبيرة من قاذفات القنابل ، التي ستلحق بغاراتها على مصانعهم الكثير من الأضرار المادية والمعنوية وتوقف قسم كبير منها عن العمل .

١٣ ـ وبالإجمال ، تبدو ألمانيا لأول وهلة أنها تملك زمام الأمور بيدها ، ولكن النتيجة تتوقف على مقدرة جنودنا وسكاننا المدنيين على الصمود ، بفضل ما نتمتع به من روح معنوية عالية تمكننا من موازاة ألمانيا التي تبدو أنها متفوقة علينا .

لقد كتب هذا التقرير في أحلك الأوقات ، وقبل عملية إنقاذ دنكرك وقد وقع على التقرير رؤساء أركان الحرب الثلاثة ، وهم : «نيووال ـ باوند ـ وايرونسايد ، ونوابهم الثلاثة : ديل ـ فيليبس وبيرس ، وعندما قرأت هذا التقرير بعد سنوات ، أريد أن أقر على ما كان يحتويه من خطورة وغموض ، إلا أننا كنا قد حزمنا أمرنا وقررنا المضي يدا واحدة وقلبًا واحدًا .

وقد أصدرنا التعليمات العامة التالية :

سري للغاية :

« إن من دواعي امتنان رئيس الوزراء ، في هذه الأيام السوداء ، أن يرى زملاؤه الوزراء وهم محتفظون بروحهم المعنوية لعالية ، خلال الفترات الصعبة التي يعيشونها ، وعلينا ألا نقلل من أهمية هذه الأحداث وخطورتها وحراجتها ، وعلينا أن نبرهن عن عزمنا وتصميمنا الأكيدين على المضي في هذه الحرب ، حتى نحطم إرادة العدو الراغب في السيطرة على أوروبا وإخضاعها لنفوذه وسيطرته .

وعلينا ألا نتسامح بالفكرة القائلة: إن فرنسا ستقوم بعقد صلح منفرد مع ألمانيا، ولكن مهما حدث على هذه القارة الأوروبية فعلينا ألا نشك في واجباتنا ، وسنستخدم كل ما نملكه من قوة للدفاع عن بلادنا وإمبراطوريتنا وقضيتنا » .

❖ ❖ ❖

وفي صباح اليوم الثامن والعشرين استسلمت بلجيكا ، وقد وصلت الأنباء إلى اللورد غورث قبيل الاستسلام بساعة واحدة ، وكان هذا الانهيار متوقعًا قبل ثلاثة أيام ، وقد استطاعت القوات البريطانية أن تسد هذه الثغرة التي كان متوقعًا حدوثها ، واستطاعت قوات الحملة البريطانية الجلاء، كما تمكن نصف الجيش الفرنسي الأول من الوصول إلى دنكرك سالمًا حيث تم نقل رجاله بسلام ، لكن خمس فرق لم يكتب لها النجاة بعد أن أطبقت عليها الكماشة الألمانية ، إلا أنهم صمدوا أمام الضغط الهائل واستبسلوا في القتال حتى مساء الحادي والثلاثين من أيار ، واضطروا إلى الاستسلام بعد أن نفد ما لديهم من غذاء وعتاد ، وهكذا استبسلم نحو من خمسين ألف جندي فرنسي للأعداء ، وقد تمكن هؤلاء من الصمود بقيادة الجنرال مولنيه الباسل وأتاحوا بذلك الفرصة أمام رفاقهم للنجاة عن طريق دنكرك .

وقد مررت بمحنة قاسية خلال الأيام المخيفة ، ولم أكن أجرؤ على التدخل ، إذ أن التدخل سيؤدي إلى زيادة الخطر على الرجال بدلاً من تخفيفه عنهم ، ولا شك أن التزامنا المخلص لخطة الجنرال ويغان قد زادت من خطورة الموقف ، إلا أن قرار اللورد غورث .

الذي وافقنا عليه وأيدناه، والقاضي بالزحف نحو البحر قد نفذ بدقة متناهية بفضل عبقرية القائد ومساعدوه، وسيبقى هذا الحادث كأسطورة رائعة من أساطير البطولة في تاريخ بريطانيا العسكري.

❖ ❖ ❖

الفصل الثالث

إنقاذ دنكرك



منذ العشرين من أيار، بدأ حشد البواخر والقطع الصغيرة تحت قيادة الأميرال رامسي قائد موقع ووفر، وفي مساء السادس والعشرين من الشهر نفسه أعلنت الأميرالية ابتداء عملية «دينامو» ووصلت أول قوة جلت عن دنكرك إلى الوطن، وبعد أن فقدنا ميناء بولون وكاليه، لم يبق عندنا سوى السواحل الرملية القريبة من حدود بلجيكا وما تبقى من ميناء دنكرك، وقد خيل لنا أن أكبر عدد يمكننا إنقاذه في ذلك الوقت لن يتعدى الـ ٤٥ ألف رجل خلال يومين، وقد اتخذت إجراءات الطوارئ للحصول على أكبر عدد ممكن من السفن الصغيرة للقيام «بمهمات خاصة» وهذا يعني نقل نصف قوات الحملة البريطانية، وكان عمل السفن الصغيرة يقتصر على الشواطئ الرملية، بينما تعمل بقية السفن الكبيرة في ميناء دنكرك نفسه، وقام ضباط الأميرالية بالبحث عن الزوارق الصغيرة في جميع الأحواض القائمة بين تيدلنغتون وبراتيلينغسي، فتمكنوا من جمع أربعين زورقًا بخاريًا ولنشا، كما جمعت كافة القوارب واليخوت والزوارق وزوارق صيد السمك والمواعين وكل ما كان على شواطئ البحر من وسائل النقل، وفي ليل السابع والعشرين من أيار اندفع سيل هائل من هذه القطع الصغيرة نحو شواطئ دنكرك لإنقاذ جيشنا الحبيب.

وبعد أن تأكد للأميرالية أن الأمر لم يعد سريًا أطلقت العنان لكل حركة من حركات الإنقاذ وسمحت لكل من يملك قاربًا أو زورقًا مهما كان نوعه أن يبحر إلى دنكرك، وعمل الجميع في هذا الجو الرائع من الحماس الوطني على إنقاذ ما لا يقل عن مائة ألف جندي من جنود الوطن من الشواطئ إلى السفن الراسية في عرض البحر، تحت وابل من الغارات الجوية العنيفة، والقصف الذي لم ينقطع من طائرات العدو.

في هذه الأثناء، كانت القوات الإضافية تعزز المواقع الأمامية حول دنكرك وبدأت النجدات تصل إلى خطوط الدفاع الأمامية، وكان من المقرر أن تشترك ثلاثة ألوية في عملية الدفاع، لكن الفرنسيين حملوا عنا القسم الأكبر من مهمة الدفاع عن الجبهة، فقررنا الاكتفاء بلواءين فقط، وكان الألمان يطاردون جنودنا أثناء انسحابهم فينشب القتال المرير بين جنودنا ومطارديهم خاصة حول الجناحين في نيوبورت وبيرغر، ومع استمرار الجلاء كان العدد ينخفض وتتقلص الخطوط الدفاعية، ووقفت الألوف من الجنود موقف الأبطال أمام

القصف الجوي المستمر مدة أربعة أو خمسة أيام مريرة ، وثبت أن مزاعم هتلر حول منع عملية الانسحاب بواسطة سلاحه الجوي لم تكن صحيحة بالإضافة إلى أنها كانت غير معقولة وفاشلة ، فقد تبين أن القصف الجوي المستمر على حشودنا الكبيرة على الشواطئ لم يلحق بهم أضرارًا كبيرة ، وفي البداية عندما بدأت أولى الغارات الصاعقة ، ذهل جنودنا من أن تلك الغارة لم تقتل أيًا منهم تقريبًا ، فقد كانت تلك الشواطئ صخرية لتغير الوضع وأضحت النتائج مهلكة ، إلا أن الشواطئ الرملية بطبيعتها جعلت من نفسها مكانًا أمينًا يقيهم شر الغارات الوحشية .

وقد أذهل سلاح طيراننا العلو لشدة بأسه ونشاطه ، فقد كانت المعارك الجوية التي دارت في سماء دنكرك تجربة للكفاءات الجوية البريطانية والألمانية ، واحتفظت قيادتنا الجوية بطائرات مقاتلة ملأت سماء المعركة بصورة مستديمة ، باذلة جهدًا عظيمًا في مجابهة العدو الذي يفوقها في العدد، وكانت طائراتنا تتغلب على الطائرات العدوة بسرعة مذهلة وتنزل بها خسائر فادحة وتطردها خارج سماء المعركة ، وقد استمرت هذه المعارك الهائلة يومًا بعد يوم إلى أن حقق سلاحنا الجوي النصر الكبير ، وما إن تشاهد الطائرات العدوة حتى تهاجمها أسرابنا وتلتحم معها في معارك ضارية وتسقط منها العشرات ، وهكذا استخدمنا في هذه المعركة العنيفة كل ما نملكه من طائرات احتياطية في الوطن ، وكان الطيار البريطاني يقوم بأكثر من أربع غارات يوميًا ، ولذلك حصلنا على نتائج واضحة ومرضية . فقد كان العدو المتفوق علينا ينهزم أمامنا أو يقتل ويتخاذل ويضعف، لقد كانت المعركة فاصلة ، ولم يكن جنودنا على السواحل يشاهدون هذا الصراع الهائل في الجو، فالمعارك كانت مشتعلة بعيدًا عن أنظارهم ، وكانوا يجهلون ما يفعله نسورنا في الجو، وكل ما يشعرون به هو هذه القنابل المنهمرة على الشواطئ التي يرسها العدو الذي يتمكن من الإفلات والوصول إلى الشواطئ ، ولسوء الحظ ، سيطر شعور من الغضب والنقمة على سلاحنا الجوي البطل لأن الجنود لم يشاهدوه في سماء المعركة ، ولم يعلموا شيئًا عن الخسائر الهائلة التي كان يلحقها بالعدو ، وقد وصل بعض الجنود إلى دوفر وموانئ التيمز وهم يشتمون زملاءهم الطيارين، جهلاً منهم لتلك الحقيقة المشرفة والبطولة النادرة ، لذلك قررت أن أذيع تلك الحقائق في البرلمان .

أما في البحر فقد ساد النظام الكامل على ظهر السفن والبواخر ، وكان البحر هائجًا مما ساعد على استمرار الهدوء والنظام ، وراحت الزوارق تعمل بهمة لتنقل الرجال من الشواطئ إلى البواخر غير عابئة بالغارات الرهيبة التي كانت تمطرهم بوابل من قنابلها المميتة ، وكان عدد هذه الزوارق الكبير هو وحده الذي تحدي الغارات الجوية ، وثبت أن « أسطول البعوض» الجبار لا يغرق .

❖ ❖ ❖

وفي الحادي والثلاثين من شهر أيار بلغ القتال في دنكرك ذروته ، وقد نقل خلال يومين فقط ما يزيد عن ١٣٢ ألف رجل ، انتقل معظمهم من الشاطئ في زوارق صغيرة تحت وابل من القنابل بل والمدافع ، وقد بذلت القاذفات المعادية أكبر مجهود لها في اليوم من حزيران ، وكانت تركز غاراتها أثناء عودة مقاتلاتنا للتزود بالوقود ، وقد خسرنا عددًا ضخمًا من بواخرنا نتيجة لتلك الغارات ، وبلغ مجموعها مجموع ما غرق في الأسبوع الماضي بكامله ، وبلغت خسائرنا في ذلك اليوم إحدى وثلاثين سفينة بالإضافة إلى إحدى عشرة سفينة أخرى أصيبت إصابات طفيفة، وزاد العدو من ضغطه وهو يأمل في اختراق خطوط دفاعنا إلا أنه لم يتمكن بفضل مقاومة قواتنا الحليفة الخلفية الرائعة .

ومضت المرحلة النهائية لعملية الجلاء بكثير من الدقة والمهارة ، وأصبح بإمكاننا رسم الخطط سلفًا ، بدلاً من اضطرارنا إلى الاعتماد على الظروف والأحداث التي كانت تتغير في كل لحظة ، وعندما حل فجر اليوم الثاني من حزيران لم يبق في ضواحي دنكرك سوى أربعة آلاف بريطاني ومعهم سبعة مدافع مضادة للطائرات و ١٢ مدفعًا مضادًا للدبابات ، ظلوا بالاشتراك مع القوات الفرنسية التي كانت لا تزال تحافظ على خط الدفاع الرئيسي وقرر الأميرال رامسي النزول دفعة واحدة إلى الميناء في تلك الليلة ، إذ لم يعد ممكنًا الانسحاب إلا أثناء الليل ، وأبحرت من إنكلترا في هذه الليلة أربع وأربعون باخرة بالإضافة إلى الزوارق الصغيرة المحتشدة ، كما اشترك في هذه العملية أربعون سفينة أخرى فرنسية بلجيكية ، وتم نقل قوة المؤخرة البريطانية كلها قبل حلول منتصف الليل .

لكن هذه لم تكن النهاية في دنكرك، فقد كنا على أتم الاستعداد لنقل المزيد من القوات الفرنسية الموجودة في الميناء، لكن عندما اضطرت بواخرنا إلى الانسحاب في تلك الليلة، كان على الشواطئ عدد كبير من الجنود الفرنسيين لا يزالون مشتبكين مع العدو في قتال عنيف، وكان علينا أن نحاول مرة أخرى بالرغم من الإعياء المسيطر على بحارتنا من جراء الجهد الهائل الذي بذلوه دون توقف خلال الأيام الماضية دون أن يذوقوا طعمًا للراحة والنوم، وفي اليوم الرابع من حزيران أنزلنا في إنكلترا (٢٦١٧٥) فرنسيًا كان بينهم واحد وعشرون ألفًا في سفن بريطانية، أما الباقون والبالغ عددهم بضعة ألوف، فقد واصلوا القتال عندما وصل العدو إلى ضواحي البلدة بعد أن بلغ بالجنود الإعياء واحتملوا أقسى ما يمكن للطاقة البشرية أن تحتمله بحيث تمكنوا من تغطية انسحاب زملائهم، فسقطوا أسرى في أيدي الأعداء.

وأعلنت الأميرالية أخيرًا في تمام الساعة الثانية والدقيقة الثالثة والعشرين من بعد ظهر يوم الرابع من شهر حزيران انتهاء عملية «دينامو»، وقد تم نقل (٣٣٨٠٠٠) جندي بريطاني وحليف إلى الجزر البريطانية.

❖ ❖ ❖

الفصل الرابع

التسابق نحو المغانم



كانت علاقاتي الشخصية مع موسوليني في المرتين اللتين اجتمعت فيهما معه عام ١٩٢٧، وثيقة، ولم أكن لأحرض حكومتي على مقاطعته حول موضوع الحبشة، أو لأثير نقمة عصبة الأمم عليه، إلا إذا كنا على استعداد لخوض معركة ضده حتى النهاية.

وفي هذه الأثناء، وبعد الكارثة التي ألمت بنا في فرنسا، وجدت أنه يترتب علي بصفتي رئيسًا للوزارة أن أبذل ما في وسعي لإبقاء إيطاليا خارج الحرب، وبالرغم من ثقتي بعدم جدوى هذه المحاولة إلا أنني لم أتردد في استخدام كل ما لدي من نفوذ وطاقات، فبعد ستة أيام من تسلمي للحكم في بريطانيا بعثت بنداء إلى موسوليني، وقد سمحنا بنشر النداء والرد عليه بعد عامين في ظروف مغايرة عن تلك الظروف، وكان تاريخ ندائي هذا هو السادس عشر من أيار عام ١٩٤٠ وهذا نصه:

من رئيس الوزراء إلى السنيور موسوليني:

الآن بعد أن أصبحت رئيسًا للوزارة ووزيرًا للدفاع، فقد رجعت بذاكرتي إلى اجتماعتنا الماضية في روما، فإني أشعر بالرغبة في نقل عبارات حسن النية بوصفك رئيسًا للشعب الإيطالي، عبر ما يبدو أنها ثغرة تتسع بسرعة، هل فات الوقت لصد نهر الدماء من الاندفاع بين الشعبين البريطاني والإيطالي؟ إن في إمكاننا أن نلحق ببعضنا إصابات قوية مؤلمة، وأن يضرب بعضنا البعض دون رأفة، وأن نحيل البحر الأبيض المتوسط إلى ظلام بنزاعنا وخصامنا، فإذا كانت هذه رغبتك، فلتكن كذلك، ولكني أعلن بأني لم أكن يومًا من الأيام عدوا لعظمة إيطاليا أو عدوًا للمشرع الإيطالي الذي منحنا القوانين والشرائع أن من العبث معرفة وجهة هذه المعارك الدائرة الآن في أوروبا، ولكني متأكد من شيء واحد هو أنه مهما حصل في القارة الأوروبية، فإن بريطانيا ستمضي بثبات إلى نهاية الطريق، حتى لو اضطرت إلى البقاء لوحدها كما جرى في السابق، كما أني متيقن من أن المساعدات الأميركية لنا ستزداد، بل أننا سنتلقى العون من الأميركيين أنفسهم.

وأني أرجو أن تصدق، أن الدافع الذي دفعني إلى توجيه هذا النداء إليك، لم يكن الخوف أو الضعف، فهذا النداء سيسجل على صفحات التاريخ، فعبر الأجيال المقبلة وفوق الهتافات، سيبقى الهتاف الوحيد قائمًا بألا يشترك الوارثان للحضارتين اللاتينية

والمسيحية في صراع دموي ضد بعضهما البعض ، وإني أناشدك أن تصغي إلى هذا النداء بكل إجلال واحترام قبل أن تصدر إشارتك المخيفة وعلى كل حال أن هذه الإشارة المخيفة لن تصدر عنا أبدًا ... » .

وكان جواب موسوليني على هذا النداء قاسيًا جدًا ، ولكنه لم يخل من الصراحة، وهذا نص الجواب :

من السنيور موسوليني إلى رئيس الوزراء :

«أجيب على الرسالة التي بعثت بها إلي ، أنك بلا شك مطلع على الأسباب الخطيرة التي حدت ببلدينا إلى الوقوف في معسكرين متعاكسين ولا أرى سببًا للرجوع إلى الماضي، ولكني أذكرك بالدور الذي قامت به حكومتك عام ١٩٣٥ في فرض العقوبات على إيطاليا التي أرادت أن تحتفظ لنفسها بقطعة صغيرة من أرض إفريقيا دون أن تلحق الأضرار بممتلكاتكم أو مصالحكم أو ممتلكات أو مصالح غيركم ، كما أريد أن ألفت نظرك إلى الحالة الراهنة من العبودية الحقيقية التي تجد إيطاليا نفسها فيها وفي بحرها الخاص بها ، وإذا كانت حكومتك تريد المحافظة على كلمتها وتوقيعها ، لذلك أعلنت الحرب على ألمانيا ، فيمكنك إذن فهم حقيقة هذا الشعور بالنسبة لإيطاليا أيضًا التي هي الأخرى تريد المحافظة على كلمتها ومعاهدتها مع ألمانيا ، مهما كانت الظروف والاعتبارات» .

وبعد وصول هذا الرد من موسوليني لم نعد نشك في أنه لا يريد إلا الحرب، فهو سينتظر الفرصة المناسبة ، وقد وجد في هزيمة فرنسا الفرصة الذهبية لإعلان الحرب على بريطانيا وفرنسا معًا، وقد ذكر تشيانو أن موسوليني سيعلن الحرب خلال شهر واحد وفي أقرب وقت يراه مناسبًا بعد الخامس من حزيران ، إلا أن الموعد تأجل إلى العاشر منه بناء لطلب خاص من هتلر نفسه .

وقد حاولت الولايات المتحدة التدخل لمنع إعلان الحرب من جهة إيطاليا ، وبذلت جهودًا هائلة في هذا السبيل ، إلا أن الدكتاتور الإيطالي رفض كل عرض تقدمت به الولايات المتحدة، وفي الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين من بعد ظهر اليوم العاشر

من حزيران ، أبلغ وزير الخارجية الإيطالية سفير بريطانيا أن إيطاليا ستعتبر نفسها في حالة حرب مع المملكة المتحدة منذ منتصف تلك الليلة ، كما وجهت مثل هذا الإشعار إلى حكومة فرنسا أيضًا ، وعندما نقل تشيانو هذا الخبر إلى السفير الفرنسي قال هذا وهو يتجه إلى الباب : «وأنتم أيضًا ستجدون أن الألمان هم سادة قساة» ، وأعلن السنيور موسوليني من شرفة قصره إلى الحشود المتجمهرة أن إيطاليا قد أعلنت الحرب على بريطانيا وفرنسا .

وبدأ الإيطاليون معركتهم بأن راحوا يهاجمون القوات الفرنسية في جبال الألب ، وأعلنت بريطانيا الحرب على إيطاليا في الحال ، وصدرت الأوامر بتوقيف خمس بواخر إيطالية كانت في جبل طارق كما أخطر الأسطول بوجوب توقيف كل باخرة إيطالية يجدها ، وقامت أسراب طائراتنا بالإغارة على تورين وميلانو .

أما فرنسا فلم تتمكن من حشد أكثر من ثلاث فرق بالإضافة إلى عدد مماثل من الحاميات الجبلية ، وذلك لصد أي محاولة للغزو من قبل الإيطاليين عبر الألب وساحل ريفييرا ، وكانت الجيوش الإيطالية تقدر باثنتين وثلاثين فرقة تحت قيادة الأمير أومبرتو ، وفي نفس الوقت شرع الألمان بتطويق الفرنسيين عبر نهر الرون ، وصمدت الفرق الفرنسية المقاتلة أمام الإيطاليين ، حتى بعد أن سقطت باريس وليون في أيدي الغزاة الألمان، وعندما اجتمع موسوليني وهتلر بعد ذلك لم يجد الدوتشي ما يفخر به أمام صديقه ، إذ لم يتمكن الإيطاليون من تحقيق أي نصر في فرنسا رغم محاولاتهم المتكررة .

وكان مقررًا أن يلقي الرئيس الأميركي خطابًا يوم العاشر من حزيران ، واستمعت إلى خطابه العظيم حوالي منتصف الليل وأنا لا أزال في غرفة العمليات الحربية في الأميرالية ، وعندما توجه الرئيس روزفلت بهذه العبارة الجارحة لإيطاليا : « في هذا اليوم العاشر من حزيران عام ١٩٤٠ ، ارتفعت اليد الممسكة بالخنجر وطعنت ظهر جارتها» ، شعرنا جميعًا بالرضا والارتياح ، فقد كان خطابه رائعًا يحمل في طياته بريق الأمل نحونا . وبعثت على الفور برسالة أشكر له فيها عواطفه.

وبعد سقوط فرنسا بدأ التكالب على المغانم ، ولم يكن موسوليني الوحش الوحيد الجائع ، فقد لحقه الدب الذي جاء يركض مع ابن آوي .

لقد كان سير العلاقات الإنكليزية ـ الروسية بسير إلى حد قطع العلاقات مع بريطانيا وفرنسا، خاصة بعد أن غزا الروس فنلندا ، وكانت ألمانيا وروسيا تعملان معًا إلى الحد الذي تسمح به خلافاتها العميقة القديمة ، وراح ستالين وهتلر يعملان بنفس الأسلوب من الدكتاتورية المتشابهة إلى حد كبير ، وكان مولوتوف يثني بشدة على إجراءات هتلر وسياسة ألمانيا العسكرية ، وعندما قام الألمان بهجومهم على النرويج صرح مولوتوف أن الحكومة السوفييتية تقدر كل التقدير جميع الإجراءات التي أرغمت ألمانيا على هجومها هذا ، وقال: إن الإنكليز قد تجاهلوا تمامًا حقوق الدول المحايدة ، ثم أضاف متمنيًا النجاح والتوفيق لألمانيا في إجراءاتها الدفاعية ، وفي يوم العاشر من حزيران أبلغ هتلر زميله ستالين عن ابتداء الهجوم الألماني الكاسح على فرنسا وعلى البلاد المنخفضة المحايدة ، وكتب شولنبرغ يقول : «وقد استحسن مولوتوف هذا الإجراء ، عندما قمت بإبلاغه النبأ ، وقال أنه من الواجب على ألمانيا حماية نفسها صد أي هجوم إنكليزي ـ فرنسي مشترك تقوم به هاتان الدولتان ، وأضاف أنه لا يشك مطلقًا في انتصارنا » .

وفي الرابع عشر من حزيران ، أي يوم أن سقطت باريس ، أرسلت موسكو إنذارها الأخير إلى ليتوانيا تتهمها والدول البلطيكية الأخرى بالتآمر على روسيا ، وتطالبها بإجراء تغييرات شاملة في الحكومة ، وببعض التنازلات العسكرية ، وفي اليوم التالي قام الجيش الأحمر بغزو تلك البلاد التي لم تتمكن من المقاومة ، ثم تعرضت لاتفيا وأستونيا لنفس الطريقة وفرضت عليها حكومات جديدة موالية لروسيا ، كما فرضت عليها حاميات سوفييتية في أراضيها ، ولم تلبث جميع تلك الدول أن انضمت إلى الاتحاد السوفييتي في الثالث في شهر آب .

ووجه الروس إنذارًا إلى رومانيا طلبوا فيه منها التخلي عن بساربيا والجزء الشمالي من بوكوفينا لمصلحة الاتحاد السوفييتي ، وطلبوا أن يصلهم الرد في اليوم التالي ، وقد انزعجت ألمانيا أشد الانزعاج لهذا التصرف من قبل روسيا ، لما يترتب على هذا العمل من إضرار بمصالح ألمانيا في رومانيا ، إلا أنها اضطرت للموافقة طبقًا لارتباطها بمعاهدة ريبنتروب ـ مولوتوف عام ١٩٣٩ الذي اعترفت فيه ألمانيا بحق روسيا بتطبيق سياستها في جنوب شرق

أوروبا ، وبناء على ذلك أوعزت ألمانيا إلى رومانيا بالموافقة فورًا على المطالب الروسية ، وهكذا انسحبت القوات الرومانية من المقاطعتين المذكورتين وانتقلت إليها القوات الروسية، وبذلك أصبحت القوات السوفييتية متمركزة على طول سواحل البلطيق وعلى مصب نهر الدانوب .

❖ ❖ ❖

الفصل الخامس

مأساة فرنسا



عندما أذعنا عدد الذين تم إنقاذهم من دنكرك ، ساد البلاد شعور من الراحة والاطمئنان، لقد ساد شعور من الارتياح بعد فترة طويلة من القلق الذي سرعان ما تحول إلى نوع من الإحساس بالنصر ، فإن إنقاذ ربع مليون جندي شاب من خيرة جنودنا يعتبر نصرًا عظيمًا بعد سنوات طويلة من الهزيمة ، وقد عاد هؤلاء إلى الوطن وهم لا يحملون شيئًا سوى بنادقهم والحراب وبضع مئات من المدافع الرشاشة ، وقد كان الجميع يتمتعون بمعنويات عالية ، وكانوا على ثقة تامة من أنهم سيتغلبون على عدوهم إذا ما أتيحت لهم فرصة ثانية للاشتباك معه .

لكن معركة دنكرك كانت قد خسرتنا كل ما نملكه من معدات ، لا سيما تلك التي أنتجتها معاملنا مؤخرًا ، وأرسلت بها إلى ميدان المعركة في فرنسا ، وستمضي عدة أشهر قبل أن نتمكن من إنتاج وتعويض تلك الخسارة الفادحة ،

لكن العواطف الجياشة في الولايات المتحدة ، وخاصة تلك التي كانت تتأجج في صدور القادة البارزين هناك ، حتمت عليهم التفكير بالموضوع جديًا ، وسرعان ما أصدر الرئيس الأميركي أوامره إلى وزارتي الحربية والبحرية ، كما طلب الجنرال مارشال من نائبه إعداد قوائم بموجودات الجيش الأميركي من سلاح احتياطي ، وفي خلال ثمان وأربعين ساعة كانت القوائم الكاملة جاهزة ، وفي الحال وافق الجنرال مارشال عليها ، وطلب إرسالها إلى بريطانيا وفرنسا، وتضمنت القائمة الأولى نصف مليون بندقية من مجموع مليوني بندقية يعود تاريخ صنعها إلى عامي ١٩١٧ و١٩١٨ وبقيت مختزنة حوالي عشرين عامًا ، وقد أرسل مع كل بندقية ٢٥٠ طلقة، كما أرسل معها أيضًا تسعمائة مدفع من عيار (٧٥) ومليون قذيفة وثمانين ألف رشاش وأنواعًا أخرى من الأسلحة ، وشرعت جميع مخازن الجيش الأميركي بتجميع الأسلحة وتجهيزها وشحنها ، وقد وصل إلى الميناء في الحادي عشر من حزيران اثنتا عشرة باخرة بريطانية لتبدأ بنقل شحنات الأسلحة إلى بريطانيا وفرنسا .

لقد كان هذا العمل الذي قامت به أميركا عملاً رائعًا من أعمال الإيمان والقيادة ، فقد حرمت نفسها من تلك الأعداد الهائلة من الأسلحة لترسلها إلى بلاد يعتبرها الكثيرون من أبناء البلاد أنها قد منيت بالهزيمة .

كانت لا تزال لدينا في فرنسا فرقة جبلية خاصة بقيت وراء السوم وكانت لا تزال في حالة ممتازة ، كما كانت هناك فرقتنا المدرعة الأولى والوحيدة وكتيبة الدبابات اللتان أرسلتا إلى كاليه للمشاركة في عملية الإنقاذ ، ولم يحل شهر حزيران حتى كانت الفرقة هذه قد خسرت أكثر من ثلثي رجالها ، فصدرت الأوامر إليها بوجوب انسحابها إلى ما وراء نهر السين لإعادة تنظيمها ، وفي نفس الوقت جمعنا تسعة أنواع من فرق المشاة التي لم تكن تملك سوى البنادق ، أي أنها كانت شبه عزلاء .

وفي هذا الوقت بدأت المرحلة الأخيرة من معركة فرنسا ، وبدأ هجوم ألماني جديد اتسم بالعنف والقوة خاصة المدرعات التي وفروها لهذه المعركة الفاصلة والتي تدفقت بمجموعها الآن على الجبهة الفرنسية التي كانت تترنح من شدة الضعف ، وحاول الجيش الفرنسي المقاومة للحفاظ على حدود نهر السوم ، لكن فرقتين ألمانيتين تمكنتا من اختراق صفوفه واندفعت نحو روان فعزلت جناح الجيش الفرنسي الأيسر والذي يضم فرقتنا الجبلية، عن بقية أجزاء الجيش ، وصدرت الأوامر إلى الجنرال فورشون بوجوب الانسحاب باتجاه روان ، لكن هذه الأوامر لم تنفذ بسبب بدء انحلال القيادة الفرنسية ، فقدمنا عدة احتجاجات وبيانات إلى القيادة الفرنسية بهذا الشأن لكن دون جدوى ....

وتمكنت فرقتنا من التراجع بعد قتال مرير ضار باتجاه سان فاليري وهي تأمل بالجلاء عن طريق البحر ، لكن الضباب الكثيف حال دون جلاءها ، ووصل الألمان إلى الشواطئ الصخرية وسدت سبل النجاة أمام فرقنا الباسلة بعد أن أصبح الشاطئ تحت سيطرة رشاشاتهم ، واستسلم اللواء الفرنسي وارتفعت الرايات البيضاء فوق البلدة ، فاضطرت فرقتنا الجبلية الباسلة إلى الاستسلام ووقع ثمانية آلاف بريطاني وأربعة آلاف فرنسي في الأسر وكان قائد الفرقة الألمانية المدرعة التي أسرتهم ، هو الجنرال روميل بالذات .

❖ ❖ ❖

تلقيت في الساعة الحادية عشرة من قبل ظهر الحادي عشر من حزيران رسالة من المسيو رينو يطلب فيها مقابلتي في «بريار» على مقربة من أورلبان بعد أن انتقلت العاصمة من باريس، فاستقلت طائرتي بعد الظهر وسافرت يصحبني المستر إيدن وزير الحربية في ذاك

الوقت والجنرال ديل رئيس الأركان والجنرال إيسماي ، وكانت رحلتي هذه هي الرحلة الرابعة إلى فرنسا .

وبدأنا الاجتماع في تمام الساعة السابعة ، فطلبت من الحكومة الفرنسية الاستمرار في الدفاع عن باريس وقلت لهم مؤكدًا ضرورة بدء حرب الشوارع والقتال من بيت إلى بيت لاستنزاف قوة الجيش الغازي ، وقد ذكرت المارشال بيتان بتلك الليالي التي قضيناها سوية في قطاره في مدينة «بوفيه» بعد الكارثة التي حلت بالجيش البريطاني في عام ١٩١٨ ، وذكرته كيف تمكن من إنقاذ الوضع في عملية مشابهة ، وقد ذكرت المارشال بأقوال كليمنصو حين صرح بقوله : «سأقاتل أمام باريس ، وفي داخلها ، ووراءها» وقد أجابني المارشال بيتان بكل اعتزاز وهدوء أنه كان تحت تصرفه في تلك الأيام قوات تبلغ بعددها ستين فرقة ، أما الآن فليس لديه أي منها ، كما ذكرني أن الفرق البريطانية كانت تبلغ بعددها الستين فرقة في تلك الأيام أيضًا ، كما أضاف أن تهديد مدينة باريس لن يغير شيئًا من النتيجة المرتقبة...

وعرض علينا الجنرال ويغان الوضع العسكري بالنسبة إلى المعركة «المائعة» الدائرة على مقربة منا ، وأثنى ثناء كبيرًا على الجيش الفرنسي وبسالته ، وطالبنا بإرسال نجدات عسكرية عاجلة وفي طليعة مطالبه إرسال جميع ما لدينا من أسراب المقاتلات ، واستطرد قائلاً : «أن هذه اللحظة حاسمة ، لذلك لا يجوز الإبقاء على أي سرب من الطائرات المقاتلة في إنكلترا» وقد أجبته على الفور بقولي : « إن هذه اللحظة ليست باللحظة الحاسمة وستأتي تلك اللحظة حين يقوم هتلر بهجومه الجوي على بريطانيا العظمى ، وإذا تمكنا من الاحتفاظ بسيطرتنا على الجو ومن إبقائنا على البحار مفتوحة ، وهذا ما سنقدر عليه حتمًا ، فعندئذ سنعود لاستعادة كل ما فقدتموه » ، لقد كان لدينا خمسة وعشرون سربًا من الطائرات ، وقد قررنا الاحتفاظ بها ولن نفرط بسرب واحد منها مهما كلف الأمر ، فنحن قد قررنا الاستمرار في الحرب إلى أجل غير معلوم ، وأما التخلي عن هذه الأسراب فمعناه القضاء على أملنا الوحيد في الحياة...

وبعد قليل وصل الجنرال جورج الذي اطلع على خلاصة حديثنا السابق ، وبعد أن عرض ملخصًا للوضع القائم في الجبهة ، أكد ضرورة ما سبق وطلبته البدء في حرب

الشوارع وحرب العصابات ، فالجيش الألماني ليس بالقوة التي يبدو عليها حين مجابهته بجيوش مماثلة ، فلو حاول كل لواء من الجيش الفرنسي الاصطدام مع لواء مماثل من الجيش الألماني ، واستعمل في اصطدامه كل ما يملكه الجيش الفرنسي من حيوية ونشاط لتمكن من التغلب على عدوه أو عرقلة تقدمه السريع على الأقل ، وكان ردهم المتخاذل أن الأوضاع أصبحت مخيفة على الطرق التي امتلأت بأفواج اللاجئين الذين تطاردهم نيران رشاشات الطائرات العدوة ، وألحقوا هذا ببيانات عن حالة السكان وعن انهيار الجهاز الحكومي والسيطرة العسكرية، وقال الجنرال ويغان بأنهم قد يضطرون إلى طلب الهدنة ، وقد أجبته بقولي : «إذا وجدت فرنسا ، في هذه المحنة ، أنه من الخير لها استسلام جيشها فعليها أن تبادر إلى إعلان ذلك ولا تتردد بسببنا ، فنحن قد صممنا على المضي في حربنا وعلى القتال إلى الأبد، إلى الأبد والأبد » ، وعندما أعدت لهم قولي أن على الجيش الفرنسي أن يستمر في القتال أينما كان وحيثما استطاع لإنهاك قوة مائة فرقة ألمانية ، أجابني الجنرال ويغان على الفور: «حتى لو قاتلنا ، فسيبقى لديهم مائة فرقة أخرى تقوم بمهاجمتكم واحتلال بلادكم ، وماذا تستطيعون أن تعملوه بعد ذلك ؟ وأجبته : «إن مستشاريّ العسكريين يرون أن طريقة صد أي هجوم ألماني على بريطانيا هي في محاولة إغراق أكبر عدد ممكن منهم في البحر ، أما الباقي فيمكننا تحطيمهم على الشاطئ» .

❖ ❖ ❖

الفصل السادس

مشاكل الدفاع



مشاكل الدفاع:

في هذا الوقت من صيف عام ١٩٤٠ ، أصبحنا منفردين تمامًا بعد هزيمة فرنسا ، ولم يكن في إمكان دول «الدمنيونات» أو الهند أو المستعمرات أن تمدنا بالمساعدات اللازمة التي كنا في أشد الحاجة لها ، وكانت الجيوش الألمانية الضخمة المنتصرة المدربة والتي توفر لديها السلاح الاحتياطي الضخم ، والمستودعات والمصانع التي غنمتها بكل بساطة ، أخذت هذه الجيوش تستعد للمعركة الفاصلة .

أما إيطاليا فوقفت بقواتها الكثيفة الجرارة ، بعد أن أعلنت علينا الحرب، تبحث في شوق عن طريقة لتدميرنا في البحر المتوسط ومصر .

كذلك وقفت اليابان في الشرق الأقصى تنظر إلينا نظرة غريبة يتعذر علينا تفسيرها وتطالبنا في إلحاح وتهديد إغلاق طريق بورما في وجه المساعدات إلى الصين ، كما كانت روسيا تقدم إلى هتلر مساعدات هامة من المواد الأولية ...

أما إسبانيا التي احتلت منطقة طنجة الدولية ، فقد تغدر بنا بين آونة وأخرى وتطالبنا بجبل طارق وربما استنجدت بألمانيا لمساعدتها في احتلاله أو في إقامة بطاريات المدفعية الهائلة لتطويق أسطولنا عبر المضيق ، وفي هذا الوقت كانت الحكومة الفرنسية التي أصبح بيتان رئيسًا لها ، قد انتقلت إلى فيشي ، وأصبح من المنتظر بين لحظة وأخرى أن تعلن الحرب علينا بعد أن أصبحت ميالة إلى فكرة أوروبا النازية ، كذلك أصبح الأسطول الفرنسي في قبضة الألمان في طولون، وهكذا وجدنا أننا لسنا في حاجة إلى المزيد من الأعداء .

ومع أن معنوياتنا لم تضعف ، إلا أن السؤال الذي ظل يراودنا هو : كيف يمكن لنا أن نجتاز هذه الصعوبات القائمة ؟ لقد كان من المعروف أن جيشنا في الوطن لا يحمل سلاحًا أكثر من البنادق، وستمضي فترة من الزمن قبل أن تتمكن مصانعنا من التعويض على ما خسرناه من عتاد في دنكرك ... أليس من العجيب بعد كل هذا ألا يكون العالم كله على يقين من أن ساعتنا الأخيرة قد دنت ؟؟

وانتشر الرعب في الولايات المتحدة وسائر الدول الأخرى الحرة ، وأخذ الأميركيون

يتساءلون في اهتمام : هل من واجبهم أن يجازفوا بمواردهم المحدودة الضئيلة إرضاء للمشاعر الطيبة وحدها وإن كانت المخاطرة ميؤوسًا منها ؟

أليس من الأجدى أن يبذلوا أي جهد وأن يوفروا كل سلاح لملاقاة ضعف استعدادهم ، وكان التغلب على هذه الأسانيد ، يتطلب منطقًا مستقيمًا وعلى جانب من الثقة ، ولا ريب في أن الشعب البريطاني مدين لرئيس الولايات المتحدة وكبار القادة والمستشارين ؛ لأنهم على الرغم من اقتراب موعد انتخابات المرة الثالثة للرئاسة لم يتخلوا عن ثقتهم القوية في تصميم بريطانيا وقدرتها على النضال ، وليس من شك في أن تصميم بريطانيا القوي الذي لم ينله أي ضعف أو وهن كان عاملاً من عوامل رجحان كفتنا في القتال .

إن هذا الشعب الذي ظل في سنوات ما قبل الحرب يسير في طريق المسالمة وعدم التفهم، ويخوض غمار المهازل الحزبية ، ويغرق إلى أبعد الحدود في لجة السياسات الأوروبية بلا خوف ... ها هو الآن يلاقي مصير تقصيره في التأهب والاستعداد ، وثمرة اتكاله على النوايا الحسنة والحوافز الكريمة ، ولكن العالم يراه في الوقت نفسه مصممًا على أن تصبح هذه البلاد قطعة من الخراب قبل أن تبدو جزيرته خانعة ذليلة ...

وهذه بلا جدال إحدى صفحات التاريخ الرائعة ، ولكنها ليست الصفحة الوحيدة به ، فعندما استولى الإسبرطيون على أثينا ، أصرت قرطاجة على الصمود والاستبسال حتى الموت أمام روما ، والتاريخ حافل بصفحات كثيرة عن شعوب استماتت في النضال ، ودول شجاعة تفيض بالكبرياء ... آثرت أن تغنى وتموت وألا يبقى لها أثر .

ولم يكن هناك في ذلك الحين سوى أقلية معدودة من البريطانيين والأجانب تقف على الأهمية الإستراتيجية لموقعنا الجغرافي المنعزل ، ولم يكن كثيرون قد عرفوا في مدى سنوات ما قبل الحرب إننا كنا نحافظ على مقومات دفاعنا البحري والجوي ، وقد مضى على الجزر البريطانية ما يقرب من ألف عام لم تشهد أرضها نيران غزو من الجو ، وظل كل بريطاني في قمة الكفاح محتفظًا بهدوء أعصابه، راضيًا كل الرضا بالتضحية بحياته في سبيل بلاده ، وسرعان ما أخذ الأعداء والأصدقاء في سائر بلاد العالم يدركون أن هذه هي طبيعتنا الأصلية ... وماذا يكمن خلفها ؟ أنه الأمر الذي يمكن أن يظهر في الشدائد ..

وكانت هناك ناحية أخرى، فقد تعرضنا خلال شهر حزيران لخطر كبير ... فقد رأينا آخر ما لدينا من قوات احتياطية تسحب ليقضي عليها في محاولة يائسة في فرنسا، وأن قواتنا الجوية تتضاءل شيئًا فشيئًا في هذه الغارات التي نمضي بها إلى القارة أو في نقلها إلى هناك، ولو كان هتلر موهوبًا، أو متمتعًا بحكمة خارقة، لأبطأ في هجومه على الجبهة الفرنسية مدة ثلاثة أسابيع أو أربعة بعد معركة دنكرك على خط نهر السين، ليتم استعداداته للهجوم على بريطانيا ... ولو حدث هذا لأصبحنا في وضع مخيف لا خيار لنا فيه، فإما أن نتخلى عن فرنسا وفي هذا تعذيب لنا، وألم لفرنسا، وإما أن ننشر قواتنا وننشرها مع ما في هذه القوات من ضرورة قصوى لمستقبلنا وحياتنا، إذ كلما حفزنا الفرنسيين على المضي في القتال، تحتم علينا نحن أن نزيد في العون لهم، وهذا يؤدي إلى اشتداد الصعوبات في طريق إعدادنا للدفاع عن بريطانيا نفسها، ولاسيما بالنسبة للأسراب الخمسة والعشرين من طائراتنا المقاتلة التي يتوقف مصير كل شيء عليها، وبالطبع كان مستحيلاً أن نتخلى عن هذه الأسراب، ولكن رفضنا سيؤدي بالتأكيد إلى إغضاب حليفتنا الباسلة مما يعكر صفو علاقاتنا، وعلى هذا فقد رأينا عددًا من كبار قادتنا، ينظرون إلى مشكلاتنا الهينة نوعًا ما، بعد أن أصبحنا وحدنا، نشعر بشيء من الراحة، وكأن عبئًا ثقيلاً قد نزل عن كواهلهم، وأصبح وضعنا كوضع مدرب أحد النوادي العسكرية الذي أخذ يخاطب لاعبًا قد تهاوت معنوياته بقوله: «أيا ما كان الأمر فقد بلغنا المعركة الفاصلة، وسيكون نادينا ميدانها».

❖ ❖ ❖

لم تكن القيادة الألمانية العليا، حتى هذه الفترة قد استهانت بقيمة ما عليه مركزنا من قوة، وقد ذكر تشيانو أنه قابل هتلر في برلين في ١٧ تموز عام ١٩٤٠ وتحدث مع الجنرال فون كايتل طويلاً، كما تحدث هتلر نفسه عن غزو لبريطانيا، فأكد له أن الرأي لم يستقر نهائيًا على أي شيء وقد ذكر أن عملية النزول إلى البر في إنكلترا غير مستحيلة إلا أنها صعبة جدًا، ويجب أن تقوم بها ألمانيا وهي في غاية الحذر، إذ إن أخبارنا عن الترتيبات العسكرية في الجزيرة، وطرق الدفاع عن شواطئها قليلة وغامضة ومثبتة في صحتها، وأضاف كايتل أن ما يبدو سهلاً وجوهريًا هو شن هجوم جوي مركز على المطارات والمصانع ومراكز

المواصلات الرئيسية في بريطانيا العظمى، ومن المحتم أن يعرف كل إنسان أن السلاح الجوي البريطاني في منتهى القوة، وذكر كايتل أن هذا السلاح الجوي يتألف من حوالي ألف وخمسمائة طائرة مستعدة للدفاع والهجوم المضاد، كما اعترف أن الغارات التي يقوم بها السلاح الجوي البريطاني قد تزايدت كثيرًا، وأن من ناحية إصابة الأهداف من الجو فهم في غاية المهارة، وكان عدد الطائرات المغيرة في كل مرة يصل إلى الثمانين لكن بريطانيا تعاني نقصًا كبيرًا في الطيارين، وليس في وسعها أن تستعيض عن هؤلاء الذين يهاجمون المدن الألمانية الآن، بالطيارين الجدد الذين ينقصهم التدريب إلى حد كبير.

وأصر كايتل على ضرورة توجيه ضربة إلى جبل طارق لقطع شرايين المواصلات البريطانية وشل حركتها، ولم يشر كايتل أو هتلر إلى مدة الحرب أو أجلها، وكان هملر وحده الذي ذكر عرضًا أن الحرب يجب أن تنتهي قبل ابتداء شهر تشرين الأول.

هذا هو التقرير الذي وضعه تشيانو في مذكراته، وقد عرض على هتلر استجابة لطلب الدوتشي العاجل إمداده بحوالي عشر فرق من قواته ووحدة جوية تتكون من ثلاثين سربًا للمساهمة في الغزو وقد اعتذر هتلر عن قبول القوات البرية في لباقة، ووصلت بعض الأسراب الجوية الإيطالية، لكنها لم تصب نجاحًا في مهمتها كما سنرى.

وقد ألقى هتلر في ١٩ تموز خطاب القائد المنتصر في الرايشتساغ، وبعد أن تنبأ بأني سألجأ إلى كندا، قدم ما يمكن أن يسمى عرضًا للصلح، وقد أرفق عرضه هذا بمذكرات دبلوماسية أرسلت عن طريق السويد والولايات المتحدة والفاتيكان - وبدا من الطبيعي بعد أن خضعت أوروبا كلها لإرادته، سيكون في غاية السرور إذا تمكن من الحصول على موافقة بريطانيا على كل ما فعله، ولم يكن العرض في الحقيقة يتناول السلام، وإنما يتناول الاستعداد لتقبل إذعان بريطانيا للتخلي عن كل ما خاضت الحرب من أجله.

وفكرت في أول الأمر في إثارة الموضوع بصفة رسمية في البرلمان، ولكن زملائي الوزراء رأوا أن مثل هذا العمل يؤدي إلى التشويش حول موضوع كنا جميعًا متفقين حوله، وتقرر عوضًا عن ذلك أن يكلف وزير خارجيته بالرد على عرض هتلر في إذاعة موجهة في يوم ٢٢ تموز يرفض فيها دعوة هتلر ... وأذيع الحديث الذي «قذف جانبًا» بدعوة هتلر

«للاستسلام لإرادته» ثم قارن بين أوروبا الهتلرية ، وأوروبا التي نقاتل في سبيل حمايتها ، وأعلن أننا لن نتوقف عن القتال حتى نضمن وجود الحرية .. وفي خلال ذلك كانت الصحف البريطانية والإذاعة قد رفضت أي حديث عن الصلح ، دون تدخل من حكومة جلالته ، وإنما بدافع من نفسها بعد الاستماع إلى خطاب هتلر من الإذاعة .

ويذكر تشيانو في مذكراته أنه « عندما أذيع أول رد بريطاني ، الذي كان متسمًا بالبرودة ، على الخطاب في الساعات الأخيرة من ليلة ١٩ تموز ... ساد بين الألمان شعور بخيبة الأمل ، بيد أن هتلر كان يتطلع إلى التفاهم مع بريطانيا العظمى ، فقد كان يدرك أن الحرب مع البريطانيين ستكون قاسية تفيض بالدماء - وهو يدرك تمامًا أن الناس في كل مكان يكرهون سفك الدماء - أما موسوليني فيخشى من ناحية أخرى أن يجد الإنكليز في خطاب هتلر الماكر للغاية مبررًا للبدء في المفاوضات ، وهذا مما يحز في نفس موسوليني لأنه يرغب في الحرب الآن أكثر من أي وقت مضى ، وأيًا كان الأمر فلم يكن موسوليني في حاجة إلى الغضب أو الثورة ، فسيتاح له أن يخوض كل أهوال الحرب التي يتمناها .

وقد قدم رؤساء أركان الحرب بواسطة الجنرال إيسماي اقتراحًا في أواخر شهر حزيران ليزور المناطق المهددة في السواحل الجنوبية والشرقية ، وتلبية لهذا الاقتراح خصصت يومًا أو يومين من كل أسبوع للقيام بهذه الزيارة المحبوبة ، وكنت أنام عندما تفرض الظروف في قطاري الخاص الذي تهيأت لي فيه كل أسباب الراحة ليتاح لي أداء أعمالي العادية بكل انتظام .. مع العلم أني كنت أتصل دائمًا (بهوايتهول) . وقد قمت بزيارة «التاين» و «الهامبر» وغيرهما من الأماكن المهددة بإنزال محتمل ، وشاهدت مناورة للفرقة الكندية في كنت ، وقمت بالكشف عن الخطوط الدفاعية الداخلية في هارويتسن ودوفر ، وكانت إحدى زياراتي الأولى للفرقة الثالثة التي يقودها الجنرال مونتغومري وهو ضابط لم أكن قد التقيت به، وقد صحبتني زوجتي في هذه الزيارة للفرقة المذكورة المرابطة على مقربة من برايتون . وكانت هذه الفرقة قد أعطيت أهمية خاصة من ناحية الإعداد ، وكانت على وشك الإبحار إلى فرنسا عندما انهارت المقاومة الفرنسية .

وقد أقام الجنرال مونتغومري مركز قيادته في ستيتنج ، وأراني مناورة صغيرة كانت

الحركة الرئيسية فيها مناورة قامت أساسًا على تحركات حاملات مدافع برن الرشاشة التي لم يكن في استطاعته أن يستخدم منها حينذاك سوى سبع أو ثماني حاملات . ومضت بنا السيارة بعد ذلك على الساحل عبر «شورهام» و «هوف» إلى أن وصلنا إلى جبهة برايتون المعروفة التي لي فيها الكثير من الذكريات القديمة . وقد تناولنا عشاءنا في فندق «البيون» الملكي الذي يقع على الناحية المواجهة لرصيف الميناء الداخلي . وكاد الفندق أن يكون مقفرًا من الناس بسبب عمليات الانسحاب الأخيرة، ومع ذلك فكان هناك من يستنشق الهواء الطلق ويتنزه على الشاطئ ، وفي الميادين وقد سرني أن أرى طائفة من «حرس قاذفي القنابل» يمهدون مركزًا لمدفعهم الرشاش في أحد أكشاك الرصيف . فذكرني ذلك بما كنا نفعله في طفولتنا ونحن نعبث بالمخلفات القديمة. وكان الجو رائعًا جميلاً ، وتحدثت إلى القائد أحاديث مثمرة ... والحق أني كنت شديد السرور بهذه الزيارة .

وفي منتصف شهر تموز اقترح على وزير الحربية إحلال الجنرال بروك محل الجنرال أيرونسايد في قيادة الجيوش ، وفي ١٩ تموز حينما كنت أطوف لاستطلاع القطاعات المعرضة للهجوم زرت القيادة الجنوبية ورأيت التجربة الواقعية التي ساهمت فيها اثنتا عشرة دبابة تقريبًا ، وبقيت في السيارة طيلة بعد الظهر مع الجنرال بروك الذي كان يتولى قيادة تلك الجبهة، ولا شك أن سجل ماضيه كان رائعًا ، فقد قاد المعركة الفاصلة عند «إيبرس» أثناء عملية الانسحاب إلى دنكرك، ثم تمكن بما أوتي من حذق وصلابة ، وفي وسط عوامل في منتهى الصعوبة والقوة ، عندما كان يقود القوات الجديدة التي أرسلناها إلى فرنسا خلال الأسابيع الأولى من شهر حزيران ، تمكن من إنقاذ حملته ، وكانت تربطني به صلة أيضًا عن طريق أخوية البطلين اللذين كانا لي صديقين في بداية حياتي العسكرية .

على أن هذه العلاقات والذكريات لم يكن لها أي تأثير على وجهة نظري في موضوع حيوي كهذا الذي يتصل باختيار القائد العام ولكنها وثقت الصلات بيني وبين الآن بروك في غضون الحرب . وقطعنا ما يقارب الأربع ساعات معًا في السيارة في ذلك اليوم من تموز عام ١٩٤٠ ، وكنا على اتفاق تام بشأن كافة وسائل الدفاع في داخل الوطن . وبعد المشاورات الضرورية مع الآخرين وافقت على اقتراح وزير الحربية بتولي بروك القيادة العامة

خلفًا للجنرال أيرونسايد الذي واجه إحالته إلى التقاعد بما اشتهر عنه من اعتزاز في جميع الظروف التي تمت بها أعماله العسكرية .

وظل بروك في القيادة سنة ونصف تعرضنا فيها لخطر الغزو ، فنظم القوات تنظيمًا حسنًا، وعندما صار فيما بعد رئيسًا لأركان حرب القوات الإمبراطورية استمر التفاهم بيننا رائعًا حتى انتهينا إلى النصر ، وسأورد بعد قليل المكاسب التي حققتها من استشارته في إجراء تغييرات حاسمة في القيادات في مصر بالشرق الأوسط في شهر آب عام ١٩٤٢ ، وما كان لها من خيبة أمل في موضوع قيادة عملية الغزو عبر القنال (المانش) في عملية السيد الأكبر (أوفر لورد) عام ١٩٤٤ . وقد أدى خدمات جليلة في المدة الطويلة التي عمل فيها رئيسًا للجنة رؤساء أركان الحرب ، في معظم سني الحرب ورئيسًا لأركان حرب القوات الإمبراطورية ، لا للإمبراطورية البريطانية فحسب بل للحلفاء جميعًا ، وسأحكي في هذه القصة بعض الاختلافات في وجهات النظر التي حدثت فيما بيننا أحيانًا ، وأقص كذلك كثيرًا من المسائل التي اتفقنا فيها وهي تؤكد مدى صداقتنا كل التأكيدات .

❖ ❖ ❖

وفي هذا الشهر وصلت إلينا كميات وافرة من السلاح الأميركي عبر الأطلنطي من غير أن تمس بسوء . وبينما كانت البواخر تقترب من سواحلنا بما تحمله من عتاد لا يقدر بثمن، كانت هناك قطارات خاصة أعدت لتحملها من الموانىء ، وقد مكث الحرس الوطني في كل مقاطعة وكل بلدة وكل قرية متلهفًا على تسلم هذه الأسلحة ، وأكب الرجال والنساء على العمل بكل قواهم لتجهيز هذه الأسلحة وجعلها صالحة للاستعمال . وهكذا أصبحنا في نهاية شهر تموز شعبًا مسلحًا على أهبة الاستعداد لمواجهة أي غزو يقوم به المظليون . نعم لقد أصبحت بريطانيا أشبه ما تكون «بخلية نحل» وإذا قدر لمقاومتنا أن تنهار ، وهو احتمال بعيد ، فإن حشدا من الرجال والنساء، سيظل شاكي السلاح وقد استطعنا بوصول الدفعة الأولى من البنادق الأميركية إلى حرسنا الوطني بصرف النظر عن ضآلة كمية الطلقات التي لم تزد عن خمسين طلقة لكل قطعة ، استطعنا أن نزود جيشنا العامل بثلاثمائة ألف بندقية بريطانية .

وبدأ كثير من الخبراء يجهزون بكل سرعة مدافع الخمسة والسبعين ملليمترًا التي وصلت إلينا، ومع كل مدفع منها ألف قذيفة ، ولم يكن بحوزتنا معدات لإيصال المدافع بعرباتها كما أنه لم توجد لدينا الوسائل العاجلة لإنتاج عدد أكبر من القذائف على الرغم من أن المدافع المختلفة الأحجام تعقد العمليات الحربية ، إلا أنني صممت منذ البداية على استخدامها . وأصبحت هذه المدافع منذ وصولها إلينا وطيلة عامي ١٩٤٠ و ١٩٤١ جزءًا مهما في قوتنا العسكرية المدافعة عن الوطن . كما قمنا بعمل ترتيبات خاصة تعد مبتكرة دربنا عليها عددًا من الرجال لإدارة هذه المدافع وربطها في سيارات الشحن لنقلها من مكان إلى آخر ، وعندما تقاتل دفاعًا عن كيانك فإن وجود مدفع خير من عدمه . وقد مكث المدفع الفرنسي من طراز ٧٥ ملليمترًا سلاحًا فعالاً بالرغم من قدمه بالنسبة للمدافع البريطانية الحديثة من طراز ٢٥ رطلاً والمدافع الألمانية (هاوتزر) .

وعندما مضت أشهر تموز وآب دون أن تنزل بنا الكارثة الساحقة ، هدأنا بعض الشيء وازدادت ثقتنا في مقدرتنا على خوض غمار حرب طويلة قاسية ، وكنا نشعر بقوتنا تزيد يومًا عن يوم . فكل فرد في المجموع يعمل بكل طاقته ليل نهار ، ويمضي إلى نومه بعد ذلك شاعرًا بثمار أعماله، واثقًا بأن الوقت أصبح في صالحنا ، وإننا سننتصر في الحرب دون شك .

وازدحمت الشواطئ الآن بمختلف أنواع الوسائل الدفاعية وتم تنظيم البلاد كلها في مجموعات ووحدات دفاعية وغدًا السلاح يتدفق من المصانع ، ولم يكتمل شهر آب حتى أصبح في حوزتنا مائتان وخمسون دبابة جديدة . وبدأنا نجني ثمار المساعدة الأميركية وأخذ رجال الجيش البريطاني العامل وزملاؤهم من رجال الجيش الإقليمي يقومون بتدريباتهم في ساعات الصباح الباكر حتى المساء ، وبهم لهفة إلى لقاء العدو ، وازداد عدد جنود الحرس الوطني إلى ما فوق المليون ، وعندما كان ينقصهم السلاح كانوا يعمدون إلى استخدام أسلحة الصيد والرياضة والمسدسات الخاصة وأحيانًا الفؤوس والمجارف . ولم يتكون في بريطانيا طابور خامس ، وأن صادفت قوات الأمن بعض الجواسيس ، أما القلة الشيوعية الموجودة في بلادنا فقد تلاشت أصواتهم على حين أقدم الشعب كله على بذل كل ما يستطيع من تضحيات غالية .

وعندما زار فون ريبنتروب روما في أيلول قال لتشيانو : «إن الدفاع الإقليمي عن إنكلترا لا وجود له بلا شك ، وأن فرقة ألمانية واحدة يمكنها أن تؤدي إلى انهيار كامل فيها» إن قوله هذا يكشف عن جهله الفاضح بنا ، وعلى كل فقد تساءلت في قرارة نفسي : ماذا يكون لو تمكن مائتا ألف ألماني من جنود العاصفة التجمع على شواطئنا ؟ لاشك بأن المذبحة ستكون رهيبة مروعة لدى الفريقين - إذ لم يكن هناك مجال للرحمة أو الشفقة ، فقد كان الألمان على استعداد لاستخدام الإرهاب ، وكنا من ناحيتنا على استعداد للمضي في المقاومة إلى أقصى حد ممكن . وقد قررت تطبيق المثل السائر : «بوسعك دائمًا أن تمضي بشخص آخر معك بعيدًا عن هذه الدنيا» وقد قدرت أن أهوال هذا المنظر ستقضي بالنهاية إلى ترجيح كفة الولايات المتحدة ، لكن كل هذه العواطف لم توضع موضع التجربة والاختبار ، وفوق مياه المانش ومياه بحر الشمال الزرقاء ربضت عشرات العمارات البحرية المتلهفة على القتال ساهرة الليل بطوله ، بينما كان طيارو المقاتلات يحلقون في السماء أو يقفون إلى جانب طائراتهم استعدادًا لتلقي أي إشارة تصدر إليهم .

حقًا لقد كانت تلك الفترات جديرة بالحياة أو الموت . إذا وقفت على حقيقة القوات البحرية فقد وقفت على معرفة لها شأنها وروعتها . فاقتحام جيش لمياه المحيطات والبحار ، بالرغم من وجود أساطيل قوية وعمارات بحرية هائلة أمامه ، عمل حربي معجز ، وقد أضاف البخار كثيرًا من القدرات إلى إمكانيات الأسطول في الدفاع عن بريطانيا العظمى . ففي عصر نابليون كانت الرياح تستطيع الدفع بقواربه المسطحة القعر إلى الخلف ، لكن ما حصل بعد ذلك قد ضاعف من تفوق الأساطيل القوية ومقدرتها على تحطيم الغزاة وهم في الطريق . وأدى كل تعقيد في الأجهزة الحديثة بالنسبة إلى الجيوش إلى أن أصبحت مهمتها أكثر صعوبة ومشقة ، وإلى أن صارت المتاعب التي تواجه قيادتها في تزويدها بالعتاد والذخائر بعد إنزالها أمرًا فوق الطاقة ، وفي أزمة الحرب السابقة التي اهتز فيها مصيرنا كانت لنا قوة بحرية متفوقة ، ولم يستطع العدو كسب معركة بحرية واحدة هامة ضدنا ، لقد عجز عن مجابهة قوة طراداتنا وبالطبع كانت ثمة فرص أكثر من أن تعد تتصل برداءة الطقس وخاصة في حال تكاثف الضباب ، على أنه على فرض قيام هذه الفرص المعادية لنا واستطاع

العدو النزول إلى شواطئنا في مكان أو أكثر ، فإن مشكلة تزويد هذه القوات بما يلزمها وتغذيتها بأية تجمعات أخرى ، هذه المشكلة تظل مستعصية الحل . هكذا كان الوضع في الحرب العالمية الأولى . أما الآن فقد دخل عنصر الطيران ، فما هو تأثير هذا التغيير الرئيسي على الغزو ؟ من الظاهر أن العدو إذا تمكن من السيطرة على مضايق دوفر ، بقوته الجوية المتفوقة ، فإن خسائرنا في المدمرات ستكون كبيرة للغاية ، وقد تكون أيضًا قاضية علينا ، ولن يوجد إنسان لديه الرغبة في الإتيان ببوارج ضخمة أو طرادات كبيرة إلى مياه تسيطر عليها القاذفات الألمانية ، وبالفعل لم نضع أي بواخر ضخمة إلى الجنوب من «فيرث أوف فورث» أو إلى الشرق من «بلايموث» ، ولكننا جهزنا في هارويش ونور ودوفر وبورتسماوث وبورتلاند دوريات دائمة اليقظة تتألف من سفن حربية خفيفة ، وقد أخذ عددها يتكاثر باستمرار ، ولم يأت شهر أيلول حتى صار العدد أكثر من ثمانمائة ، ولم يكن في الإمكان بعد ذلك تدميرها إلا بواسطة قوة جوية متفوقة معادية تحاول العمل على عدة مراحل .

وهنا يرد السؤال : لمن كان التفوق في الجو ؟ لقد كنا نقاتل الألمان في معركة فرنسا وهم متفوقون علينا في العدد بضعفين أو بثلاثة أضعاف ، وبالرغم من ذلك فقد ألحقنا بهم خسائر تعادل النسبة السابقة ، وفي سماء دنكرك وقد فرض علينا الاحتفاظ بدوريات مستمرة لتغطية إنقاذ جيشنا، كنا نحاربهم بكسب وغنم على الرغم من تفوق عددهم بنسبة أربعة أضعاف أو خمسة، وتوقع مارشال الجو الأعلى داودنج ، قدرتنا على قتالهم وصد هجماتهم بنجاح ، فوق مياهنا وشواطئنا ومقاطعاتنا المكشوفة ، حتى لو تفوقوا علينا بنسبة سبعة أو ثمانية أضعاف .

وقد كانت قوة السلاح الجوي الألماني في ذلك الحين حسب معلوماتنا الصحيحة تعادل ثلاثة أضعاف ما نملكه ، وبالرغم من أن هذا التفاوت كبير بالنظر إلى القتال مع أعداء شجعان أقوياء كالألمان . فقد توصلت إلى النتيجة التي سبق التوصل إليها ، وهي أن في سمائنا وفوق بلادنا ومياهنا نستطيع الانتصار على السلاح الجوي الألماني ، وإذا صح هذا فإن بحريتنا هي الأخرى ستبقى محتفظة بسيطرتها على البحار والمحيطات وستقوى على إحباط محاولات الأعداء الذين يحاولون شق طريقهم إلينا .

ويبقى عامل ثالث في الإمكانيات والاحتمالات ، فلو تمكن الألمان بما عرف عنهم من

مقدرة . وبعد في النظرة - من تجهيز حملة كبيرة بطريقة سرية تحوي قطعًا خاصة للإنزال لا تحتاج إلى موانئ أو أرصفة ، وإنما تقوم بعملية الإنزال للدبابات والمدافع والسيارات المدرعة في أي نقطة مناسبة على الشاطئ ، فهل يقدرون بعد ذلك على تزويد هذه القوات بالمؤن ؟ ومع أنه لم يكن لدينا أي مبرر يحملنا على الاعتقاد بوجود مثل هذه المخترعات لدى العدو ، إلا أن قواعد الحساب الصحيحة تقضي باحتمال الخسائر تمامًا كالأرباح .

وتطلب منا إيجاد المعدات التي لزمتنا في عملية غزو نورماندي ، بذل جهد كبير متواصل بالإضافة إلى التجارب والعون المادي الضخم من جانب الولايات المتحدة الأميركية طوال أربع سنوات ، وبالحقيقة لم يكن الألمان بحاجة إلى هذا العدد الكبير من المعدات في مثل هذا الوقت ، إلا أنهم كانوا يملكون معابر قليلة في العدد .

وهكذا أوجبت علينا مشكلة غزو بريطانيا في صيف عام ١٩٤٠ وفي الخريف من نفس العام، تفوقًا جويًا ضخمًا وإمكانية ضخمة في السيطرة على المياه الإقليمية بالإضافة إلى كميات هائلة من معدات الإنزال . لكن السيطرة على البحار كانت إلى جانبنا ، كما كان لنا التفوق الجوي ، وكنا على ثقة - وقد ثبت لنا فيما بعد صحة هذا الاعتقاد بأن الألمان لم يقوموا ببناء قطع بحرية ضرورية للإنزال.

هذه هي أسس تفكيري عام ١٩٤٠ وكان هناك الكثير من الحديث حول هذا الموضوع بالذات والكثير من القلق في شهر تموز لدى الدوائر الحكومية وخارجها ، وبالرغم من عمليات استطلاعها المستديمة عن سفن النقل الألمانية في البلطيق أو في مرافئ الراين والشلدات ، وقد كنا على يقين كذلك من أن أية بواخر أو صنادل من ذوات المحرك الآلي لم تعبر المضائق إلى بحر المانش، فبالرغم من كل هذا فقد كان شغلنا الشاغل هو التجهيز والاستعداد الكامل لمواجهة أي غزو وسحقه . وكنا نعتمد اعتمادًا كليًا على تفكيرنا هذا في وزارة الحربية وفي القيادة العسكرية.

وكانت خطة الألمان التي كشف عنها ، تعتمد على وجوب الغزو عبر القنال بسفن متوسطة الحجم تتراوح حمولتها بين أربعة آلاف طن وخمسة آلاف ، بالإضافة إلى قطع

صغيرة أخرى ، والآن نحن نعلم أنهم لم يكونوا يتطلعوا إلى المضي بجيوشهم من مرافىء البلطيق أو بحر الشمال في سفن كبيرة ، كما أنهم يفكروا بالغزو في موانئ بسكاي ، وهذا لا يعني أنهم كانوا منصفين حين اختاروا الساحل الجنوبي كهدف لغزوهم ، وإن كان كل منا على خطأ ، فعملية غزو الساحل الشرقي كانت ذات قيمة أكبر لو تمكن العدو من أن يؤمن السبل والوسائل لتلك المحاولة ، وطبعًا لم يكن هناك من مجال لغزو الساحل الجنوبي إلا بعد أن تمر البواخر الضرورية جنوبًا عبر مضيق دوفر ، بعد أن تتجمع في المرافىء الفرنسية القائمة على القنال ، وطوال شهر تموز لم نر أثرًا لشيء من هذه التحركات .

وبالرغم من كل هذا فقد ترتب علينا أن نستعد لكافة الظروف والاحتمالات ، وإلا نوزع قواتنا المتحركة في الوقت ذاته ، وأن نقوم بجمع قواتنا الاحتياطية وحشدها ، وفي الإمكان حل هذه المشكلة المستعصية والشائعة في نفس الوقت ، فالأحداث تتوالى من أسبوع لآخر والساحل البريطاني المعروف بكثرة تعاريجه يبلغ طوله أكثر من ألفي ميل ، باستثناء أيرلندا ، والسبيل الوحيد للدفاع عن محيط متسع كهذا قد يتعرض أي جزء منه أو جزءان منه في وقت واحد لهجوم مفاجئ ناجح يحتم علينا إنشاء مراكز للمراقبة والمقاومة حول الشاطئ ، أو الحدود غايتها عرقلة الزحف الأجنبي مع إيجاد أكبر قوة ممكنة من الاحتياطي ، في الوقت نفسه تضم جنودًا مدربين وعاملين في وحدات متحركة ، يمكنها الوصول إلى أي مكان يقع عليه هجوم مفاجئ في أقصر مدة ممكنة ، ثم البدء في هجوم معاكس .

وعندما وجد هتلر نفسه محاطًا ـ في مراحل الحرب الأخيرة ـ بالأعداء ، وواجه نفس المشكلة ، وقع في أخطاء كبيرة خين عالجها ، فلقد أقام شبكة من المواصلات تشبه نسيج العنكبوت ، لكنه نسي العنكبوت نفسه ، ولما كانت قصة تشتيت القوات الفرنسية الخاطئة التي أدت إلى الكارثة ، واقتضتنا ثمنًا فادحًا لا تزال حاضرة في ذهني ، فإنني قد صرفت جهدي كله منذ البداية إلى حشد قوات المناورة ، وقد رسخت هذه السياسة في نفسي إلى أقصى حد ممكن تسمح به مواردنا المتضاعفة .

وقد التقت آرائي بوجهات نظر البحرية ، وأرسل إلى الأميرال باوند بيانًا مفصلاً في ١٢

تموز أعده بالاشتراك مع رؤساء أركان حربه، الذي كان قائمًا على هذه الأسس النظرية، وقد فصل البيان بالطبع جميع الصعوبات التي علينا مواجهتها وقال الأميرال باوند في إجماله للخطة: «ربما يصل إلى شواطئنا ما يقارب المائة ألف جندي دون أن تكون لدينا القوات البحرية الكافية لقطع الطريق عليهم ووقفهم».

إلا أن الإبقاء على خط مواصلات لتموين هذه القوات أمر مستحيل عمليًا إذا استطاع السلاح الجوي الألماني أن يتغلب على سلاحنا الجوي وأسطولنا في نفس الوقت، وإذا ما قام العدو بعملية كهذه فربما كان التقدم نحو لندن بسرعة والاعتماد في تموينه على البلاد التي يحتلها في طريقه، على حين يرغم الحكومة على الخضوع والاستسلام، وقد اقتنعت بهذا الاحتمال اقتناعًا تامًا، وتغير الوضع تغيرًا حاسمًا في شهر آب، فقد تأكد لمخابراتنا الماهرة أن هتلر قد أصدر تعليماته بالإعداد لعملية «أسد البحر»، وأن هذه العملية في دور الإعداد الفعلي في هذا الوقت، وبدا لنا بشكل نهائي أن الرجل سيقدم المغامرة وكانت الجبهة التي سيهجم عليها تختلف تمامًا، وقد تكون ثانوية بالنسبة للساحل الشرقي الذي كنت أنا قد وجهت إليه بالغ العناية مع رؤساء أركان الحرب الأميرالية، وسرعان ما بدأ عدد كبير من الصنادل ذوات المحرك الآلي، والزوارق البخارية يعبر مضايق دوفر أثناء الليل زاحفًا بالقرب من الشاطئ الفرنسي، ليتجمع شيئًا فشيئًا في سائر الموانئ الفرنسية الممتدة من كاليه إلى بريست، وكانت الصور الفوتوغرافية التي ترد إلينا كل يوم تظهر لنا هذه التنقلات بدقة وعناية، ورأينا أنه من العسير علينا أن نزرع ألغامنا على مقربة من الساحل الفرنسي، ومضينا فورًا إلى مهاجمة هذه المراكب المتحركة بوحداتنا الصغيرة، وركزت قيادة قاذفات القنابل هجومها على موانئ الغزو، وسرعان ما انهالت علينا الأنباء عن احتشاد جيش أو جيوش ألمانية ضخمة استعدادًا للقيام بهذا الغزو على قطاع الساحل المعادي، وعن تحركات واسعة النطاق على السكك الحديدية واحتشادات ضخمة في خليج كاليه ونورماندي وظهرت إلى حيز الوجود أعداد وفيرة من بطاريات المدافع القوية البعيدة المدى، منتشرة على طول الساحل الفرنسي القائم على القتال، وكان يترتب علينا أن نجابه الخط الجديد وننقل اعتمادنا على هذه الخطوة إلى خطوة أخرى ونهيئ كافة السبل لتيسير نقل احتياطنا المتحرك الذي

يتضاعف عدده إلى الجبهة الجنوبية ومضى الوقت وقواتنا المتزايدة عددًا والمتقدمة كفاءة وسرعة في التحرك، تطمئننا إلى قدراتها وفعاليتها، ولم ينقض النصف الأخير من شهر أيلول، حتى كان في استطاعتنا أن نحشد ست عشرة فرقة من أحسن الفرق نظامًا وإعدادًا على الساحل الجنوبي بينها ثلاث فرق مدرعة عدا أجهزة الدفاع الساحلية المحلية، وقد أصبح في مكنتها القيام على الفور بأي عمل عسكري يوكل إليها ضد أية عملية للغزو أو الإنزال، وأصبحت لنا قوة ضاربة أو مجموعة من القوى الضاربة التي كان الجنرال بروك وحده القادر على تحريكها عندما تحين الساعة، فهو أكثر سيطرة عليها من كل من عداه.

❖ ❖ ❖

جرى كل ذلك بالرغم من عدم ثقتنا بأن جميع المداخل ومصبات الأنهار المنتشرة من كاليه إلى تيرشيلنج وهيلجولاند، وكل ما أمامه من جزر تقع بالقرب من الساحلين الهولندي والدنمركي، لا تخفي قوات معادية هائلة أخرى من نوع صغير أو متوسط، وقد خطر في بالنا أن الهجوم سيبدأ من هارويش حول بورتماوث وبورتلاند إلى بليموث مع تركيز خاص على مقاطعة «كنت» أيضًا، ولم توجد لدينا أية براهين أخرى إيجابية على أن موجة ثالثة من الغزو قد لا تتسق وتتوافق في الزمن مع الموجتين الأولبين، وتشن من موانئ البلطيق خلال مضائق سكاجراك في سفن كبيرة، ولاشك في أن مثل هذا الغزو جوهري بالنسبة لخطط الألمان لتحقيق النجاح، إذ تعتبر الوسيلة الوحيدة لوصول الأسلحة الثقيلة التي تم إنزالها، أو لإقامة مستودعات تموين كبيرة.

ودخلنا في ذلك الحين فترة من التوتر الشديد، واليقظة الدائمة وكان علينا طيلة الوقت أن نحرص على وجود قوات كبيرة في الشمال من «دوش» حتى «كروماريتي»، كما قمنا بعمل الترتيبات اللازمة لسحب جزء منها في حالة وقوع الغزو في الجنوب، وكان في مقدرتنا بفضل الشبكة الرائعة الداخلية من سكك حديدنا، وبفضل استمرار سيطرتنا على الجو في سماء وطننا، أن نسحب أربع فرق أو خمس من الشمال لتعزيز الدفاع عن الجنوب في حالات الضرورة القصوى خلال أيام الرابع والخامس والسادس من بدء تحرك العدو.

وأجرينا دراسة دقيقة لأوضاع القمر والمد والجزر وتيقنًا من أن العدو سيؤثر عبور البحر في الليل والنزول إلى الأرض عند الفجر ، وها نحن أولاً نعرف أن ما تيقنا به كان على صواب أيضًا ، ولم نجد لدينا ذرة من الشك في مقدرتنا على تحطيم كل ما ييسر للعدو النزول في أكمة دوفر البحرية أو في القطاع الساحلي الممتد من دوفر إلى بورتسماوث وإلى بورتلاند ، وكانت أفكارنا جميعًا ـ نحن الذين نتولى القيادة ـ تسير في اتجاه وتوافق تأمين مما يثير الإعجاب لتوجيه ضربة إلى عدونا تخلف دويًا في كافة أنحاء العالم ، ولم يكن في استطاعة أي إنسان إلا أن يحس بالحماسة ، ويشعر بالتأثر من هذا الجو الذي يولي بعزم هتلر وعتاده .

وكان من بيننا من يتحرق شوقًا إلى قيام هتلر بمحاولته ، يحدوهم إلى ذلك العوامل المجردة التي تؤكد لهم مدى تغير مجرى الحرب لو مني هتلر بتدمير محاولته وتحطيم أمانيه . وكنا قد انتهينا خلال شهري تموز وآب من السيطرة الجوية على سماء بريطانيا ، وكانت قواتنا متفوقة تمامًا وبصورة خاصة في سماء القطاعات الواقعة في الجنوب الشرقي لبلادنا ، وأخذت المعدات الدفاعية الدقيقة ، والمراكز المنيعة والحصون الشماء وحواجز مكافحة الدبابات ، وحواجز الطرق إلى غير ذلك تملأ كل مكان ، وتوهجت سواحلنا بالإجراءات الدفاعية والبطاريات كما توفر لدينا عدد من المدمرات العاملة في الأطلنطي مع ما في هذا الإجراء من ثمن باهظ تكبدته قوافلنا التجارية في الأطلنطي ، كما شيدنا عددًا آخر منها ليزيد استحكام الدفاع عن السواحل ، وقد أحضرنا بارجة التدريب (سنتوريون) وإحدى الطرادات إلى بلايموث ، وظل أسطولنا في ذروة قوته ، وفي قدرته أن يعمل مع تجنب كثير من الأخطار .

وبهذا كنا على أتم الاستعداد لمواجهة أي شيء ، وأخيرًا اقترب موسم الزوابع الاستوائية المعروفة في شهر تشرين الأول ، وكان شهر أيلول هو الشهر الذي يتحتم على هتلر أن يوجه فيه ضربته إذا واتته الجرأة الكافية حيث يكون في صالحه ظواهر المد والجزر والقمر في أواسط الشهر المذكور .

وأرى أن الوقت قد حان لأنتقل بالقارئ إلى معسكر الأعداء ، حتى أطلعه على مدى استعداداته وخططه ، كما وقفنا عليها في هذه الآونة .

الفصل السابع

عملية أسد البحر



لم تكد تنشب الحرب في ٣ من أيلول عام ١٩٣٩ ، حتى بدأت البحرية الألمانية ، كما تشير الوثائق المصادرة بعد الحرب ، عدا الدراسات اللازمة لغزو بريطانيا . وقد رأت عكس ما ارتأيناه ، أن السبيل الوحيد هو إتمام الغزو عبر المياه الضيقة لبحر المانش ، ولم يقدر الألمان أي احتمال آخر ، ولو كنا قد علمنا بالحقيقة هذه آنذاك لاسترحنا كثيرا حيث يواجه الغزو عبر المانش أكثر سواحلنا تحصينا ، وهي الجهة البحرية القديمة المواجهة لفرنسا حيث الموانئ المحصنة ، وحيث قواعد المدمرات الرئيسية ، وأغلب المطارات ومحطات الإشراف الجوي للدفاع عن لندن ، ولم نكن نعتمد في أي جزء من أجزاء الجزيرة اعتمادنا على هذا الجزء في المسارعة إلى العمل بقوة ضخمة وبجميع قواتنا المسلحة الثلاث ، وكان الأميرال رايدر موجها كل اهتمامه للإعداد في حال قيام الأسطول الألماني بغزو بريطانيا ، وفي نفس الوقت طلب تركيز الكثير من الأوضاع ، وفي مقدمتها الإشراف الكامل على سواحل فرنسا وبلجيكا وهولندا وموانيها ومصبات أنهارها ، وهذا هو سبب نوم المشروع طيلة فترة ما قبل الحرب ...

وفجأة برزت الافتراضات بصورة تثير الاستغراب ، وتمكن رايرد بالرغم من بعض وساوسه من التقدم إلى الفوهرر مساء معركة دنكرك واستسلام فرنسا بمشروع نال إعجابه، كما تحدث في الحادي والعشرين من أيار مع هتلر في الموضوع ذاته وفي العشرين من حزيران تحدث إليه لا عن اقتراح الغزو ، فإن إعداد التفاصيل المتعلقة بالمشروع لن يتم بطابع العجلة . وكان هتلر بدوره تساوره الظنون في النجاح فعقب قائلا ، أن يقدر تماما الصعوبات المحتومة التي سيواجهها مشروع كهذا ، وكان هتلر يتعلق بالأمل الواهي من أن إنجلترا قد تطلب الصلح وتنشده ، ولم تتنبه القيادة الألمانية إلى فكرة الغزو إلا في آخر أسبوع من حزيران . وفي الأسبوع الثاني من تموز صدرت الأوامر الأولى بتجهيز خطة للغزو كأنه أمر محتمل الوقوع ، وتقضي هذه الأوامر بأن الفوهرر قد علق غزو إنكلترا على توفر بعض الشروط الخاصة وفي طليعتها السيطرة الجوية .

وأصدر هتلر في ١٦ تموز توجيها منه يقول: إنه بالرغم من المأزق العسكري الحرج لإنكلترا فإنها لم تظهر أية رغبة في التفاهم ، ومن أجل هذا عزمت على إعداد عملية النزول في

إنكلترا لتنفذ في الوقت المناسب . وينبغي أن تتم الترتيبات اللازمة للخطة كلها قبل منتصف شهر آب ، وكانت الإجراءات العملية لتنفيذ هذه الإشارة قد بدأت في كل مكان . فقد كانت خطه الأسطول الألماني تتسم بالميكانيكية بوجه عام ، فتحت ستار نيران المدفعية الساحلية من كاليه في اتجاه دوفر ، وتحت حماية مدفعية قوية على طول الساحل الفرنسي المقابل للمضيق ، كانت خطة البحرية تقضي بإقامة نطاق ضيق عبر المانش في أقصر مسافة ممكنة وأحاطته من الجانبين بسياج من الألغام مع قيام الغواصات بحماية خارجية . وكان من المتفاهم عليه أن ينقل الجيش في مراكب عبر القنال على أن تمونه سلسلة طويلة من الإمدادات . وإلى هنا ينتهي دور الأسطول الألماني . وعلى قيادة الجيش معالجة بقية المشكلة .

فإذا قدرنا أنه كان في استطاعتنا بفضل تفوقنا البحري الهائل أن نقضي على حقول الألغام المذكورة بالقطع البحرية الصغيرة تحت ستار قوة جوية ماهرة وضرب الغواصات المحتشدة من الجانبين لحماية الحقول لاتضح لنا أن هذه الخطة كانت خطة متداعية منذ بدايتها ، وكان في استطاعة أي إنسان يعرف أنه بعد انهيار فرنسا لم يكن هناك مقر من امتداد أجل الحرب وتزايد الأخطار إلا إذا اضطرت بريطانيا إلى التسليم . وكان الأسطول الألماني قد تأثر بمعركة النرويج ولم يعد في إمكانه ، بوضعه الحالي ، أن يقدم إلى الجيش إلا بمساعدة جزئية ضئيلة ، ومع ذلك فقد جهز الأسطول خطة ولم يكن في أمكان أحد يقول أن حسن الحظ قد هبط عليه فجأة . وكانت القيادة العليا الألمانية قد اعتبرت غزو إنكلترا في بادئ الأمر شيئا يثير القرف في الفانوس ، ولم تكن قد دبرت أية خطط أو استعدادات لتنفيذه ، كما لم يتلق جنودنا تدريبا على العمليات الخاصة به . لكنه بعد أن توالت أسابيع من نشوة الانتصارات الرائعة وجدت القيادة في نفسها الجرأة والشجاعة للقيام بأية مهمة ، ولم يكن اقتحام البحر بأمان مسؤولية تتعلق برجال القيادة من الناحية الإدارية ولكنهم كانوا على ثقة من أن الجيش إذا بلغت قواته الضخمة شاطئ بريطانيا في سلام وأمان فإن مهمة أحراز النصر على بريطانيا تصبح أمرا يسيرا .

وقد شعر الأميرال رايدر في شهر أب بوجوب الانتباه إلى أن عبور القنال يتضمن مخاطرة كبيرة ، وإلى إمكانية فقدان الجيش كله في هذه المحاولة .

وعندما تولى الأسطول مهمة نقل الجيش العابر، أصبحت البحرية الألمانية تدور في حلقة مفرغة من القلق المستمر، وقابل قادة الأسلحة الثلاثة الفوهرر في ٢١ من تموز، فأبلغهم أن الحرب قد شارفت على المرحلة الفاصلة إلا أن إنكلترا لا ترغب في الاعتراف بذلك، وما زالت تأمل أن تدور عجلة القدر، ثم تحدث عن الإمدادات التي تصل إلى إنكلترا من الولايات المتحدة، كما أشار إلى احتمال تبدل في العلاقات السياسية في ألمانيا وروسيا. واستطرد قائلًا: إن تنفيذ عملية «أسد البحر» الخطة الأكثر جدوى في التعجيل بنهاية الحرب. وبعد حديث طويل من الأميرال، بدأ هتلر يكشف خطورة ما تخفيه عمليات عبور المانش بما فيه من تيارات ومد وجزر، وبما في البحر من غموض. ثم وصف عملية «أسد البحر» بأنها عملية في منتهى الجرأة والمغامرة واستطرد يقول: «وبالرغم من قصر المسافة، فإن العملية ليست مسألة اجتياز نهر، لكنها اقتحام بحر كبير يسيطر العدو عليه. وليست العملية إجراء فرديا في العبور، كما حدث في النرويج، إذا لم تكن هناك عناصر المفاجأة، ولكننا هنا سنواجه عدوا مستعدا للدفاع وقد صمم على القتال وفرض سيطرته على المنطقة البحرية التي يجب علينا استخدامها، وستقتضينا عملية الجيش نحوا من أربعين فرقة وربما يكون نقل الإمدادات أصعب شيء في هذه العملية، إذا ليس في مقدورنا أن نعتمد على أي نوع من المؤن يتيسر لنا الحصول عليه داخل إنكلترا، وكان الأساس الأول في نجاح الغزو هو السيطرة الكاملة في الجو واستخدام مدفعية قوية في مضيق دوفن والحماية عن طريق الألغام ...» ثم تابع هتلر حديثه بقوله: «والطقس عامل حيوي أيضا، فهو في بحر الشمال وفي المانش يشتد في النصف الثاني من شهر أيلول، كما يتكاثف الضباب في منتصف شهر تشرين الأول، لذلك يتحتم علينا أن نضمن قيام تعاون بين الطيران والأسلحة الثقيلة. فهذا التعاون من الطيران يعتبر من الطيران عملا هاما وحاسما في تحديد الموعد.

وقد نشب نقاش حاد تخلله شيء من العنف بين أركان الجيش الألمان حول عرض الجبهة، وعدد المراكز التي يجب أن تهاجم، وقد طلب الجيش أن تتم سلسلة من عمليات الإنزال على طول الساحل الجنوبي لإنكلترا الذي يمتد من دوفر إلى «لايم ريجيز» إلى القرب من بورتلاند، وطالب بإنزال قوات مساعدة في رامسجيت إلى الشمال من دوفر، وأعلن

أركان البحرية الآن أن أصلح مكان للعبور هو المكان الواقع ما بين فورلاند الشمالية وجزيرة وايت . وعلى هذا الأساس جرى تجهيز مائة ألف جندي لإنزالهم في هذه المنطقة على أن يلي ذلك مائة وستين ألف جندي آخرين في أماكن أخرى تمتد من دوفر غربا إلى خليج لايم . وأعلن الجنرال هود رئيس الأركان أنه من المحتم إنزال أربع فرق على الأقل في منطقة برايتون ، كما طالب بإنزال قوات إضافية بين ريل ورامسجيت على أن يجري توزيع ثلاث عشرة فرقة أن أمكن وفي وقت واحد في أماكن متعددة على طول الجبهة ، كما طلب سلاح الطيران سفنا كافية لتنقل اثنين وخمسين مدفعا من المدافع المضادة للطائرات مع حملة الإنزال الأولى .

لكن رئيس أركان البحرية بين استحالة القيام بعمليات واسعة وسريعة كهذه العمليات، قرر أنه لا يستطيع عمليا حراسة أسطول الإنزال في هذه المسافة الممتدة من البحر، وإن على الجيش اختيار أفضل مكان ضمن هذه الحدود المذكورة ، إذ ليس لدى الأسطول قوة الحماية أكثر من عملية عبور واحدة في وقت واحد ، حتى لو كانت لنا السيادة على الجو ، وهو يرى أن أضيق مكان في مضايق دوفر هو أكثرها سهولة من ناحية الحماية بطلب نقل المائة والستين ألف جندي في المرحلة الثانية في عملية واحدة وهذا يحتاج إلى ألف سفينة تبلغ حمولتها مليون طن ، ثم أضاف رئيس أركان البحرية أنه حتى في حالة توفر هذا العدد الخيالي فإن موانئ الإبحار لا تستطيع استيعاب مثل هذا العدد الضخم ، أما ما يمكن عمله فهو القيام بنقل الفصائل الأولى من الفرق الأربع لتشييد رؤوس جسور ضيقة على أن تقوم بنقل الفصائل الباقية في اليومين التاليين ، وذلك دون ذكر أي معلومات عن الفرق الست الباقية المتوجب إنزالها لنجاح العلية ، وأشار أيضا إلى أن الإنزال على جبهة واسعة يعني إيجاد فرق في أوقات المد العالي بين مختلف الأماكن المختارة يتراوح بين الثلاث ساعات والخمس ساعات ونصف ، وعلى هذا يتوجب أن نختار بين أمرين : أما أوضاع المد غير المناسبة في بعض الأماكن وأما الرجوع عن فكرة إنزال القوات في مناطق مختلفة في وقت واحد . وكان الرد على هذا الاعتراض من الصعوبات . ومر وقت طويل ضاع خلال تبادل المذكرات .. وأخيرا التقي هولدر ورئيس أركان البحرية في اجتماع بينهما لأول مرة عقد في ١٩ آب ، وقال

هولدر في هذا الاجتماع : «إني أرفض اقتراحات الأسطول رفضا قاطعا ، فمن وجهة نظر الجيش تعتبر العملية بهذا الوضع انتحارية . إذ أن إرسال القوات بالشكل الذي اقترحتموه معناه إلقاؤها في مفرمة للحم ، تمام كمل نلقي اللحم في المفرمة . » وأجابه رئيس أركان البحرية بقوله: إنه هو أيضا لا يمكنه قبول فكرة النزول على جبهة واسعة ، إذ إن ذلك لا يعني إلا شيئا واحدا ، هو التضحية بالجنود أثناء عبورهم ، وتم الوصول ، أخيرا ، إلى حل وسط قام به هتلر نفسه ولم يقتنع الجيش أو البحرية . فقد صدر الأمر من القيادة العليا في السابع والعشرين من شهر أب يقضي بأن على عملية الجيش أن تتسق والحقائق التي توجبها شروط الحمولة المحدودة في البواخر وسلامة العبور والإنزال . وقد تم نبذ فكرة النزول في منطقة ريل رامسجيت ، ولكن تقرر أن تمتد الجبهة من فولكستن إلى بوجور . وهكذا لم يتم الاتفاق النهائي قبل نهاية شهر أب ، فكل شيء بالطبع متوقف على النصر والتفوق في المعركة الجوية الناشبة منذ ستة أشهر .

وتم تجهيز الخطة النهائية على ضوء طول الجبهة التي جددت في النهاية كما عهد بالقيادة العسكرية إلى رونشتادت ، لكن النقص في عدد السفن قلل من عدد القوات فأضحت ثلاث عشرة فرقة أساسية ، واثنتي عشرة فرقة أخرى احتياطية ، وتم الاستقرار على إبحار الجيش السادس عشر من المرافئ الواقعة بين بولون وروتردام ، وأن تنزل بالقرب من هايث وهيسنجر وأيستبورن ، على أن يبحر الجيش التاسع من المرافئ الواقعة بين بولون والهافر وأن يهاجم المناطق بين برايتون دورتيج . وقد جهزت الخطة على أساس الاستيلاء على دوفر من ناحية البر وأن يزحف الجيشان بعد ذلك على الخط الممتد من كانتربوري إلى أشفورد فيفيلد وأروندايل ، كما تنزل إحدى عشرة فرقة في المراحل الأولى فطق ، وتمنت القيادة العليا الألمانية أن تتمكن القوات المهاجمة في الأسبوع الأول من التقدم إلى جريفسن وريفيت وبورفيلد وبورتسماوث ، أن يقف الجيش السادس الاحتياطي على أهبة الاستعداد لتعزيز القوات المهاجمة أو لتوسيع رقعة الهجوم إذا قضت الظروف إلى ديماوث ، ولا ريب أن القيادة الألمانية لم تفتقر إلى الجنود الشجعان المسلحين أحسن تسليح افتقارها إلى سفن للنقل ولسلامة العبور.

ووقع عبء المرحلة الثقيل في الهجوم على أركان البحرية، ولم يكن في حوزة ألمانيا ما يزيد على حمولة مليون ومائتي ألف طن من السفن المجهزة تجهيزا كاملا ونقل القوات الغازية يحتاج إلى أكثر من نصف هذه الحمولة، كما يؤدي إلى الكثير من المشكلات الاقتصادية. وعندما حل شهر إيلول تمكنت القيادة البحرية من أن تعلم أنها استطاعت أن تضع يدها على ١٦٨ باخرة مجموع حمولتها سبعمائة ألف طن و ٤١٩ قاطرة وسفن لصيد الأسماك و ١٦٠٠ زورق بحري. وكان بالإمكان نقل هذا الأسطول العتيد بعد تجهيزه باخرة مجموع حمولتها سبعمائة ألف طن و٤١٩ قاطرة وسفن لصيد الأسماك في اليوم الأول من أيلول عملية اندفاع الملاحة الضرورية للغزو جنوبا كانت قواتنا الجوية تراقبها وترصد تحركاتها وتقصفها بعنف على طول الجبهة من أنتوبرب إلى الهافر. وسجلت أركان البحرية الألمانية أن دفاعنا المستمر من الساحل وتركيز غارات طائراتنا على مرافىء أبحار سفن عملية «أسد البحر» ومواصلة أعمال الاستكشاف توحي جميعها بأننا على علم بالغزو القريب.

وذكرت تقارير أركان البحرية الألمانية أيضا، أنه ما زالت الطائرات البريطانية من قاذفات للقنابل وطائرات لبث الألغام تواصل أعمالها بصفة دائمة، وعلينا أن نقر أن غارات الطائرات البريطانية كانت موفقة وإن لم تكن فاصلة في عرقلة نقل السفن الألمانية إلى المرافىء.

وبالرغم مما حدث من تدمير وتعويق فقد استطاعت البحرية الألمانية إتمام الجزء الأول من مهمتها الخطيرة، ولم تتجاوز خسائرها العشرة في المئة من مجموع قوة الغزو الكاملة، وهي نسبة أقل بكثير مما قدرته القيادة الألمانية، أما ما تبقى على أهبة الاستعداد، فلم يكن بأقل من الحد الأدنى الذي قدرت القيادة حتمية وجود للقيام بالمرحلة الأولى من العملية، وقد ألقى الجيش والأسطول الألماني العبء كله عاتق السلاح الجوي، وكانت حماية الممر بما يلازمها من بث الألغام التي بمثابة الأسوار موكلة إلى السلاح الجوي الألماني ضد التفوق الظاهر لعمليات المدمرات البريطانية والسفن الصغيرة. أي أن الخطة كانت قائمة على إلحاق الهزيمة بالطيران الإنكليزي والسيطرة المطلقة لألمانيا على الجو، لا فوق المانش وجنوب شرقي آسيا فقط، بل فوق مناطق العبور والإنزال كذلك. وهكذا أوكل السلاحان الألمانيان القديمان مهمة الخطة إلى ماريشال الرايخ غورنغ.

وقد رحب غورنغ بقبول هذه المهمة، لثقته المطلقة بالتفوق العددي للطيران الألماني، إنه لن تمضي أسابيع معدودة من القتال الشديد حتى تنزل الهزيمة المنكرة بالدفاع البريطاني، ويتم تدمير مطاراته في كنت وسكس ومن ثم تسيطر ألمانيا على المانش. وقد ظن غورنغ أيضا أن قصف إنكلترا من الجو وخاصة العاصمة لندن سيدفع بالشعب البريطاني المنحل الذي يفضل العافية إلى الرضوخ وطلب الصلح، هذا بالإضافة إلى أن نذر الغزو كانت قد بدت في الأفق القريب لكن البحرية الألمانية لم تجاره في تفاؤله هذا وكانت شكوكها عميقة الجذور؛ لأن عملية «أسد البحر» لا يمكن إلا أن تكون إجراء أخيرا، فأوصت في شهر تموز بتأجيلها حتى ربيع عام ١٩٤١، ألا إذا أجبرت الغارات الجوية وحرب الغواصات الرهيبة الإنكليز على مفاوضة الفوهرر بالشروط التي يفرضها، أما الفيلد مارشال كايتل والجنرال يودل فقد كانا مغتبطين من تفاؤل قائد الجو الأعلى غورنغ.

لقد عاشت ألمانيا أياما مجيدة رائعة انتشى فيها هتلر بخمرة النصر قبل أن تذل له فرنسا في هدنة كومبين، وسار الجيش الألماني الظافر تحت أقواس النصر وعبر الكاب إليسيه، فهل بقي هناك شيء يعجزون عن تنفيذه؟ فلم التردد إذن في الأقدام على مجازفة مضمونة؟ وهكذا فإن الأسلحة الثلاثة التي تشترك في إنفاذ عملية «أسد البحر» ولفتت نظر كل منها إلى الجانب المضيء في الدور الذي سيقوم به وترك الجانب المظلم إلى السلاحين الآخرين.

وبمرور الأيام تضاعفت الشكوك وقامت العراقيل، وكان قرار هتلر الصادر في ١٦ تموز قد حدد إنهاء جميع الاستعدادات قبل منتصف شهر أب لكن كافة الأسلحة وجدت أن تنفيذ هذه الخطة في الوقت المحددة غير ممكن: وقبل هتلر في نهاية شهر تموز تحديد موعد ١٥ أيلول كموعد مبكر للغزو، بينما أجل قراره الأخير القاضي بتحديد موعد البدء في العمل حتى تتضح نتائج معركة الجو التي حمي وطيسها..

وأبلغت البحرية في ٣٠ أب القيادة العليا، أن استعدادات أسطول الغزو يستحيل أن تتم في ١٥ أيلول بالنسبة للإجراءات المضادة التي أقدمت عليها بريطانيا وعلى هذا تأجل البدء في الغزو حتى ٢١ أيلول مع اشتراط عشرة أيام كإنذار مسبق، وهذا يعني ضرورة إصدار الأمر الأول في ١١ أيلول، وأبلغت البحرية مرة أخرى في العاشرة من أيلول القيادة

العليا مدى الصعوبات الكثيرة التي تجابهها نتيجة لرداءة الطقس وأعمال بريطانيا المضادة ، وبالرغم من أن التجهيزات البحرية المطلوبة قد تتم فعلا قبل ١١ أيلول ، إلا أن الشرط الأساسي الذي يحتم السيطرة المطلقة على جو القنال لم يتحقق بعد . وقد أدى ذلك إلى أن أصدر هتلر قراره في ١١ أيلول بتأجيل صدور الأمر التمهيدي لثلاثة أيام أخرى ، وبذلك يكون الغزو قد تأجل إلى الرابع والعشرين ، كما تأجل مرة ثانية في الرابع عشر ثلاثة أيام أخرى وفي السابع عشر من أيلول تأجل إصدار هذا الأمر إلى أجل غير مسمى لأسباب هامة في نظرهم ونظرنا أيضا .

وقد علمنا من الأخبار الواردة إلينا في ٧ أيلول أن تحركات السفن الصغيرة ما زالت مستمرة في الغرب وفي الجنوب في اتجاه المرافئ الواقعة بين هومستند والهافر ، ولما كانت هذه المرافئ تحت وطأة الغارات البريطانية القاسية فقد كان من المعقول إلا تنتقل إليها السفن الكبيرة إلا قبيل الغزو ، وتضاعفت القوة الضاربة للسلاح الجوى الألماني بين أمستردام وبريست حتى بلغت مائة وستين قاذفة قنابل وصلت من النرويج إلى هذه المنطقة ، كما رأينا مجموعات من طائرات الانقضاض ذات المدى القصير في المطارات الأمامية الواقعة في خليج كاليه وقد اعترف أربعة من الجواسيس الألمان الذين تم اعتقالهم قبل مضى بضعة أيام من نزولهم من أحد زوارق التجذيف على الساحل الجنوبي والشرقي من إنكلترا أنهم جاؤوا ليكونوا على استعداد في أية لحظة أثناء الأسبوعين القادمين ، وليرسلوا بتقارير خاصة عن تحركات الوحدات البريطانية الاحتياطية في أيبويس ولندن وريدنج وأوكسفورد . وكانت أوضاع القمر والمد بين الثامن والعاشر من شهر أيلول مناسبة للغزو من الساحل الجنوبي الشرقي ، لذلك قرر رؤساء أركان الحرب عندنا أنهم يتوقعون الهجوم في أية لحظة ، وأن على قواتنا المدفعية أن تقف على أهبة الاستعداد لمواجهة أي طارئ عاجل .

ولم يكن في القيادة العامة حينذاك جهاز يستطيع إعلان حالة الطوارئ المحددة له ثماني ساعات إلى عمل فوري ، ومع ذلك فقد صدرت كلمة السر «كرومويل» التي يقصد بها أن عملية الغزو محتمله في أية لحظة ، صدرت الكلمة إلى القوات في الساعة الثامنة من مساء السابع من شهر أيلول ، وإلى القيادتين الجنوبية والشرقية ، للعمل الفوري السريع للفرق

الساحلية الأمامية ، وجميع الوحدات في منطقة لندن ،، وإلى الفيلقين الرابع والسابع من قوات الاحتياط التابعة للقيادة.

وتكررت الكلمة إلى جميع القيادات الأخرى ، للعلم بها فقط ، في جميع أنحاء المملكة المتحدة ، وعندما وصلت هذه الكلمة إلى قادة الحرس الوطني في بعض أنحاء البلاد ، قاموا بدافع من أنفسهم باستدعاء قوات الحرس لدق أجراس الكنائس . ولم أكن أنا ورؤساء أركان الحرب قد علمنا بأن كلمة «كروميل» قد استخدمت فعلا ، ولذا فقد صدرت أوامرنا في الصباح التالي بضرورة إيجاد مراحل انتقالية يتضاعف فيها الحذر في المناسبات المقبلة دون إعلان أن الغزو قد حصل ، وفي استطاعة كل إنسان أن يتخيل ما أثاره هذا الحادث من هرج ومرج وفوضى ، وإن لم يشر إليه سواء في الصحف أم في البرلمان ... وعلى كل فقد كان هذا الحادث إشارة تدريب لكل من بعينهم الأمر .

والآن وبعد أن تتبعنا مراحل إعداد القيادة الألمانية العليا حتى وصلت إلى القمة ، فقد أصبح في مقدورنا أن نعرف كيف تغير الموقف من الزهو بالانتصار المبكر إلى قيام حالة من الشك ، ثم إلى فقدان كل ثقة في النتيجة ، وقد شاهدها القائد البحري رايدر في شهري تموز وآب وحاول ما استطاع تثقيف زملائه من قادة البحر والجو وتبصيرهم بمتاعب الحرب البرمائية الواسعة النطاق ومشقاتها ، فقد أحسس الأميرال بضعفه واحتياجه إلى عامل الوقت لاستكمال المعدات ، وإن كان تنفيذ الخطة الواسعة النطاق التي وضعها هولدر هي أنزال قوات ضخمة في وقت واحد في منطقة مترامية الأطراف ، وكان غورنغ بخياله الجامح مصرا في الوقت نفسه على إحراز النصر الساحق بقواته الجوية وحدها ، وأبى أن يساهم بدور متواضع في الإعداد لخطة مشتركة تهدف إلى تخفيض قوات المقاومة بحرية وجوية في جبهة الغزو .

ويتضح من الوثائق والسجلات أن القيادة الألمانية العليا لم تعمل بانسجام وتعاون في سبيل الهدف المشترك ولم تواجه مشاكل الأسلحة المختلفة بالوعي الناجح السليم . فقد كان الاحتكاك فيما بينهما واضحا منذ البداية ، وطالما كان في مقدور هولدر أن يلقي بالمسؤولية على كاهل رايدر فإنه لا يحاول أن يوجد الانسجام بين خططه الشخصية وبين الإمكانيات

العلمية ، وكان من المحتم أن يتدخل هتلر ، وقد تدخل بالفعل لكن تدخله لم يعمل على تحسين العلاقات بين القوات المسلحة ، وكانت سمعة الجيش في ألمانيا قد ارتفعت إلى ما فوق السحب ، وكان القادة العسكريون ينظرون بتعال إلى زملائهم من قادة البحرية .

وقد يكون من الصعب على أي إنسان أن يقاوم الأدلة التي تنهض على تأكيد أن الجيش الألماني لم يكن راضيا عن وضعه تحت إشراف البحرية في عملية رئيسية كهذه ، وعندما سئل الجنرال يودل بعد انتهاء الحرب عن هذه الخطط أجاب ، وهو نافذ الصبر «كانت خططنا تشبه تمام الخطط التي وضعها يوليوس قيصر» .

وربما يكون في هذا القول الصادر عن جندي ألماني موثوق به بالنسبة لعمليات البحرية ، ما يلقى الضوء على أن الجندي الألماني لم تتضح في ذهنه المشكلات الخاصة بعمليات الإنزال والأخطار الناجمة عن نقل قوات بحرية كبيرة وتوزيعها على ساحل قد أجيد الدفاع عنه .

أما نحن في بريطانيا فضلا عما كنا نعانيه من نقص ، فقد خبرنا البحر ووقفنا على مشكلاته ، فالبحر منذ قرون عديدة جزء من كياننا ، وتقاليده لا تستثير بحارتنا فحسب بل الشعب البريطاني بأسره . ولعل هذا التفهم هو الذي مكننا أكثر من أي عامل آخر من النظر إلى خطر الغزو بكل ثقة وهدوء . وقد خضع التخطيط الذي وضعناه لإشراف رؤساء أركان الحرب الثلاثة برئاسة وزير الدفاع مما أدى إلى إيجاد نظام متناسق ككتلة واحدة وإلى التعاون التام الذي لم نر له مثيلا في الماضي وإلى التعرف المتبادل إلى كافة المصاعب . وعندما آن الأوان لنبدأ نحن في عمليات غزو عظيمة وساعة النطاق من البحر ، كان عملنا آنذاك مرتكزا على أساس وطيد من الاستعداد الشامل لأداء العمل ومن الإحاطة الكاملة بكل الاحتياجات التكميلية للأقدام على مشروعات واسعة لها هذه الدرجة الكبرى من الخطورة.

ولو كان للألمان في عام ١٩٤٠ قوات برمائية جيدة التدريب مستكملة مختلف المعدات الحربية البرمائية الحديثة لما قدر لمهمتها النجاح أمام قواتنا البحرية والجوية ، فكم بالأحرى والألمان لم يكن لديهم شيء من ذلك لا من ناحية المعدات ولا من ناحية التدريب وهما

عاملان ضروريان في مثل هذه الحرب . وكلما زادت رغبة الفوهرر والقيادة العليا في المغامرة ضعفت آمالهم فيها ، ولم يكن في استطاعتنا أن نصل إلى معرفة أوضاع بعضنا البعض وتقديرات كل منا ، ولكن كلما مر أسبوع ابتداء من أواسط تموز وانتهاء منتصف أيلول كان الغموض الذي يكتف الموقف بالنسبة للبحرية البريطانية والألمانية وللقيادة العليا الألمانية ورؤساء أركان الحرب البريطانية وبالنسبة للفوهور ولمؤلف هذا الكتاب ينجلي رويدا رويدا. ولو قدر لنا الاتفاق على نفس المستوى في القضايا الأخرى لما وجدت ضرورة لقيام حرب ، فقد اتفقنا بادئ ذي بدء على أن المصير سيتقرر في الجو ، كان السؤال الذي يعرض لنا ولهم في وقت واحد هو كيف ستنتهي هذه المعركة الدائرة في الجو ؟ وكان تأثيرها قد بولغ في تقديره في تلك الأيام ؟ أو أنه سينهار تحت وطأتها ويفرض على حكومته الاستسلام . وكان ماريشال الرايخ ذا أمل كبير وثقة بالنتيجة بينما كنا نحن على خلاف ذلك.

❖ ❖ ❖

الفصل الثامن

معركة بريطانيا



ذكرنا سابقًا أن مصيرنا أصبح مرتبطًا بإحرازنا النصر الجوي، وأن القادة الألمان قد أدركوا أن نجاح عملية غزوهم لبريطانيا يتوقف على السيطرة الجوية في سماء القتال، وفي بعض الأماكن على الساحل الجنوبي لبلادنا، على أنه لم يكن في مقدور الألمان القيام باستكمال استعداداتهم في مرافي الأبحار، وحشد سفن النقل، وتطهير المعابر من الألغام ثم القيام ببث ألغام أخرى دون أن تكون لديهم الوقاية من غارات السلاح الجوي البريطاني. أي أن الأمر الفصل كان للسيادة الجوية في سماء مناطق العبور والإنزال ومن أجل هذا كان لابد من تدمير السلاح الجوي الملكي وسائر المطارات الممتدة على طول الطريق بين لندن والبحر، ونحن نعلم الآن من الوثائق التي حصلنا عليها أن هتلر أبلغ الأميرال رايدر في ٣١ تموز: «أنه إذا لم يتمكن سلاحنا الجوي من القيام بعملية تدمير المطارات العدوة بالإضافة إلى موانئه وقواته البحرية خلال مدة ثمانية أيام، فإن عملية الغزو ستتأجل بالضرورة حتى أيار من العام المقبل». وهذه المعركة التي كان علينا أن نخوض غمارها، على أني لم أحس بخوف لحظة واحدة - ولو عن طريق التصور - من التجربة العظمى التي كنا نواجهها، وكنت في الرابع من حزيران قد أدليت للبرلمان ببيان هذا نصه:

«إن الجيش الفرنسي العظيم قد اضطر إلى التراجع، واضطربت كل أموره نتيجة الهجوم الذي قامت به بضعة ألوف من السيارات المدرعة فهلا يدافع عن قضية الحضارة بضعة ألوف من الطيارين بمهارتهم وإخلاصهم!! وأرسلت إلى سمطس في ٩ حزيران الثاني أقول: وأني أرى الآن بوضوح أن هتلر بشكل قاطع سيشن هجومًا على هذه البلاد، فيدمر سلاحه الجوي في هذا الهجوم».

والآن جاءت الظروف مواتية ...

ولا شك أن كتبًا كثيرة قد صدرت لتوضح مدى الصراع الجوي بين السلاحين البريطاني والألماني، وهو الصراع الذي يكون معركة بريطانيا، وقد استطعنا الآن التعرف إلى آراء القيادة الألمانية العليا، وإلى ردود الفعل لديها في المراحل المتباينة، ويظهر أن خسائر الألمان في بعض المعارك الرئيسية، كانت أقل بكثير مما خيل إلينا، وأن تقارير الجانبين في وقتها كانت تتسم بكثير من المغالاة، ولكن لم يكن هناك خلاف على الخطوط الرئيسية

لذلك الصراع المعروف الذي كانت تتوقف عليه حياة بريطانيا وحرية العالم قاطبة .

كان السلاح الجوي الألماني قد التحم في معركة فرنسا بكل ما لديه من قوة أضحى في حاجة إلى الراحة بعد هذا القتال ، تمامًا كما حدث للأسطول الألماني بعد معركة النرويج ، كذلك كان الأمر بالنسبة لنا إذ أن ثلاثة أسراب من مجموع كل أربعة من أسراب طائراتنا المحاربة كانت قد أسهمت في وقت أو آخر في معارك القارة ، ولم يكن في مقدور هتلر إلا أن يعتقد أن بريطانيا سترحب بعرض للصلح ، بعد انهيار فرنسا .

وكان هتلر يشبه في ذلك المارشال بيتان وفيجان وغيرهما من القادة الفرنسيين العسكريين والسياسيين ، الذين لم يدركوا ما لدى دولة تقوم في جزيرة من موارد مستقلة وما حبتها الطبيعة به من شمم . لقد كان من شأنه شأن هؤلاء الفرنسيين الذين استهانوا بعزيمتنا وإرادتنا ، وقضى هتلر شهر حزيران في تحوير الأوضاع لتتمشى مع الأحوال التي وجد نفسه فيها تدريجيًا ، وفي خلال ذلك كان الطيران الألماني يقضي فترة من النقاهة وإعادة التنظيم استعدادًا للمهمة الجديدة ، ولم يكن ثمة شك في خطر هذه المهمة ، إذ كان على هتلر أن يختار واحدة من اثنتين ، أما أن يغزو إنكلترا ويحتلها أو يخوض غمار حرب طويلة الأمد ، تنطوي على كثير من الأخطار والمشكلات ، على أن احتمال نصر جوي يقضي على المقاومة البريطانية كان ماثلاً في أذهانهم مما يجعل الغزو الفعلي أمرًا غير محتم إلا باحتلال بلاد مغلوبة على أمرها . واستطاعت القوة الألمانية الجوية خلال شهر حزيران ومطلع شهر تموز أن تنظم نفسها وتبث النشاط والحيوية في صفوفها ، وأن تنتشر في جميع المطارات الفرنسية والبلجيكية التي يحتمل بدء الهجوم منها ، واستطاعت الغارات الاستطلاعية والتجريبية الوقوف على حقيقة المقاومة التي ستجابهها ومدى طاقتها .

وشرعت في ١٠ تموز بشن أولى هجماتها الضخمة الكبيرة التي تعد بحق بدء معركة بريطانيا، وهناك تاريخان مهمان يرتفعان أيضًا في هذه المعركة هما ١٥ آب و١٥ أيلول ، وكانت ثمة مراحل ثلاث متتابعة ومتداخلة في الوقت ذاته حين الغزو الألماني ، وقد اتسعت المرحلة الأولى بين ١٠ تموز و ١٨ آب بالتركيز على القوافل البريطانية في المانش وعلى الموانئ الجنوبية الواقعة بين دوفر وبلايموث حيث تقرر حصر سلاح الطيران البريطاني وإيقاعه في

معركة حاسمة والقضاء عليه، وكذلك تدمير الموانئ التي تقرر النزول فيها . وفي المرحلة الثانية الواقعة بين ٢٤ آب و٢٧ أيلول كان من المحتم تمهيد الطريق إلى لندن وذلك بتحطيم السلاح الجو البريطاني ومنشآته لتأمين الهجمات المتواصلة العنيفة على العاصمة وقطع طرق المواصلات من الشواطئ المهددة بالغزو . أما غورنغ فلا شك أنه كان يرى في هذه الغارات غرضًا أكبر وهدفًا أبعد وهو أحداث الاضطراب الكامل في أكبر مدن العالم وشل حركتها، وإيقاع الفزع الأكبر في بريطانيا حكومة وشعبًا، واضطرارهما أخيرًا إلى الخضوع لإرادة ألمانيا، واتجه أمل الجيش الألماني والأسطول إلى الرغبة في أن يكون غورنغ مصيبًا فيما رآه، ولكن مع مرور الوقت، وتغير الأحوال رأي قادة السلاحين أن السلاح الجوي البريطاني لم يقض عليه، وأن أملهم في عملية «أسد البحر» قد تبدو في سبيل تحقيق ما أراده غورنغ من تدمير لندن، وأخيرًا عندما انتابتهم خيبة أمل في كل شيء، وعندما تأجل الغزو إلى أجل غير معلوم لأن الشرط الحيوي الأساسي وهو السيطرة على الجو لم يتحقق، بدأت المرحلة الثالثة والأخيرة . فقد تبدد حلمهم في النصر الذي بدا كسراب خادع وسلاح الطيران البريطاني ما زال حيًا، مما حدا بغورنغ في شهر تشرين الأول أن يقوم بشن غارات عمياء رعناء على لندن وغيرها من مراكز الإنتاج الصناعي .

ليس هناك وجه للمقارنة بين طائراتنا المقاتلة وطائراتهم، فالطائرات الألمانية أسرع وأقدر على الارتفاع، أما طائراتنا فأقدر على المناورات وأفضل تسليحًا، وكان طيارو ألمانيا على ثقة من تفوقهم العددي، كما كانت الانتصارات التي أحرزوها في بولندا والنرويج والأراضي المنخفضة (هولندا) وفرنسا تشعرهم بالعزة والكبرياء . أما طيارونا فكانوا واثقين بتفوقهم الشخصي، وكانوا يتحلون بتلك العزيمة التي تعتبر من صفات الشعب البريطاني وتبدو في وقت الأزمات والعواصف . وقد كان الألمان متمتعين بمزية إستراتيجية هامة، أحسنوا استغلالها . فقد توزعت قواتهم وانتشرت في جبهة واسعة للغاية، وكان في وسعها أن تشن هجمات علينا بأعداد كبيرة مع اتخاذ كافة الوسائل لتشتيت أفكارنا حتى لا يتسنى لنا أن نعرف مواقعهم الحقيقية، وكان الطيران الألماني قد جمع في شهر آب ٢٦٦٩ طائرة بينها ١٠١٥ قاذفة قنابل، و٣٤٦ طائرة من طائرات الانقضاض . وأصدر الفوهرر في ٥ آب أمرًا

يحمل الرقم ١٧ يقضي بتوسيع جبهة الحرب الجوية ضد بريطانيا ، ولم يكن غورنغ واثقًا من عملية «أسد البحر» ، بل ركز اهتمامه على الحرب الجوية «المطلقة» ولم تكن هذه القيادة تعتبر تحطيم سلاحنا الجوي الهدف الأساسي بل تعتبر تحول الحرب الجوية بعد بلوغها الذروة إلى شن الهجوم الشامل على بوارجنا وسفننا . وقد عبرت هذه القيادة عما تشعر به من أسف لأن غورنغ لا يهتم كثيرًا بتركيز غاراته على الأهداف البحرية ، كما أحنقها التأجيل المتكرر للغارات الجوية . وفي ٦ آب أبلغت القيادة البحرية القيادة العامة بأن بث الألغام في بحر المانش أصبح من المتعذر القيام به نتيجة لضغط التهديد البريطاني المتواصل في الجو . وقد تركز القتال الجوي المتواصل طيلة شهر تموز ومطلع شهر آب على قاعدة «كنت» البحرية وساحل القتال ، وقد تأكد غورنغ ومستشاروه أن غاراتهم قد شغلت كل أسرابنا المقاتلة في ميدان المعركة في الجنوب ، فقرروا القيام بغارة في وضح النهار على مدننا الصناعية الواقعة في الشمال ، وكانت المسافة تعد طويلة على مقاتلاتهم من الطراز الأول وهي (المسرز شميث ١٠٩) فاضطروا إلى المغامرة بطائراتهم القاذفة على أن تصحبها طائرات (المسرز شميث ١١٠) وهذه بصرف النظر عن مقدرتها على الطيران إلى مسافات أبعد ، فهي غير مجهزة بأسلحة القتال ، وهو أمر له أهميته في هذا الوقت، ومع ذلك فقد نجحت المغامرة .

وهكذا قامت في الخامس عشر من آب نحو مائة قاذفة قنابل ، وأربعون طائرة مسرز شميت ١١٠ ، بشن هجوم على مدينة تاينيسان ، وفي الوقت نفسه كانت أكثر من ثمانمائة طائرة تشن هجومًا على قواتنا الجنوبية لحصرها في منطقتها ، إذ خيل لهم أنها متجمعة في هذه المنطقة. لكن التوزيع الذي وضعه داودنج لطائراتنا المقاتلة بدأ يظهر أثره ، فقد كان داودنج يفكر في مثل هذا الخطر فسحب سبعة أسراب من طائرات «الهاريكين» و«السبتفاير» من معركة الجنوب المحتدمة للاستجمام قليلاً ولحماية الشمال في نفس الوقت ، وقد أحس رجال هذه الأسراب ببالغ الأسى لابتعادهم عن ميدان .... مضطرين ، إذ أكدوا لقيادتهم أن القتال لم يجهدهم ولم ينل من نشاطهم. وها هم أولاً يفاجؤون بما لا يخطر على بالهم ، فقد أصبح في مقدورهم أن يلتقوا بالمهاجمين بعد اجتيازهم الساحل واستطاعوا إسقاط أربعين طائرة ألمانية أغلبها من قاذفات القنابل الثقيلة من طراز (هينكل ١١١) التي تنقل الواحدة

منها أربعين رجلاً مدربًا ، ولم يصب طيارونا بأي جراح سوى اثنين . وليس هناك مجال للشك في سعة أفق المارشال داودنج وتفكيره السديد في توجيه الطائرات المحاربة مما يستحق عليه كل ثناء وتقدير ، ولكن عظمة هذا الرجل تتجلى في احتفاظه بهذه القوة من طائراتنا المحاربة في الشمال أثناء الأسابيع الطويلة من اشتعال الحرب في الجنوب. وهذا النوع من القيادة يعد مثلاً على العبقرية في فن الحرب .

وأعقب هذا اليوم الفاصل أن أضحت مدن الشمال في مأمن من الغارات الجوية وبعد يوم ١٥ آب اليوم الذي بلغ فيه الصراع الجوي أشده ، فقد حدثت خمس معارك رئيسية على جبهة مساحتها خمسمائة ميل ، كان حقًا يومًا رائعًا ، فقد التحمت جميع أسرابنا الاثنين والعشرين في موقعة في الجنوب ، وبعضها عاود المعركة مرتين أو ثلاثًا ، وكانت خسائر الألمان في الجنوب والشمال قد بلغت ستًا وسبعين طائرة ، مقابل أربع وثلاثين من جانبنا . ولا شك في أن هذا الرقم يعد كارثة بالنسبة للسلاح الجوي الألماني.

وليس هنا مجال للشك في أن قادة الجو الألمان قد هالتهم هذه الهزيمة الساحقة التي انطوت على أسوأ النذر بالنسبة للمستقبل ، وكان السلاح الألماني قد ركز اهتمامه في الإغارة على ميناء لندن ، ذي الأرصفة الطويلة التي تقف عليها مختلف أنواع البواخر ، وإذلال كبرياء المدينة باعتبارها من أكبر مدن العالم وأوسعها ، على أن تحديد الهدف لا يهم الطيار مما يجعل مهمته أسهل وأيسر .

❖ ❖ ❖

قام اللورد بيفربروك خلال تلك الأسابيع الطويلة من القتال المتواصل والقلق الذي لا نهاية له، بمساعدات واضحة ، فمن الضروري إدخال تجديد على أسرابنا المقاتلة وتزويدها بطائرات مضمونة ، وقد حال ضيق الوقت دون الأخذ والرد والإطالة في البحث والشرح بالرغم من ضرورة ذلك في كل نظام هادىء رتيب . وكانت طباع اللورد بيفربروك مناسبة كل المناسبة للضرورة الملحة ، فلقد كانت حيويته ونشاطه من بواعث الإقبال على العمل ، وقد اغتبطت لذلك كثيرًا فقد اعتمدت عليه ووثقت في مساعدته فلم تخب هذه الثقة مرة

واحدة، وها قد دنت الساعة لإظهار عبقريته واستعداده الشخصي مع ما يصحبها من قدرة على الإقناع تمكنه من تذليل شتى الصعاب. وكنا نلقي في جحيم المعركة بكل مواردنا، فقد تدفقت علينا الطائرات الجديدة أو ما تم إصلاحه من أسرابنا التي اغتبطت حينما طالعتها هذه الأعداد الكبيرة غير المتوقعة، وأخذت ورش الصيانة والإصلاح تضاعف من جهدها وقوة طاقتها. حينئذ تجلت لي قيمة الرجل وأهميته فدعوته في الثاني من شهر آب بعد موافقة الملك إلى الاشتراك في عضوية وزارة الحرب، وفي الوقت نفسه كان ولده الأكبر ماكس أتيكن قد تصدر قيادة الطائرات المقاتلة وأحرز انتصاره السادس.

وكان أرنست بيفن وزير العمل والخدمة الوطنية من الوزراء الذين حرصت على الإكثار من لقائهم في تلك الفترة الحرجة نظرًا للمهمة الحيوية التي كان يقوم بها من إدارة اليد العاملة في البلاد، وبعث الحيوية والنشاط فيها. وكان جميع العمال في مصانع الذخيرة مستعدين لتلقي توجيهاته، وانضم هو الآخر إلى عضوية وزارة الحرب في شهر آب. وضحى العمال النقابيون بأرباحهم وحقوقهم التي أحرزوها بعد جهد طويل والتي كانوا يولونها أعظم الرعاية، ضحوا بها من أجل المصلحة الوطنية وهم يرون بقية الثروات والامتيازات والممتلكات التي يملكها الغير قد ضحوا بها هم الآخرون. وكنت أنا على وفاق تام مع بيفر بروك وبيفن في أسابيع الأزمة التي خضناها، وقد وقع خلاف بين الرجلين فيما بعد، وهذا مما يؤسف له فقد نتج عن اختلافهما كثير من الصدام، أما في تلك المرحلة من الكفاح الذي بلغ ذروته، فقد كنا جميعًا نعمل يدًا واحدة، وليس في مقدوري إلا أن أثني كل الثناء على ولاء المستر تشمبرلين وثبات جميع الزملاء وكفايتهم، فإلى الجميع تحياتي.

ولم يدرك غورنغ حتى نهاية شهر آب أي أثر سيئ للصراع الدائر في الجو، فقد كان على ثقة هو ورجاله من أن المطارات البريطانية وصناعة الطائرات، وقوة سلاح الطيران البريطاني المحاربة قد منيت بكوارث ساحقة، وكانت هناك فترة خلال شهر أيلول تحسن فيها الطقس فازداد أمل السلاح الألماني في إحراز نتائج فاصلة، وامتحنت المطارات حول لندن بغارة جوية عاتية، وقامت ثمان وستون طائرة ليلة ٦ أيلول بالإغارة على لندن تبعها في

الليلة التالية هجوم آخر قامت به ثلاثمائة طائرة في وقت واحد، وفي ذلك اليوم كما حدث فيما تلا ذلك من أيام حيث أتممنا تعزيز المدفعية المضادة للطائرات. في ذلك اليوم دارت معارك شديدة ومتواصلة في سماء العاصمة، وكانت القوة الجوية الألمانية توقن بالنتيجة بسبب مغالاتها في تقدير خسائرنا.

وكان ميزان القتال الذي وقع بين ٢٤ آب و ٦ أيلول قد رجح ضد طائراتنا المحاربة، فقد اتخذ الألمان في تلك الأيام الفاصلة بصورة مستمرة قوات ضخمة لتشن غارات على مطاراتنا في جنوب إنكلترا والجنوب الشرقي، وكانوا يهدفون إلى تدمير الجهاز الدفاعي عن العاصمة في أثناء النهار التي استبدت بهم اللهفة لمهاجمتها، وكان العمل المتواصل في هذه المطارات ودوام تحركات أسرابنا منها، أكثر أهمية لنا من حماية العاصمة التي منيت بحملات من القصف الجوي، غرضها الأول نشر الرعب وإثارة الفزع. وكانت هذه المرحلة فاصلة في الصراع بين الحياة والموت بالنسبة لكلا الفريقين المتنازعين، ولم نكن نفكر حينذاك بالدفاع عن لندن أو غيرها من المدن بقدر ما كنا نتساءل لمن سيكون النصر؟ وقد ساد قيادة الطائرات المحاربة في (ستاجور) إحساس بالقلق وخاصة في مقر قيادة المجموعة الحادية عشرة في أوكسبريدج، إذ منيت خمسة من مطارات المجموعة الأمامية وستة من مراكز الجبهة بأضرار جسيمة وكذلك محطة قطاع بجين هيل إلى الجنوب من لندن، حتى إن سربًا واحدًا هو الذي استطاع العمل وحده مدة أسبوع كامل، ولو استمر العدو في هجماته الثقيلة على الأماكن القريبة وهدم غرف العمليات فيها، وقطع اتصالاتها الهاتفية لأضحت جميع تنظيماتنا الدقيقة في القيادة الجوية معرضة لأشد الأخطار، ولم يكن دليلاً على مجرد توجيه الإساءة إلى لندن بل على وهن إشرافنا على سمائنا في هذا المكان الحيوي الحساس. وقد فرضت زيادة عدد من هذه المحطات في الثامن والعشرين من آب وخصوصًا مانستون وبجين هيل القريبة من منزلي، كانت المحطتان متداعيتين وطرقهما مملوءة بالحفر، وعندما غير العدو هجومه في السابع من أيلول إلى لندن، أدركت قيادة الطائرات المحاربة هذا التغير واستشعرت قيادتنا الكثير من الراحة لذلك، وكان على غورنغ أن يستمر في هجماته على مطاراتنا التي تعتمد عليها قوتنا الجوية المحاربة في ذلك الوقت، لكن بتخليه عن قواعد

الحرب المألوفة، وما تمليه الروح الإنسانية من قواعد مقررة، ارتكب أجسم الأخطاء وأبشعها. وكانت هذه الفترة الواقعة ما بين ٢٤ آب و٦ أيلول من الأيام التي شقت على قيادة طائراتنا المقاتلة إلى أقصى حد، وكانت القيادة قد منيت بخسارة ما يقرب من مائة وثلاثة من الطيارين خلال أسبوعين بالإضافة إلى مائة وثمانية وعشرين أصيبوا بجراح خطيرة، كما تحطمت حوالي ٤٦٦ طائرة من طراز الهاريكين والسبيتفاير أو أصيبت بأضرار جسيمة، وإذا اعتبرنا أن عدد الطيارين في قوتنا المحاربة كان في هذه الأونة ألف طيار، بدا لنا أن سلاحنا الجوي قد فقد ربع رجاله تقريبًا.

ولم يكن في وسعنا ملء هذا الفراغ الذي نشأ عن فقدانهم، إلا باستحضار مائتين وستين طيارًا جديدًا ينقصهم التدريب وإن لم تنقصهم الحماسة، نقلوا من وحدات التدريب قبل أن يستكملوا مدتهم الدراسية في كثير من الأحيان، وتسببت الهجمات الليلية على لندن خلال عشرة أيام بعد السابع من أيلول والتي استهدفت الأرصفة ومراكز السكك الحديدية في قتل عدد كبير من المدنيين وإصابة الكثير بجراح، لكنها برغم ذلك اعتبرت بمثابة نعمة هبطت علينا من السماء، أرسلت إلينا على حين كنا في أشد الحاجة إليها لنأخذ أنفاسنا.

وعلينا أن نعتبر الحرب الجوية قد بلغت ذروتها في الخامس عشر من أيلول، فقد شن سلاح الطيران الألماني - بعد غارتين متواليتين في ١٤ من الشهر نفسه - أكبر هجوم جوي مركز في رابعة النهار على مدينة لندن. لقد صارت إحدى المعارك الفاصلة في الحرب، وقد حدثت في يوم من أيام الأحد كمعركة «واترلو» تمامًا، وكنت في ذلك اليوم في تشيكرز، وطالما قمت - قبل هذا اليوم - بزيارة لمقر المجموعة الحادية عشرة من الطائرات المقاتلة لأرى بنفسي سير إحدى المعارك الجوية التي لا يحدث فيها الكثير، وأحسست في ذلك النهار أن الطقس مناسب لعدونا، ولذلك فقد ركبت سيارتي إلى أوكسبردج حيث زرت مقر الجمعية التي تتكون من حوالي خمسة وعشرين سربًا تختص بالدفاع عن أيسكس وكنت وساكس وهامشاير وجميع المداخل المؤدية إلى لندن، وكان نائب مارشال الجو بارك يقوم بقيادة هذه المجموعة منذ حوالي ستة أشهر، وكان عليها يتوقف مصيرنا إلى درجة عظيمة، ومنذ أن ابتدأت معركة دنكرك أسند إلى بارك إدارة كافة أعمال الطيران في النهار في جنوب

إنكلترا وقد بلغت استعداداته حد الكمال، وتسللت مع زوجتي إلى غرفة العمليات الحربية المحصنة ضد القنابل والواقعة على بعد خمسين قدمًا تحت الأرض، ومن المعلوم أن تفوق طائرات السبيتغاير والهاريكين إنما يرجع إلى وجود هذا الجهاز الدقيق من الأشراف، وامتداد شبكة أسلاك التليفون تحت الأرض قبل الحرب بفضل توجيه وزارة الطيران ونصيحة المارشال داودنج. وكانت القيادة العامة توجه التعليمات والأوامر من مقر القيادة العليا للطائرات المحاربة في ستاجور، لكن القيادة الفعلية لأسراب الطائرات قد عهد بها إلى المجموعة الحادية عشرة التي كانت تتولى الإشراف على سائر الوحدات الموزعة في شتى محطات الطائرات المحاربة في مختلف أنحاء البلاد. وكانت غرفة عمليات المجموعة تشبه المسرح الصغير، وطولها يبلغ ستين قدمًا، وتتكون من طابقين، وقد اخترنا مقاعدنا في الحلقة الوسطي وأمامنا على المائدة أفردت الخريطة الضخمة وقد التف حولنا حوالي عشرين شابًا وفتاة تم تدريبهم ومعهم مساعدوهم من موظفي التليفونات وأمامنا يقع لوح أسود كبير بطول الجدار كله، وقد قسمته المصابيح الكهربائية إلى ستة أعمدة يمثل كل منها محطة من المحطات الست، ولكل منها أيضًا عمود إضافي مقسم بخطوط أفقية. وهكذا كانت المصابيح المنخفضة تكشف عن الأسراب الواقفة على أهبة الاستعداد والمستعدة للطيران خلال دقيقتين، ثم تعلوها المصابيح التي توضح الأسراب المتأهبة للعمل خلال خمس دقائق، ثم تعلوها تلك التي يتم استعدادها في عشرين دقيقة، وهكذا بالنسبة إلى تلك التي تقوم بالطيران أو التي شاهدت العدو أو المشتبكة معه في هذه اللحظة أو تلك التي في طريقها إلى قاعدتها، وهناك غرفة صغيرة على الجانب الأيسر تشبه المقصورة في المسرح يجلس فيها أربعة أو خمسة ضباط من فرقة المراقبة التي كان عددها قد بلغ حينذاك حوالي خمسين ألف رجل وامرأة وشاب، وقد كان الرادار آنذاك في بدايته، ومع ذلك فقد كان كافيًا لتوجيه الإنذار بالغارات حين تقترب من السواحل، وكان المراقبون من خلال مناظيرهم وتليفوناتهم المتنقلة، مصدر كل المعلومات عن الطائرات المغيرة، وهكذا كانت القيادة تنهال عليها ألوف الرسائل والإشارات في أثناء وقوع الغارة. وكان يجلس عدد كبير من الرجال المدربين في غرف تمتلىء بهم في مقر القيادة الكائن تحت الأرض، يحلون رموز تلك الرسائل

ويلخصونها بأقصى سرعة وينقلون من دقيقة إلى أخرى النتائج التي يصلون إليها إلى الذين يضعون ويخططون للمعركة وهم جالسون حول المائدة الرئيسية، وإلى الضباط المشرفين على سير العملية من مقصورتهم التي أشرنا إليها.

وفي الناحية المقابلة (مقصورة) ثانية يحتلها عدد من ضباط الجيش الذين يقومون بنقل أعمال المدفعية المضادة للطائرات وقد كان لدينا منها تحت إشراف هذه القيادة مائتا مدفع، وكان من الضروري جدًا أن تتوقف هذه المدفعية عن العمل لبضع ساعات أثناء الليل في بعض المناطق، إذ أن طائراتنا المقاتلة تكون في ذلك الوقت قد اشتبكت في القتال مع العدو، وكنت على علم بهذا النظام، فقد أطلعني داودنج على عمل الجهاز كله قبل أن تبدأ الحرب بعام عندما زرته في ستاغور، ولقد مر النظام بمراحل من التحسين والإصلاح منذ تلك الزيارة وصار الآن أداة حيوية من أدوات الحرب لا نظير لها في أي بلد من بلاد العالم. وقال لي بارك عندما نزلنا إلى المقر في الطابق الأسفل: «لا أستطيع التخمين عما يحدث اليوم، كل شيء هادئ».

ولم يكد يمضي ربع ساعة على هذا الكلام، حتى كان منظمو الخطة قد بدأ تحركهم، إذ أبلغوا أنه حوالي أربعين طائرة تحركت للإغارة من المحطات الألمانية في منطقة دييب، وأخذت المصابيح تضيء في الصف الأدنى مشيرة إلى الأسراب التي وقفت على أهبة الاستعداد، ثم وصل خبر آخر يقول أن عشرين طائرة مغيرة أخرى تستعد، ولم تمض عشر دقائق أخرى حتى صار من البين أن معركة قاسية في طريق الوقوع وبدأ الجو يحتشد بطائرات من الجانبين. وتتابعت الإشارات، أربعون طائرة، ستون طائرة، وكان اتجاه سير الطائرات المغيرة يبدو أمامنا على الخريطة من وقت إلى آخر في علامات توضح اتجاهاتها، بينما كانت على اللوحة المواجهة تضيء المصابيح، مشيرة إلى طيران أسرابنا بصورة متتابعة حتى لم يبق منها على الأرض على أهبة الاستعداد أكثر من عدد قليل، وقد ظلت هذه المعارك الجوية التي يعلق عليها الكثير- أكثر من ساعة بعد وقوعها- وقد كان عدونا ما تزال لديه القوة التي مكنته من إرسال هذه الدفعات المتوالية من الطائرات إلى قلب الهجوم، وكان على أسرابنا التي تم طيرانها كلها لتكون لها السيادة على الجو أن تعود إلى قواعدها بعد سبعين أو

ثمانين دقيقة من طيرانها لتتزود بالوقود أو الذخائر ، ولو تمكن العدو في أثناء ذلك من حشد طائرات جديدة في حومة القتال لاستطاع تدمير العديد من طائراتنا وهي على الأرض ولذا فقد كان هدفنا الرئيسي دائمًا أن نوجه أسرابنا بحيث لا يتجمع عدد كبير منها على الأرض في وقت واحد .

وسرعان ما أوضحت الأضواء الحمراء أن معظم أسرابنا ملتحمة مع العدو ، وكنت أسمع همسًا متصلاً بين القائمين بالتخطيط ، وهو ينقلون الإشارات من مكان لآخر ليوضحوا تطور المعركة وتغير الأوضاع . وكان نائب مارشال الجو يصدر التعليمات العامة موجهًا طائرته المقاتلة التي تترجم فورًا إلى تعليمات تفصيلية يوجهها ضابط شاب يجلس في وسط الغرفة إلى كل محطة من المحطات .

وكنت أجلس بجواره ، وسألت عن اسمه بعد سنوات ، فقيل لي: إنه اللورد ويلوبي دي بروك. وقد التقيت به لثاني مرة في عام ١٩٤٧ عندما استجبت لدعوة من نادي الفرسان، وكان عضوًا في مجلس إدارته لمشاهدة حفلة سباق الدربي . وقد استغرب كثيرًا لأنني لم أنس لقائي الأول به. وكان في ذلك الحين يصدر التعليمات والأوامر للأسراب الفردية بالتحليق في الجو والقيام بأعمال دورية على هدى من النتائج الظاهرة على الخريطة .

وكان مارشال الجو آنذاك يسير في الغرفة جيئة وذهابًا وهو يلحظ بعين حذره متنبهة كل حركة وخطوة في اللعبة ، مراقبًا بنفسه رجال جهازه التنفيذي ومتدخلاً إذا اقتضى الأمر بكلمة حاسمة لتعزيز نقطة مهددة . ولم تمر لحظات حتى صارت جميع أسرابنا ملتحمة في المعركة ، ولم يبق سرب واحد في الاحتياطي ، وتحدث بارك في تلك الأثناء تلفونيًا إلى داودنج في ستاغور ، فطلب منه أن يضع ثلاثة أسراب من المجموعة الثانية عشرة تحت تصرفه احتياطًا للطوارئ ، وفيما إذا وقع هجوم رئيسي آخر ، خلال قيام أسرابه بالتزود بالسلاح والذخائر ، وقد تم فعلاً هذا ، وكانت الأسراب ألزم ما تكون لحماية لندن ومطارات الطائرات المحاربة حيث إن المجموعة الحادية عشرة كانت قد استنفذت كل قواها .

واستمر الضابط الشاب الذي اتخذ من هذه الأمور مسألة روتين في أعداد أوامره المنسقة مع تعليمات قائده العام، بلهجة هادئة، وسرعان ما انطلقت الأسراب الإضافية الثلاثة إلى ميدان المعركة مرة أخرى، وشعرت بقلق القائد الذي كان يصطنع الهدوء في وقفته وراء مقعد مساعده، وكنت حتى هذه الأثناء أشهد التطورات صامتًا، فسألته: «هل تملك قوات أخرى احتياطية؟» فأجابني نائب المارشال: «كلا... لم يبق لدينا في الاحتياطي أي شيء». وقد كتب في تقريره فيما بعد أنني ظهرت حينذاك بمظهر المتجهم العبوس، وربما أكون حقًا قد قطبت جبيني، وعبس وجهي، إذ ماذا يكون الأمر لو فاجأت أربعون طائرة جديدة أو خمسون أسرابنا وهي على الأرض تتزود بالوقود لتعود إلى التحليق من جديد. إن الميزان حينذاك كان في كفة القدر، وكانت قدراتنا محدودة، والأخطار التي تتعرض لها جد كبيرة... ومرت خمس دقائق أخرى، وأغلب طائراتنا المحاربة تعود إلى الأرض لتتزود بالوقود، ولم يكن في وسع مواردنا الحالية أن تضمن لها الحماية الجوية الكافية، وعرفنا أن طائرات العدو قد أخذت تعود من حيث أتت، وبدأت العلامات على الخريطة تظهر اتجاه الطائرات الألمانية نحو الشرق ولم يبد أثر لأي هجوم جديد، وبعد عشر دقائق من انتهاء المعركة بدأنا نرتقي السلم نحو سطح الأرض، وحينما وصلنا كانت صفارات الأمان تدوي في الأسماع منبئة بانتهاء الغارة.

وقال بارك: «أسعدنا يا سيدي، إنك رأيت المعركة، للحقيقة لقد كنا في الدقائق العشرين الأخيرة نكاد نختنق من المعلومات التي عجزنا أمامها، ولعلك يا سيدي شهدت القيود المفروضة على مواردنا الحالية، وقد تحملت الموارد اليوم أكثر مما نستطيع».

وسألته عما إذا كان شيء من نتائج المعركة قد وصل إليه، وذكرت أن الهجوم قد رد بصورة رائعة وفعالة، فأجاب بارك بأنه غير راض وأن طائراته لم تستطع أن تسقط العدد الذي كان يتوقعه، وكان من المستبعد أن يكون العدو قد اجتاح خطوطنا الدفاعية في كل مكان تقريبًا، وقد سرت الأنباء بأن عشرات من القذائف الألمانية قد استطاعت تحت حراسة المحاربات من التسلل إلى لندن، ولكن الصورة الصادقة عن النتائج لم تتضح تمامًا، كما لم تصل إلينا أية أرقام نهائية عن الخسائر أو الأضرار.

وكانت الساعة قد شارفت على الرابعة والنصف من بعد الظهر، عندما رجعت إلى تشيكرز، فمضيت بعد ذلك إلى فيلولني، ويبدو أن المسرحية التي عايتها في مقر قيادة المجموعة الحادية عشرة قد أنهكت قواي حتى أنني لم أصح من نومي إلا في الثامنة مساء، وحينما دققت الجرس حضر لي جون مارتن رئيس أمناء سري ومعه موجز أخبار المساء من جميع أنحاء العالم... كانت أخباره تدعو إلى القلق، فقد سار هذا الأمر سيرًا خاطئًا هنا، وتأخر ذاك هناك، والرد غير مقنع عن آخره، أو أن الأطلنطي قد ابتلع قطعة من قطعنا البحرية، ومضى جون مارتن يقول: «إننا قد حققنا في الجو ما نهدف إليه، فقد أسقطنا مائة وثلاثًا وثمانين طائرة عدوة مقابل خسارتنا التي لم تبلغ الأربعين.

وبالرغم من أن المعلومات التي بلغتنا من العدو بعد الحرب تشير إلى أن خسائره في هذه المعركة لم تزد عن ست وخمسين طائرة، إلا أن الخامس عشر من أيلول كان قمة معركة بريطانيا حقًا، وبدأت قيادة طائراتنا القاذفة في تلك الليلة القيام بهجمات مركزة على كافة موانيء العدو من مولون إلى انتوبرب، وقد أنزلت بالميناء الأخير خسائر بالغة، وها نحن نعلم الآن أن الفوهرر قد قرر في السابع عشر من أيلول تأجيل عملية «أسد البحر» إلى أجل غير مسمى، وتم أخيرًا في الثاني عشر من تشرين الأول تأجيل هذا الغزو نهائيًا إلى الربيع التالي.

وقرر هتلر في تموز عام ١٩٤١ تأجيل الغزو مرة أخرى حتى ربيع عام ١٩٤٢ عندما تكون الإغارة على روسيا قد انتهت... وكان هذا الحلم ضروريًا مع كل ما فيه من عبث واستحالة. وفي الثالث عشر من شباط عام ١٩٤٢ اجتمع الأميرال رايدر بهتلر للمرة الأخيرة للبحث في عملية «أسد البحر» واضطره أن يقرر العدول عنها نهائيًا، ومن ذلك يتضح أن الخامس عشر من أيلول عام ١٩٤٠ كان نقطة تطور هامة. ولاشك في أننا كنا متهاونين في تقدير خسائر العدو، وفي الحقيقة كنا نسقط طائرتين أو ثلاثًا للعدو مقابل طائرة واحدة تهوى من طائراتنا، وفي هذا ما يكفينا. وقد استطاعت قواتنا الجوية أن تحقق النصر، بدلاً من أن يحيق بها الدمار على يد العدو. وكان هناك عدد من الطيارين الجدد لا ينقطع، وبالرغم من الإصابات التي لحقت بمصانع طائراتنا ـ وهي العامل الفعال في قدرتنا على شن

حرب طويلة الأجل ، إلا مجرد إمدادنا بحاجاتنا العاجلة فحسب ، بالرغم من ذلك فلم تشل حركتها نهائيًا ، وبقي عمالها من فنيين وغير فنيين وراء مخارطهم تزدحم بهم المصانع غير مبالين بالنيران التي تتوهج من حولهم ، فكانوا أشبه ما يكونون بالمدافع التي تواصل عملها دون انقطاع . وكان هوبرت موريسون في وزارة التموين يشجع الجميع على مواصلة الجهد ، كل في حدود عمله ، وكان يحفزهم بكلمة : «هيا ، إلى العمل» فلا يمتنع أحد عن الإسراع بتلبية ندائه ، وقامت قيادة مقاومة الطائرات المغيرة برئاسة الجنرال بايل ، ببذل كل عون مستطاع إلى معركة الدفاع الجوي ، لكن اشتراكها الرئيسي كان متأخرًا ، أما فرقة المراقبة فكانت تواصل عملها ليل نهار لا تعرف التعب ويدون أن يتأثر إخلاصها . أما قيادة الطائرات المقاتلة التي تعتمد عليها المقاومة كل الاعتماد ، وقد أقنعتنا بقدرتها على الصمود المتواصل أشهرًا عديدة أمام الإجهاد المستمر ، حقًا لقد أدى كل فريق واجبه أحسن الأداء.

واستمرت أرواح طيارينا وشجاعتهم ، وهم يخوضون غمار المعركة في منتهى القوة والروعة ، وهكذا أنقذت بريطانيا ، وأصبح على أن أقف في مجلس العموم وأقول: «لم يسبق قط في تاريخ الصراع الإنساني أن أحسن مثل هذا العدد الضخم من الناس ما في أعناقهم من دين جسيم نحو عدد قليل من الناس مثلما نحس به جميعًا اليوم نحو طيارينا » .

***

الفصل التاسع

الحرب الخاطفة



لاشك في أن الآراء التي تروى عن الهجوم الجوي الألماني على بريطانيا هي آراء متناقضة ذات أهداف متباينة، وخطط مبتورة، ففي خلال هذه الأشهر كلها، كان يقلق راحتنا، ليتخذ أسلوبًا جديدًا، ولكن هذه المراحل جميعها متداخلة وليس في المستطاع الفصل بينها بتواريخ دقيقة محددة. فالمرحلة الواحدة منها تسلم إلى المرحلة الثانية وتتداخل فيها، وكانت العمليات الأولى تهدف إلى الالتحام مع قواتنا الجوية في معارك فوق المانش والساحل الجنوبي ثم تحول القتال إلى سماء المقاطعات الجنوبية وخصوصًا في كنت وساسكس حيث أراد العدوان يحطم جهاز قوتنا الجوية، ثم أخذ يتجه نحو لندن قليلاً قليلاً حتى أصبح أخيرًا يحلق في قلب سمائها حيث أضحت المدينة هدفه الرئيسي، وأخيرًا عندما أحرزت لندن النصر، انتقل القتال إلى سماء المدن في الأقاليم وإلى شريان الحياة البريطاني خلال الأطلنطي عن طريق ميرس وكلايد.

وقد شهدنا الهجمات الألمانية العنيفة على مطارات الساحل الجنوبي في الأسبوع الأخير من شهر آب. والأسبوع الأول من شهر أيلول، وفي السابع منه تسلم غورنغ قيادة المعركة الجوية وجعل الغارات ليلية، ونقل مكان المعركة من مطارات «كنت وساسكس» إلى عمارات لندن وأبنيتها، أما الغارات النهارية فلم تنقطع وإن كانت ثانوية، حدث هذا باستثناء غارة نهارية ضخمة أخرى، لكن الطابع العام للهجوم الألماني قد تغير تمامًا، وقصفت لندن بصفة متواصلة لمدة سبع وخمسين ليلة دون انقطاع مما جعل أكبر مدن العالم تواجه تجربة خطيرة بل محنة قاسية، ولم يكن في مقدور أي إنسان أن يتنبأ بالنتائج، ولم يسبق قط أن تعرضت هذه البلدان لمثل هذا القصف الجوي الراعد، كما لم يسبق أبدًا أن واجه العدد الضخم من الأسراب والمشكلات والمصاعب التي أحدثها هذا القصف الرهيب ونكباته.

وقد قمنا بغارة على برلين ردًا على هذه الغارات المتواصلة على لندن في نهاية شهر آب، بالرغم من المسافات الشاسعة التي كان على طائراتنا أن تجتازها، ولم تكن مثل هذه الغارة شيئًا مذكورًا بالنسبة للغارات الألمانية المركزة على لندن والمطارات القريبة الفرنسية والبلجيكية. ولكن وزارة الحرب رأت نفسها في وضع يحتم عليها الثأر رفعًا للروح المعنوية، وتأكيدًا لتحدينا للعدو، وكنت على ثقة من صحة هذا الرأي وجدواه، إذ أني أعلم أن هتلر

يثير اضطرابه صمود بريطانيا وإظهار قوتها ، وإن كان هتلر في أعماق نفسه يعجب بشعبنا ، وبالطبع واتته الفرصة حين قمنا بغارتنا الثأرية على برلين فأعلن ما انطوت عليه نفسه من رغبة في تحويل لندن وغيرها من المدن البريطانية إلى أطلال ورسوم حين صرح في الرابع من أيلول قائلاً: «إن هجومهم على مدننا سيدفعنا إلى إزالة مدنهم من الوجود» .

وقد بذل هتلر أقصى ما يستطيع من جهد .

وأسهم في الغارات الليلية المتواصلة على لندن بين ٧ أيلول و٣ تشرين الأول أكثر من مائتي طائرة في كل غارة ، وكانت الهجمات التمهيدية العديدة التي نزلت بمدننا الإقليمية في الأسابيع الثلاثة الماضية قد فرضت علينا أن نوزع مدفعيتنا المضادة للطائرات بصور فعلية ، وعندما أصبحت لندن الهدف الرئيسي للمرة الأولى لم تكن تحتوي على أكثر من اثنين وتسعين مدفعًا، ورأينا أن الأجدى ترك الجو حرًا لطائراتنا الليلية المقاتلة تحت قيادة المجموعة الحادية عشرة ، وكان من بين تلك الطائرات ستة أسراب من طراز «بلنهايم» وطراز «دينايانت» وكان الاشتباك الليلي ما يزال في بدايته ولذلك فإن خسائر العدو كانت طفيفة ومحدودة ...

وهكذا استمرت مدافعنا المضادة متوقفة عن العمل في الليالي الثلاث الأولى ، وبالرغم من عدم دقة الوسائل التي تستخدمها المدافع المضادة ، فقد اضطرنا ضعف طائراتنا الليلية المحاربة ومدى ما نواجهه من مشاكل في حاجة إلى الحل ، اضطرنا كل أولئك إلى أن نعطي لرجال هذه المدفعية الحرية التامة في إطلاق نيرانهم على أهداف غير واضحة متخذين أي أسلوب يختارونه لتحديد الهدف ودقته ... وبعد ثمان وأربعين ساعة ، تمكن الجنرال بايل ، المشرف على قيادة المدافع المضادة من زيادة عددها في العاصمة بجلب عدد من مدن الأقاليم، وهكذا أخليت السماء من طائراتنا المقاتلة ، وقامت المدافع المضادة بمهمة الدفاع . ومكث أهل لندن ، ثلاث ليال متعاقبة، ملازمين مساكنهم أو معسكراتهم غير المعدة ، محتملين أعنف الغارات حتى كانت ليلة العاشر من أيلول حين انطلقت مدافعنا المضادة فجأة تضيء لها السبيل المصابيح الكاشفة المتوهجة ، وبالرغم من دويها العظيم فلم تنزل بالعدو أضرارًا جسيمة إلا أنها أعلت الروح المعنوية بين أبناء العاصمة، وتمثلت الحماسة في

صدر كل إنسان لمجرد الإحساس بأننا نرد الصاع صاعين ، واستمرت المدافع المضادة منذ ذلك الوقت تتابع إطلاق نيرانها بصفة منتظمة ومتواصلة ، ومهد التمرين والاختراع وإلحاح الحاجة إلى زيادة التصويب دقة ، وأخذ عدد الطائرات المصابة من سلاح العدو يتكاثر ليلة بعد أخرى ، وكانت المدفعية تلوذ بالصمت أحيانًا حين تنطلق الطائرات الليلية المقاتلة لتخوض غمار المعركة ، بعد أن تحسنت أساليبها ، وظلت الغارات الليلية بل النهارية متواصلة إلى الحد الذي كانت تشن فيه هذه الغارات مجموعات صغيرة من الطائرات بل طائرة واحدة أحيانًا ، وطالما أطلقت صفارات الإنذار ، ودوي صوتها فترات متلاحقة طيلة ساعات اليوم بأكمله، ولكن أهل لندن الذين يبلغون في ذلك الوقت سبعة ملايين قد رتبوا حياتهم على وضع يلائم تلك الأحوال الشاذة .

❖ ❖ ❖

ولتنوير القراء ورغبة مني في الترفيه قليلاً عنهم ، والتخفيف من وقع هذه التجربة القاسية على مشاعرهم ، أورد هنا بعض ملاحظاتي الشخصية عن غارات لندن ، متيقنًا أن لدى الآلاف من أبناء العاصمة كثيرًا من الحكايات التي تفوق في إثارتها هذه الملاحظات .

فعندما أخذت طائرات العدو في قصف جو العاصمة كنا نرى أن نواجه هذه الغارات بالتهوين وعدم الاكتراث ، فاستمر كل إنسان في حي «الوست أند» يعمل ويلهو ، ينام ويأكل كما تعود ، دون أن يغير شيئًا من مجرى حياته العادية ، فالمسرح مزدحم بالمشاهدين والشوارع المظلمة تموج بالمارة ، ولعل هذا الموقف كان رد فعل صائب للرعب الذي بدأ في العناصر الانهزامية في باريس ، عندما تعرضت المدينة لأول هجوم جوي في شهر أيار . وأذكر أني كنت على مائدة العشاء ذات ليلة مع صحبة خيرة ، عندما حدثت غارات مستمرة قوية ، وكانت نوافذ قصر «ستورانواي» ـ حيث كنا نجلس ـ تطل على ـ جرين بارك ـ الذي أنارته أضواء المدافع المضادة وانفجار القذائف المضادة ، وهيئ لي أننا كنا نغامر بأرواحنا ، دون ما ضرورة أو مبرر . وبعد أن تناولنا العشاء انتقلنا إلى عمارة شركة الصناعات الكيميائية الإمبراطورية وهي تطل على الجسر ، وكان منظر النهر يأخذ بنفوسنا ونحن نطل عليه من الشرفات العالية ورأينا على الأقل عشر حرائق تشتعل في الجانب الجنوبي، وبينما كنا نقف

تساقط عدد من القنابل الثقيلة، انفجرت إحداها بالقرب مني فدفعني صديق إلى وراء عمود حجري راسخ القواعد، وأكدت لي هذه الحادثة الفكرة التي خطرت ببالي وهي أن نكيف حياتنا مع الوضع الجديد، وأن نفرض على متع حياتنا كثيرًا من القيود.

وسقطت القنابل مرات عديدة على مجموعة من الأبنية الحكومية المحيطة بالبيت الأبيض، على أن دور الحكومة في «داوننج ستريت» قام ببنائها قبل مائتين وخمسين عامًا المتعهد الاستغلالي الذي ما زال اسمه محفورًا على أسس ضعيفة واهنة، وخلال أزمة ميونيخ أقيمت المخابئ لسكان رقيم (١٠ و ١١) من هذا الشارع، كما دعمت الأسقف بأعمدة جديدة قوية، وأنشئت سقوف أخرى داخلية، وكان الظن أن هذه الأسقف الجديدة تستطيع أن تصعد فيما إذا نسفت الأبنية أو انهارت، لكنها لا تحتمل على أية حال الإصابة المباشرة، وقد تم في الأسبوعين الأخيرين من أيلول نقل مقر رئاسة الوزارة إلى مكاتب جديدة أكثر تحملاً وصلابة، مطلة على ميدان «سانت جيمس» وكنا ندعو هذه الأبنية باسم (الملحق) وقد ظللت مع زوجتي خلال الأيام الباقية من الحرب في هذا البناء، ننعم بالهدوء والراحة، وكنا نوقن أن هذه الأبنية القوية المشيدة من الأسمنت في وسعها أن تصد الحديد والفولاذ وعلقت زوجتي عددًا من صورنا في غرفة الاستقبال التي كنت أقترح عليها أن تظل بلا صور، ولكنها نفذت فكرتها، وتغلبت علي بالطبع، وساعدتها الأحداث، وكان منظر لندن رائع الجمال حين نراها من سطح (الملحق) على مقربة من القبة في الليالي الساجية، وقد هيؤوا لي مكانًا على السطح، فوقه سقف متين، كي أتمكن في ضوء القمر من مراقبة الغارات الجوية، وتحت هذا المكان أقيمت غرفة الحرب حيث زودت ببعض الأثاث الصالح للنوم، وحيث لا تجد القنابل إليها منفذًا. وكانت القنابل في تلك الأيام أصغر بالطبع من القنابل التي طالعتنا في المراحل الأخرى من الحرب، وبالرغم من ذلك كانت حياتنا في داوننج ستريت في الفترة التي سبقت بناء هذا المسكن الجديد مثيرة للغاية، إذ كان كل منا يحس وكأنه قد دفع به إلى مركز قيادة إحدى الفرق في ميدان القتال.

ولست أنسى مساء يوم السابع عشر من تشرين الأول حيث كنا نتناول عشاءنا في غرفة الحديقة في داوننج ستريت رقم ١٠ عندما انطلقت الغارة الليلية المألوفة، وكان

يشاركني العشاء أرشي سنكلير وأوليفر ليتلتون . وكانت النوافذ الفولاذية مغلقة ، وحدثت بعض الانفجارات المدوية بالقرب منا ، وسقطت قنبلة على مكان استعراض حرس الفرسان ، وهو لا يبعد عنا بأكثر من مائة ياردة ، وكان دويها هائلاً ، وعلى حين غرة شعرت بهاتف سماوي ... ينبهني إلى الخطر المماثل . فالمطبخ عال ومكشوف وبه نافذة زجاجية يبلغ طولها خمسة وعشرين مترًا ، والساقي والفتاة يقدمان لنا العشاء دون تأثر بدوي الانفجارات ، وخلف النافذة توجد السيدة لانذمير الطباخة وسائر الخدم أن يسرعوا إلى المخبأ ، ثم عدت إلى مكاني بالمائدة ، وأمرت الساقي أن يحمل العشاء إلى غرفة المائدة مباشرة ، وطلبت إلى الطباخة وسائر الخدم أن يسرعوا إلى المخبأ ، ثم عدت إلى مكاني بالمائدة ، فلم تمر ثلاث دقائق حتى فوجئنا بدوي هائل وأصوات دمار جد قريبة وشعرنا بهزة عنيفة مما يؤكد أن البيت نفسه قد أصيب وجاء مفتش المباحث الملحق بخدمتي ليخبرني بفداحة الخسائر ، فقد أصيب المطبخ ، ومخزن التموين ومكاتب القسم المالي ...

وذهبنا إلى المطبخ لنشاهد ما جرى ، فلم نر إلا أنقاضًا ! فقد سقطت القنبلة على بعد خمسين ياردة على القسم المالي ، فدمرت كل ما في المطبخ ، وتحول إلى أنقاض ، وتهشمت النافذة الزجاجية الكبيرة وتطايرت شظاياها في كل جوانب المطبخ ، ولو ظل به أحد إلى أن حدث الانفجار لغدا أشلاء مبعثرة ، ولا شك في أن الهاتف السعيد الذي خطر لي جاء في وقته المناسب. أما مخبأ القسم المالي في الساحة فقد أصابته قذيفة مباشرة فتناثرت أجزاؤه ، واستشهد تحت أنقاضه أربعة حراس كانوا يقومون ليلاً بأعمال الحراسة ، وعلى أية حال فلم يكن في مقدورنا أن نحدد عدد المفقودين ، فقد دفن الجميع تحت ركام الأنقاض .. ولما كانت الغارة متواصلة ، فقد لبسنا خوذنا وارتقينا الدرج إلى سطح الملحق لنشاهد المنظر كاملاً ، وقبل ذهابي لم أستطع مقاومة الرغبة في أن أغري الطباخة والخدم بالتوجه إلى المطبخ، وبالطبع أصيبوا بالهلع من رؤية مكانهم وقد استحال إلى ركام. وصحبت أرشي إلى سطح الملحق ، وكان المساء ساكنًا والجو صافيًا ، وكانت لندن بكاملها تجاهنا ، ورأيت معظم حي (بال مال) تأتي عليه النيران ، وعلى أية حال كانت ثمة خمسة حرائق مضطرمة في الجانب المقابل من المدينة على طول النهر ، لكن (بال مال) كان طعمة للنيران ... ثم أخذت الغارة

تنزاح غمتها شيئًا فشيئًا إلى أن دويت صفارة الأمان، وإن ظلت الحرائق مشبوبة في المدينة ... ونزلت إلى مسكني الجديد في الطابق الأول من الملحق فوجدت الضابط دايفيد فارجسون، رئيس مراقبي مجلس العموم، والذي يقطن في نادي كارلتون، وقد أخبرنا أن دار النادي قد تهدمت، وكنا قد تخيلنا ذلك بأنفسنا بمجرد أن شاهدنا اندلاع النيران، وكان فارجسون في النادي عندما دوي الانفجار، وحوالي مائتين وخمسين من الأعضاء والموظفين، وقد أحدث الانفجار قذيفة ضخمة مباشرة، أطاحت بواجهة المدخل من جهة شارع (بال مال). وكان الأعضاء يزدحمون في قاعة التدخين، فتهاوى السقف عليهم، وعندما شاهدت الأنقاض في اليوم التالي أخذتني الدهشة لأن أحدًا من كانوا في القاعة لم يقتل، وإنما نجا الجميع رغم الأنقاض والدخان وكأنما حدثت معجزة، ولئن أصيب بعضهم بجروح إلا أنهم نجوا من الموت جميعًا. وعندما سعيت بالحقائق مفصلة إلى مجلس العموم، قال زملاؤنا الوزراء من حزب العمال مازحين: «إن الشيطان لا يمس أنصاره بسوء». وقد انتشل المستر كانتان هوغ والده، وهو وزير مالية سابق، انتشله من بين الركام، كما حمل إينياس والده انخيزاس في حرب طروادة. ولم يجد فارجسون مسكنًا يأوي إليه في تلك الليلة، فأعددنا له سريرًا في الطابق الأرضي من الملحق، لقد كانت هذه الليلة بصورة عامة مثيرة للفزع، وكان من الغريب حقًا بالنظر إلى إصابات المباني ألا يزيد عدد القتلى عن خمسمائة شخص وعدد الجرحى عن ألفين أو ثلاثة آلاف.

ومضيت للمرة الثانية إلى زيارة رامسغيت، وشن علينا الهجوم فمضوا بي إلى النفق الكبير الذي يقيم فيه عدد كبير من الناس بصفة مستمرة، وعندما غادرنا النفق بعد ربع ساعة تقريبًا، بدأنا نتأمل الخرائب التي ما زال يتصاعد الدخان من جوانبها، وقد تهدم فندق صغير دون أن يصاب أحد من نزلائه بأذى على الرغم من تحوله إلى تل من الركام والحجارة تتناثر خلالها قطع الأثاث المحطم، وأدوات المطبخ، وراعنا صاحب الفندق وزوجته والطباخون والخدم، وهم يولولون حول فجيعتهم في مصدر رزقهم ومأوى حياتهم ... وعندئذ قررت بكل مالي من نفوذ وإمكانيات أن أصدر أمرًا بالتعويض الفوري الكامل، وعندما عدت بالقطار أمليت على وزير المالية كنغزلي وود الرسالة التي توضح هذا المبدأ الهام

وهو أن كافة الخسائر التي تحدثها الغارات يجب أن تكون على مسؤولية الدولة ، وأن الحكومة تلتزم بتعويضها حتى لا يقع عبؤها على كاهل الذين يصابون في بيوتهم أو أعمالهم ، بل على كاهل الشعب كله تحقيقًا للعدالة فقد أثار هذا القرار فزع كنغزلي وود بما ينطوي عليه من التزام لا نهائي . ولكني أكدت له ضرورة القيام بهذا الإجراء، ولم يمض أسبوعان على ذلك حتى كانت وزارة المالية قد جهزت مشروع التأمين الذي قدر له أن يقوم بدور فعال في حياتنا .. وقد واجهت وزارة الخزينة مشاعر مضطربة ومقاومة إزاء هذا المشروع، فقد ظنت في بادئ الأمر أنه سيستنزف الخزينة حتى الإفلاس، ولكن بعد أيار عام ١٩٤١ ، حيث توقفت الغارات الجوية أكثر من ثلاث سنين ، أخذت المكاسب تنهال على خزينة الوزارة بفضل هذا المشروع الذي اعتبرته أنا في حينه عملاً من أعمال التوفير والبراعة السياسية، وفي أواخر مراحل الحرب عندما أخذنا بغارات الصواريخ والقذائف الموجهة صعدت الأرقام ثانية إلى جانب الخسارة وتكبدنا ما لا يقل عن ثمانمائة وتسعين مليونًا من الجنيهات في شؤون التعويض وبالرغم من كل ذلك فقد كنت غير مستاء لما يحدث .

❖ ❖ ❖

وأصبح من المحتم في هذه الفترة الجديدة من الحرب ، أن نستفيد بغاية ما نستطيع من العمل ، ليس في المصانع فقط بل في الدوائر الحكومية بلندن كذلك ، بالنسبة لتعرضها لهجوم جوي مستمر ليل نهار ، فكان الموظفون في البداية عندما تدوي صفارات الإنذار يسرعون إلى الطوابق الأرضية حيث تستخدم كملاجئ للوقاية ، وكان يثير زهونا أن تتم هذه العملية في هدوء ونجاح، وفي أحوال كثيرة لم تكن الغارة تعني أكثر من هجوم من بضع طائرات أو حتى طائرة واحدة ، وطالما عوقت هذه الطائرات فلم تصل إلى العاصمة ، وهكذا يتوقف العمل في جميع المصالح الحكومية الإدارية والتنفيذية بسبب غارة صغيرة تافهة . لذلك فقد فكرت في أن يستخدم الإنذار على مرحلتين . مرحلة التنبيه المبدئي ومرحلة الخطر الفعلي الذي لا تنطلق صفاراته إلا حين يحل الخطر ويصبح في حالة مداهمة فعلية ، فقبل اقتراحي ونسقت الخطة على أساسه .

وكان البرلمان أيضًا في أشد الحاجة إلى الإرشاد بالنظر إلى مواصلة عمله في تلك الأيام

المليئة بالخطر، وكان أعضاء المجلس يوقنون بأن واجبهم يحتم عليهم أن يكونوا مثلاً للشعب، ولا شك في أن الحق كان بجانبهم في هذا اليقين، ولكن كان على أن أوجه انتباههم إلى ضرورة اتخاذ الحيطة والحذر نظرًا إلى الأخطار المحدقة، واستطعت إقناعهم في جلسة سرية بوجوب اتخاذ الإجراءات الوقائية الضرورية، فاتفقوا على كتمان مواعيد الجلسات، وإيقاف النقاش حين تدوي صفارات الإنذار، وصاروا يخفون بنظام إلى المخابئ المفعمة والتي لم تكن معدة كما يجب.

ولا شك في أن مواصلة البرلمان البريطاني أداء مهمته وتصريف الشؤون في تلك الآونة يعتبر صفحة مشرقة في تاريخه وذيوع شهرته، والنواب عادة أكثر الناس حساسية بالنسبة لمهامهم في هذه الظروف، فكان من اليسير على أي إنسان ألا يحسن الحكم على حقيقة تصرفاتهم، فعندما تنزل الأضرار بإحدى القاعات كانوا ينتقلون إلى قاعة أخرى، وكنت أواجه صعوبات جمع في إقناعهم بضرورة الأخذ بوسائل الحكمة والموعظة الحسنة لكن جميع النواب في هذه الفترة قد نهجوا نهجًا ينم عن التعقل ووزن الأمور والحرص على الكرامة. ومن حسن الطالع أن الانفجار الذي حدث بعد عدة شهور وأطاح بقاعة مجلس الشيوخ، حدث ليلاً حينما كانت القاعة خالية من أي إنسان.

ولقد أعطانا تفوقنا على الغارات النهارية إحساسًا بالراحة والهدوء النفسي، أما في خلال الشهور الأولى فقد سيطر على الشعور بالقلق الذي يتمتع بحقوق السيادة، والذي انتخب بطريقة عادلة ونزيهة وهي الاقتراع العام، وفي يده دائمًا القدرة على إسقاط الحكومة، ولكنه الآن في أقسى الظروف كان يدعمها ويسند مركزها، وهكذا كتب النصر لبرلماننا.

وإني لا أعتقد أن أي دكتاتور قد حاز من السلطات الفعلية في بلاده مثل تلك التي خولت لوزارة الحربية البريطانية، وكنا عندما نعبر عما نريده يعطينا نواب الشعب تأييدهم فيطيع الناس رغباتنا بسعة أفق وحرية، وعلى الرغم من ذلك لم نحاول مرة مصادرة الحريات وإن ظل الناقدون بأنفسهم يرجحون المصلحة القومية على أي شيء آخر. وإذا تحدانا النقاد رأينا المجلسين يصوتان ضدهم بأغلبية ساحقة، وإذا ما قورن هذا بأساليب الدول الجماعية، بدا لنا أن برلماننا كان يخولنا هذه السلطة ضد الناقدين بلا أدنى اضطهاد أو

كبت أو إيحاء أو استعمال للشرطة وأجهزة الأمن السرية، ولا شك في أن هذا كان يثير زهونا واعتزازنا، ويؤكد لنا أن الديمقراطية البرلمانية أو على الأصح ما يحق أن نسميه السلوك البريطاني في الحياة العامة قد استطاع الصمود والانتصار والبقاء بالرغم من كل المحن القاسية، ولم يستطع التهديد بالإبادة وإفناء أعضاء برلماننا أن يرهب أحدًا، وكان من حسن الحظ أن هذا التهديد لم ينفذ ولم تحدث الإبادة.

❖ ❖ ❖

وحل منتصف شهر أيلول، ففاجأنا العدو باستعمال نوع جديد ومدمر من وسائل الحرب علينا، فقد بدأت الطائرات تلقي بقذائف تنفجر بعد مرور بعض الوقت مما وضعنا أمام مشكلة حساسة وغريبة، وكثيرًا ما سارت في وجوهنا مسافات شاسعة من السلك الحديدية، فنخترق الطرقات الهامة، والسيل الموصلة للمصانع الحيوية والمطارات والمؤسسات، وحظر علينا دخولها في أوقات احتياجنا إليها، إذ فرض علينا أولاً أن نتعقب هذه القنابل لنفجرها أو نتلفها، وكانت هذه عملية خطيرة وخاصة في بداية الأمر، عندما اضطررنا إلى أن نتعلم الوسائل والأساليب بواسطة عمليات من التجارب الموضحة.

وقد تكلمت سابقًا عن حكاية الألغام الممغنطة، أما هذه القذائف المتفجرة من تلقائها فقد أصبحت منتشرة، وصارت مشكلة تحتاج إلى التفكير، وقد وجهت اهتمامي إلى القنابل المؤقتة منذ عام ١٩١٨ عندما استعملها الألمان لأول مرة ضدنا بصورة شاملة ليرغمونا على عدم استخدام القطارات في زحفنا على ألمانيا، وكنت قد اقترحت أن نستخدمها في النرويج وقناة كيل ومنطقة الراين، ولاشك في أن هذا السلاح من أكثر أسلحة الحرب فعالية بالنسبة إلى ما يشيعه من التوجس والقلق والارتياب، وهكذا دار الزمن لنذوق نحن طعم هذا السلاح، فأنشأنا هيئة خاصة للتصرف في شأنه، وعهدنا إلى مجموعات خاصة شكلت في كل مدينة وبلدة ومقاطعة لتتبعه، وسارع المتطوعون يبذلون جهودهم لمكافحة هذه القنابل، وتكونت فرق كان بعض منها حسن الحظ وكان للأخرى سوء المصير، وقد استطاع رجال من هذه الفرق النجاة من العاقبة الوبيلة لهذا السلاح، والعيش إلى نهاية الحرب، بينما نجا البعض الآخر من التجربة العاشرة أو العشرين أو الثلاثين أو الأربعين قبل أن يلقوا حتفهم،

وكنت حين أشاهد أعضاء هذه الفرق أينما ذهبت في رحلاتي وتجولاتي، أرى وجوههم مغايرة تمامًا لكل الوجوه التي أعرفها أو رأيتها، بالرغم مما يتحلون به من شجاعة وتفان وصبر، فعلى هذه الوجوه تبدو واضحة ظلال الشحوب، ومعالم الإجهاد، وسماته الضخمة والجهد، فضلاً عن بريق العيون وزرقة الوجوه وجفاف الشفاه، فإذا ما تذكرنا الأيام المضنية التي عشناها، فيجب ألا نستعمل كثيرًا كلمة (أوقات كئيبة) إذ تكاد الكآبة كلها تخص أفراد هذه الفرق وحدهم.

وواجب علي أن أسرد هنا ما حدث لإحدى هذه المجموعات كمثال لما كانت تواجهه سائر المجموعات، كانت هذه المجموعة تضم اللورد ساقولك وسكرتيرته وسائقه العجوز، وكانوا يسمون أنفسهم «الثالوث المقدس» وقد شاعت أخبار جرأتهم، وذاع الكثير عن شجاعتهم، وقد استطاعوا أن يتخلصوا من أربع وثلاثين قنبلة لم تنفجر، بروح طيبة مرحة، لكن القنبلة الخامسة والعشرين قد ثأرت لزملائها، فانفجر معها اللورد وسكرتيرته وسائقه وثالوثه المقدس ولكن الإيمان يملأ نفوسنا بأن أرواحهم عرفت مستودعها الأمين في دار الخلود ...

وقد توصلنا بفضل كل فرد في هذه المجموعات، وبالتضحيات النبيلة التي بذلوها إلى أن نتحكم في هذا الخطر الجديد.

❖ ❖ ❖

من الشاق علينا أن نعقد مقارنة بين الاختبار القاسي الذي مر به سكان لندن في شتاء عام ١٩٤٠ ـ ١٩٤١، وبين الاختبارات التي عاناها الألمان في سنوات الحرب الثلاث الأخيرة، فقد غدت القنابل أشد هولاً والغارات أكثر قسوة، ولكن من ناحية ثانية ـ كان الإعداد الطويل، وما اشتهر عن الألمان من دقة قد ساعدهم على إنشاء وحدات كاملة من الملاجئ المحصنة ضد القنابل، وكان يفرض على كل ألماني الالتجاء عند قيام الغارات كعمل عادي رتيب، وعندما اجتزنا ألمانيا في النهاية شاهدنا أنها قد أصبحت بكاملها خرائب وأطلالاً، ولكننا شاهدنا أيضًا عمارات مشيدة ما تزال صامدة على الأرض وملاجئ حصينة كان السكان ينامون فيها كل ليلة بالرغم من تساقط دورهم وخراب كل ما يملكونه

على سطح الأرض ، أما في لندن ، فعلى الرغم من أن الغارات كانت أقل قسوة ، إلا أن وسائل التأمين والوقاية كانت أبطأ تطورًا فإذا استثنينا الأقبية لم نجد عندنا أماكن للوقاية والتأمين . حقًا لقد كان ثمة طوابق أرضية ، وطوابق تحت الأرض تستطيع أن تجابه الضربات المباشرة ، ولكن عددها كان قليلاً لدرجة ملحوظة وكانت الغالبية من سكان لندن يمضون الليل في الخنادق الخاصة ببيوتهم تحت سيل من قذائف العدو ، مستمتعين بما اشتهر عن الإنكليز من حبهم للاسترخاء بعد يوم من العمل المثمر الجاد ، ولم تكن ثمة أية وسائل للوقاية إلا من شظايا القذائف لكن الانهيار النفسي لم يكن شيئًا بجانب الاحتمال البدني ، وحقيقة لو كانت قذائف عام ١٩٤٣ قد أسقطت على لندن في عام ١٩٤٠ لانتهينا إلى وضع قد دمر فيه كل تنظيم بشري ، ولكن لكل شيء وقته المعين ، ونسبه المحدودة ، ولا يملك إنسان القول بأن لندن التي لم تجرب الخضوع قط ، كانت محصنة ضد الاستسلام .

ولم تكن الحكومة قد شيدت قبل الحرب أو في الفترة السلبية الأولى التي مرت في مطلعها ، أية أماكن محصنة ضد القنابل تستطيع هيئتها المركزية أن تلجأ إليها لمواصلة الأعمال ، فقد درست خطط لتحويل العاصمة عن مدينة لندن ، وفعلاً انتقلت فروع بأكملها من جميع الوزارات والدوائر إلى هاروغيت وشبلتيفهام وغيرها ، واستولت السلطات على المساكن الكافية في مناطق شاسعة لسكني جميع الوزراء وكبار الموظفين حين الانسحاب من لندن ، أما في هذه الآونة وطائرات العدو تواصل عدوانها فقد انعقد عزم الحكومة والبرلمان ورغبتها الأكيدة على البقاء في لندن دون مناقشة ، وكنت أشاركها نفس هذه المشاعر ، وكنت مثل غيري يخيل لي أن الدمار سيكون عامًا ، بحيث يصير الانتقال وتوزيع الأعمال أمرًا محتمًا ، ولكن بالنسبة إلى ما حدث بالفعل ، فقد امتلأ بعكس هذا الإحساس ، وظللنا في تلك الأشهر نعقد اجتماعاتنا الوزارية ليلاً في غرفة الحرب في الطابق الأسفل . ولم أكن أتخيل مدى ما يتحمله المستر تشمبرلين من عناء هذا السير بالنظر إلى العملية الجراحية التي أجريت له ، ولكن لم يستطع أي شيء أن يقعد به عن هذه الاجتماعات التي كان يتسم فيها بكثير من الهدوء البارد والتصميم الأكيد ، والتي كانت آخر ما شهده من اجتماعات .

ونظرت ذات مساء في أواخر شهر أيلول عام ١٩٤٠ من باب داوننغ ستريت الذي

يطل على الطريق ، فشاهدت العمال يقومون بوضع أكياس من الرمال تجاه النوافذ المنخفضة من بناء وزارة الخارجية المواجهة لنا ، وسألتهم عما يقومون به ، فقيل لي أن المستر نفيل تشمبرلين في أمس الحاجة إلى العلاج من حين لآخر بعد العملية التي أجريت له ، وكان من غير الميسور أن يقوم بهذا العلاج في ملجأ داوننغ ستريت رقم ١١ لأن عشرين شخصًا على الأقل يتجمعون فيه أثناء قيام الغارات ، ولذلك فقد تم تهيئة ملجأ صغير خاص به وظل حريصًا على عاداته اليومية ، لابسًا خير ثيابه، باديًا غاية في الأناقة وانسجام الهندام . وكان هذا كله أكثر مما في طوقه ، ولذلك قررت أن استخدم سلطاتي فذهبت إلى الطريق الممتد بين رقيم ١٠ و ١١ وحين رأيت السيدة تشمبرلين قلت لها : «ينبغي ألا يوجد هنا في هذه الظروف ، ويجب أن تبتعدي به حتى تعاوده الصحة وسأرسل إليه يوميًا بالأنباء » . وذهبت السيدة للقاء زوجها ، وبعد ساعة أرسلت لي تقول : «لقد أبدى استعداده لتنفيذ مشيئتك .. سنرحل الليلة » ولم ألتق به ثانية ، ولكني على يقين أنه كان يرغب في الموت أثناء قيامه بواجبه ولكن القدر شاء غير ذلك .

ونتيجة لوفاة المستر تشمبرلين حدثت بعض التغيرات الوزارية الهامة ، فقد أظهر المستر هربرت موريسون نشاطًا ملموسًا كوزير للتموين ، كما قابل السير جون أندرسن الهجمات على لندن بإدارة في منتهى الصمود والكفاية ، وتبين لي في مطلع تشرين الأول أن الهجوم المتواصل على أعظم مدن العالم كان من القسوة والعنف بحيث خلف الكثير من المشاكل السياسية والاجتماعية لدى أهل المدينة الذين واجهوا أقسى الظروف ، مما يفرض علينا أن نعهد إلى برلماني حازم صاحب خبرة وتجربة في شؤون وزارة الداخلية التي أصبحت في تلك الأونة وزارة الأمن الداخلي كذلك، فلندن هي التي تعاني قسوة الغارات ، وهوبرت موريسون واحد من أهلها ، وهو ملم بكل جانب من جوانب إدارتها ، وكانت له خبرة لا تبارى في حكم مدينة لندن . إذ كان رئيسًا فيما سبق لمجلس مقاطعتها ، وكان الشخصية البارزة في كافة أمورها وكنت في ذات الوقت في احتياج للسير جون أندرسن ليمثل الحكومة في مجلس الملك الخاص ، ليقوم كما يملي عليه منصبه الجديد بالإشراف على الكثير من الأمور الداخلية في مجال أوسع باعتباره رئيسًا للجنة الشؤون الداخلية التي يعهد إليها بالكثير

من المشاكل تخفيفًا لأعباء مجلس الوزراء. وأتاحت لي هذه التغيرات التي خففت العبء عن كاهلي أن أحشد اهتمامي لتصريف شؤون الحرب، التي تبين لي أن زملائي يميلون إلى توسيع مسؤولياتي بشأنها وزيادة اختصاصاتي ولذلك فقد رغبت إلى هذين الوزيرين اللامعين أن يحل كل منهما محل الآخر، ولم يكن ما قدمته لهربرت موريسون طريقًا مفروشًا بالورود وليس في مقدور هذه الصفحات بحال ما أن توضح المصاعب الجمة في إدارة لندن وحكومتها في ذلك الوقت الذي كان يضحي فيه عشرة آلاف مواطن أو عشرون ألفًا كل ليلة بدون مأوى نتيجة للهجوم الجوي المستمر، عندما كان حذر السكان وحرصهم وحده بمثابة حرس أولي يقاوم حدوث الحرائق على أسطح المنازل التي قد يتعذر القضاء عليها، وعندما اكتظت المستشفيات بمشوهي القنابل من الرجال والنساء، وعندما ظهر مئات الآلاف من البشر المنهكين يكدسون كل ليلة في هذه الخنادق التي تحتاج إلى الأمان والوسائل الصحية، وعندما كانت طرق المواصلات بالقاطرات وغيرها تغلق باستمرار، وعندما كانت المجاري والقوة الكهربائية والغاز تدمر تدميرًا، وعندما يجب أن تظل - بصرف النظر عن ذلك - روح لندن المناضلة صامدة عالية. وأن يتيسر نقل حوالي مليون مواطن في كل يوم ليلاً ونهارًا من مساكنهم إلى المصانع وبالعكس، كان يجب علينا كل هذا، ولم يكن في مقدورنا أن نعرف مدى هذه المحنة ومتى تنتهي، ولم يكن لدينا ما يشير إلى أنها لن تستمر أو لن تزداد سوءًا. وعندما حدثت المستر موريسون عن رغبتي بالنسبة للمهمة الجديدة كان يدرك جيدًا ما ينطوي عليه هذا العرض من خطورة ومشاكل، فاستمهلني بضع ساعات ليفكر، ولم يلبث أن جاءني قائلاً أنه سيكون فخورًا بالقيام بكل هذه المهمات، وهزني إعجابًا به هذا القرار الذي يدل على كل صفات الرجولة.

وبعد أن تمت هذه التعديلات الوزارية أدى تغيير العدو لوسائله إلى أن تتأثر سياستنا العامة، فقد كانت الغارات حتى الآن تستخدم القنابل الشديدة الانفجار، لكن في ليلة ١٥ تشرين الأول وكان القمر بدرًا، نزلت بنا أقسى غارات جوية في ذلك الشهر، وأسقطت الطائرات الألمانية فضلاً عن حمولتها المعروفة من القذائف المتفجرة حوالي سبعين ألف قذيفة حارقة وكنا حتى هذه الأثناء نبث الشجاعة في سكان العاصمة ونحثهم على اللجوء

للخنادق وقت حدوث الهجوم، وكنا نفتش عن كل وسيلة ممكنة لتأمين وقايتهم . ولكن بعد هذه الليلة اضطررنا أن نطلب إليهم الصعود إلى سطوح المساكن بدلاً من اللجوء إلى الخنادق أثناء الهجوم . وكان على وزير الداخلية الجديد أن ينفذ هذه السياسة ، فأعد عى الفور تشكيلاً هائلاً لمراقبي الحرائق ، ومقاومتها على مدى واسع يكفي مدينة لندن بكاملها ، فضلاً عن إجراءات أخرى اتخذت من المدن الإقليمية في أقصر مدة ممكنة . وكانت مراقبة الحرائق عملاً اختياريًا في أول الأمر، ولكن اشتداد الحاجة لمزيد من الأفراد والإحساس بحتمية قيام كل إنسان بواجبه في مثل هذه المحنة القاسية ليشارك في آلامها ، فرض علينا أن نلزم المواطنين بالمشاركة في أعمال المكافحة ، وقد أدى ذلك إلى مزيد من نشاط كافة المواطنين على جميع ألوانهم ومستوياتهم . وصممت النساء على المساهمة بقدر حيوي في هذه الخدمة واتخذت التدبيرات على نطاق واسع للقيام بتدريبات عامة ، ولتعويد مراقبي الحرائق مكافحة كل أنواع القذائف المحرقة التي يسقطها الأعداء وقد تفوق الكثيرون في أداء هذه الخدمة حتى استطاعوا أن يخمدوا ألوف الحرائق قبل شبوبها ، وسرعان ما صارت تجربة الصعود إلى أسطح المنازل ليلة أثر أخرى تحت وطأة النيران المشتعلة ودون أدنى إجراء وقائي آخر سوى الخوذة النحاسية أمرًا مألوفًا .

ورأى المستر موريسون أن يجمع الفرق المحلية للإطفاء التي يبلغ عددها حوالي ألف وأربعمائة فرقة في تشكيل قومي موحد لمقاومة الحرائق ، وأن يزود هذا التنظيم بحرس شعبي كبير للحرائق من المدنيين المدربين المتطوعين للعمل في أوقات فراغهم ، وكان حرس الحرائق أول الأمر يتألف من المتطوعين أيضًا . ولكن ما لبث أن تقرر بالإجماع تحويله إلى خدمة إلزامية ، وقد استطعنا بواسطة الجهاز القومي لمكافحة الحرائق من استخدام النقل الآلي ، وأحدث الأجهزة وأدق التدريبات في أعمال رسمية تشرف عليها مجموعة من العسكريين . أما أسلحة الدفاع المدني الأخرى فقد كانت تضمن وجود مجموعات على استعداد للتوجيه إلى أي مكان في خلال دقيقة واحدة، وقد اكتفى باسم سلاح الدفاع المدني عن الاسم القديم الذي عرف قبل الحرب بقوات الاحتياط من الغارات الجوية وزود رجال السلاح الجديد بملابس عسكرية خاصة تبث الشعور في نفوسهم بأنهم يؤلفون

السلاح الرابع من قوات التاج المسلحة .

وقد اغتبطت لأن لندن قد صمدت أمام الموجات المتالية من الغارات الجوية على مدننا. أن لندن تشبه فيما أرى حيوانًا هائلاً من حيوانات ما قبل التاريخ في وسعها أن تتحمل الأذى المخيف، ثم تظل رغم جراحها النازفة عتبة الصمود تموج بالحياة والحركة . وقد كثرت خنادق أندرسن في إحياء الطبقات العاملة المكونة من بيوت ذات طابقين . وقد بذلنا كل ما في وسعنا لتكون هذه الخنادق صالحة للإقامة والحياة ، مع الحرص على تخفيفها من الرطوبة أثناء الأمطار .

❖ ❖ ❖

وللمرة الأولى منذ حوالي شهرين لم تدو في الجو صفارة الإنذار ليلة الثالث من تشرين الآخر في لندن ، فاستغرب الكثيرون جو الهدوء السائد وبدؤوا يتساءلون ما الخبر ؟ وفي الليلة التالية شنت الغارات على نطاق واسع حتى عمت أكثر الجزر البريطانية ، وظل هذا بصفة مستمرة إلى بعض الوقت واتضح أن الألمان قد جددوا وسائلهم الهجومية ، وبالرغم من أن لندن استمرت كهدف أساسي إلا أن جهودًا ملحوظة كانت تبذل لتشل العمل في المراكز الصناعية البريطانية . وقد أرسل العدو أسرابًا جديدة مدربة على ابتكارات جديدة في الملاحة الجوية لتهاجم مراكز حساسة في الجزيرة ، فمثلاً تمرنت فرقة خاصة من الطائرات الألمانية على تحطيم مصانع آلات الطائرات «رولز رويس» في («هلينجتون» قرب غلاسكو، ولا شك في أن هذه الخطة الجديدة لم تكن تعني مجرد التغيير ، فقد قرر العدو تأجيل غزو بريطانيا إلى حين ، ولم يكن قد انتهى من تدبير هجومه على روسيا بعد ، كما لم يفكر فيه أحد غير هتلر والمقربين إليه . وهكذا كانت أشهر الشتاء الباقية مجرد فترة تمرينات بالنسبة لسلاح الجو الألماني على التكتيكات الجديدة في الهجوم الليلي والإغارة على التجارة البحرية في بريطانيا . أما الغاية من ذلك فهي تدمير إنتاجنا العسكري . وكان أجدى للألمان لو ظلوا على هجومهم في ناحية واحدة حتى آخر الشوط فربما وصلوا إلى نتيجة حاسمة ، ولكن الحيرة والتردد كانا طابعهم في ذلك الوقت ؛ لأن ثقتهم بأنفسهم كانت غير كاملة .

وبدأت هذه الوسائل الجديدة في الهجوم بغارة جوية عارمة على كوفنتري ليلة الرابع عشر من تشرين الآخر ، وقد اتضح لغورنغ أن مدينة لندن شاسعة الأبعاد إلى الدرجة التي لا تتيح له نتائج فاصلة، بينما كان في مقدوره أن يزيل من الوجود مدن الأقاليم ومراكز إنتاج الذخيرة ، وقد بدأ الهجوم في الساعات الأولى من الليل وتواصل حتى الفجر واشترك فيه حوالي خمسمائة طائرة ألمانية أسقطت حوالي ستمائة طن من القذائف الشديدة الانفجار عدا ألوف القنابل المحرقة . وكانت تلك الغارة أقسى ما دهمنا من غارات ثقيلة مدمرة بصورة عامة ، فقد تحطم قلب كوفنتري ، وأصيبت الحياة بالشلل التام في المدينة ، وقد قتل حوالي أربعمائة شخص كما أصيب بجراح عدد أضخم من هذا بكثير . وأذاعت ألمانيا أن جميع مدننا ستلقى نفس المصير ، ومع هذا فلم يعطل العمل بمصانع الطائرات أو قطع الماكينات الأخرى ، كما لم تمت حركة أهل المدينة بالرغم من عدم مجابهتهم قبل ذلك لمثل هذه الغارات. ولم يمر أسبوع حتى كانت لجنة تجديد الأبنية قد قامت بأعمال رائعة تيسر عودة الحياة إلى طبيعتها في المدينة .

وشن العدو ليلة ١٥ تشرين الآخر هجومًا آخر على لندن استخدم فيه عددًا ضخمًا من الطائرات في ضوء القمر الساطع فأصيبت العاصمة بكثير من الخسائر وخاصة في كنائسها ونصبها التذكارية ، وكانت بيرمنجهام هدف العدو الثالث ، فشن عليها هجومه لثلاث ليال متتابع بين ١٩ و ٢٢ تشرين الآخر فأصيبت المدينة بخسائر فادحة في الأرواح والممتلكات ، ووصل عدد القتلى إلى حوالي ثمانمائة والجرحى أكثر من ألفين ، ولكن روح بيرمنجهام وحياتها قاومتا المحنة ، وارتفع المليون من أهلها بتنظيمهم ووعيهم وفهمهم إلى أعلى مما نزل بهم من آلام . وتحولت وجهة الغارات في آخر أسبوع من الشهر نفسه ومطلع شهر كانون الأول إلى الموانيء فتعرضت برستول وساوثها مبتون وليفربول لهجمات قاسية ، ومرت بلايموت وشفيلد ومانشستر وليدز وجلاسكو بالمحنة ذاتها بشجاعة نادرة ولم يعد يعنينا أن يوجه العدو ضربته فإن الشعب كله واجهها بإيمان وصبر وعزيمة.

وبلغت الغارات ذروتها مرة ثانية حين شن العدو هجومه على مدينة لندن يوم الأحد في ٢٩ كانون الأول ، فقد جمع الألمان فيها كل ما حصلوه من خبرات ، فكان الهجوم مفعمًا

بالقذائف المحرقة التي ركزت قسوة نيرانها على حي «السيتي» . وكانت هذه الغارة مدبرة لتقع حين ينحسر الماء عن النهر بسبب الجزر ، فتهدمت سدود المياه في بداية الأمر بسبب ألغام شديدة الانفجار أسقطتها المظلات ، وكان الضرر الذي أصيبت به محطات السكة الحديدية والأرصفة فادحًا ، وهدمت ثماني كنائس وشبت الحرائق في «غيلدهول» وفي كاتدرائية القديس بولس ، ولم تنج من الدمار إلا بجهود خارقة تفوق حد الوصف ، وأخذنا نرى الخراب يجتاح العالم البريطاني ، ولكن عندما زار الملك والملكة هذه الأماكن المصابة قوبلا بحماس بالغ أشد مما كانا يقابلان به في أية زيارات أخرى .

وظل الملك صامدًا في غضون هذه الأشهر الطويلة من التجربة القاسية والتي لم تنته بعد في قصر باكنجهام ، وقد شيدنا خنادق ملائمة في الطابق الأسفل من القصر ، ولكن أعمال البناء استلزمت الكثير من الوقت ، وكثيرًا ما حضر الملك خلال اشتداد الغارة من قصر باكنجهام . وقد أنقذ جلالته والملكة بأعجوبة من الموت ذات مرة . ففي حديقة القصر أنشئ ميدان خاص للرماية ، كان جلالته وغيره من أفراد الأسرة المالكة ، وكبار رجال الحاشية يتدربون على الرماية فيه بالمسدسات ومدافع التومي ، وقد قدمت للملك غدارة أميركية قصيرة المدى ، كانت واحدة من مجموعة وصلتني وكان سلاحًا قيمًا .

وبدل الملك في تلك الأثناء موعد لقائي الرسمي بجلالته من الساعة الخامسة مساء كل يوم ثلاثاء كما جرت عادته في خلال الشهرين الأولين منذ توليت الحكم ، إلى أن أتناول الغذاء معه في نفس اليوم من كل أسبوع . وكنت في هذه الزيارات التي قد تحضرها الملكة ، أعرض على جلالته شؤون الحكم ، وكثيرًا ما اضطررنا إلى حمل صحاف الطعام وأقداح الشراب إلى الخندق الذي كان لا يزال في حالة الإعداد فنستكمل طعامنا فيه ، وأصبحت هذه الزيارات الأسبوعية عادة رتيبة، وبعد مرور الأشهر الأولى ، أمر جلالته أن يبعد الخدم جميعًا من هذه الاجتماعات وأن نمارس نحن خدمة أنفسنا بأنفسنا ، وقد تكشف لي خلال السنوات الأربع والنصف التالية من الحرب أن جلالته كان يطلع بكثير من الاهتمام على جميع البرقيات والوثائق الرسمية التي أقدمها إليه ، ويقرر العرف الدستوري البريطاني أن من حق الملك أن يطلع على كل شيء يقع تحت اختصاصات وزرائه، وأن يقدم المشورة إلى

حكومته بدون قيد ولا شرط ، وكنت حريصًا جدًا على أن أطلعه على كل شيء ، وكثيرًا ما بدا لي خلال اجتماعاتنا الرسمية الأسبوعية أنه قد قام بدراسة كافة الوثائق التي لم أكن قد درست بعضها بعد ، وأنني لأقول أن من حسن الطالع لبريطانيا أنه كان على عرشها في مثل هذه السنوات المصيرية ملكان خيران كملكنا ومليكتنا ، وأني كواحد من الذين يؤمنون بالملكية الدستورية ، نظرت ببالغ التقدير إلى الشرف الذي أسبغه على صاحب الجلالة بهذه الصلات التي وثق عراها معي كوزيره الأول ، وأنني لا أرى لذلك نظيرًا في تاريخنا إلا في أيام الملكة آن ورئيس حكومتها مارلبورو .

وهكذا أبلغ بنا العام إلى نهايته ... ، وأن كنت قد استطردت ـ راغبًا ـ بعيدًا عن شؤون القتال الخاصة ، وسيري القارئ أن كل هذا الدوي وتلك الزعازع لم تكن إلا رفيقًا على الطريق يسير مع إجراءاتنا الهادئة التي حرصنا عليها في إدارة جهودنا الحربية ، وتوحيد سياستنا ودبلوماسيتنا ، وعلى أن أقر هنا أن هذه الخسائر التي منينا بها والتي لم تكن مميتة ، كانت في اعتبارنا نحن المقيمين في قمة الموقف دافعًا فعالاً للتعبير عن آرائنا ، وتوطيد زمالة بارة بيننا وتدعيم أسس أعمالنا الجوهرية الواعية ، وربما يكون من غير الحكمة على كل حال أن أفترض بأن الغارات التي شنت علينا لو تزايدت إلى عشرة أو عشرين ضعفًا أو حتى بنسبة ضعفين أو ثلاثة فإن هذه الانطباعات السليمة التي فصلتها ، كانت ستوجد بصورة مؤكدة ، وعلى النحو الذي أوضحت .

❖ ❖ ❖

الفصل العاشر

الإعارة والتأجير



أطل علينا فجر جديد، وصليل الأسلحة يملأ الجو، لكن مصدره هذه المرة كان مختلفًا عما سبق. فقد دارت الانتخابات الأميركية للرئاسة في الخامس من تشرين الثاني، وبالرغم مما تتسم به من حيوية وصلابة تتميز بها هذه المصارعة الحادة التي تحدث مرة كل أربع سنوات، وعلى الرغم من الخلافات التي تثار حول الشؤون الداخلية بين الحزبين الرئيسيين، إلا أن كبار الزعماء في كل من الحزبين الديمقراطي والجمهوري كانوا يجمعون على تقدير قضيتنا العظمى والاهتمام بها، فأعلن المستر روزفلت في ٢ تشرين الثاني بمدينة كليفلاند أن سياسته تؤمن ببذل كل مساعدة فعالة للشعوب التي ما زالت تكافح العدوان عبر المحيطين الأطلنطي والهادي. كما صرح منافسه المستر ويندل ويلكي في نفس اليوم في خطاب ألقاه بحديقة ماديسون بأنهم جميعًا جمهوريين وديمقراطيين ومستقلين مصممون على مؤازرة المقاومة البريطانية الباسلة وأنهم يتعهدون للشعب البريطاني بأن يستخدم متى شاء ثمار صناعتهم. ولاشك في أن هذا الشعور الوطني النبيل كان الطريق المخلص لحياة الولايات المتحدة وحياتنا نحن أيضًا.

ومع ذلك فقد كنت أحس بالقلق العظيم، وأنا أترقب النتيجة، فليس في مقدور كل من يتولى الرئاسة، أن يكون مسلحًا بالخبرة والمعرفة كما يتمتع بها فرانكلين روزفلت، وليس في مقدور أي شخص سواه أن يحوز نفس المواهب والكفايات، وكنت قد وثقت علاقتي الشخصية به، وحافظت على تنميتها ورأيت أنها قد بلغت أسمى مراتب الثقة والصداقة إلى الدرجة التي أصبحت بها ذات أهمية في تفكيري، وكنت لهذا أحس بالقلق إزاء كل ما يهدد هذه الزمالة، وقد تم توطيدها بعناية وعلى مهل، وأنفر من فكرة قطع هذا الاتصال في أحاديثنا ومباحثاتنا لأبدأ من جديد مع شخص آخر صاحب عقلية وشخصية مختلفتين، ولم أحس منذ أيام بمثل ما أحس به الآن من قلق، ولذلك فقد كانت غبطتي عظيمة عندما علمت أن الرئيس روزفلت قد أعيد انتخابه.

❖ ❖ ❖

وكنا حتى تلك الساعة نلجأ فيما نحتاجه من الذخيرة للمصانع الأميركية بحرية وحيوية، وإن كان ذلك يتم بعد التفاوض معها.

وأدت زيادة رغباتنا وتعدد مطالبنا إلى التناقض أحيانًا، مزاحمة الرغبات الأمريكية ذاتها، مما كان ينذر بحدوث اصطدام على المستويات الخفيضة بالرغم من توافر حسن النية لدى الطرفين. وكتب المستر ستيتينيوس يقول:

«إن في إمكان سياسة موحدة من أجل تحقيق غايات المقاومة أن تؤدي أغراض هذه المهمة التي تواجهنا الآن» . ومعنى هذا أن لحكومة أميركا أن توصي وحدها بصنع الأسلحة التي نحتاجها من أميركا . وخرج الرئيس روزفلت بعد توليه الرئاسة بثلاثة أيام بنظرية جديدة تقرر الأفضلية في توزيع إنتاج الأسلحة الأميركية، على أن يكون خمسون في المائة من إنتاج أميركا للأسلحة مخصصًا لاحتياجات أميركا الدفاعية، وخمسون في المائة للقوات البريطانية والكندية. وأصدر مجلس الأفضلية الأميركي في نفس اليوم موافقته على رغبة بريطانيا في إعداد اثني عشر ألف طائرة في الولايات المتحدة فضلاً عن رغبتنا السابقة في أحد عشر ألف طائرة أخرى، ولكن من أين نأتي بالأموال الضرورية لنغطي ثمن الأسلحة التي نحتاجها من المصانع الأميركية ؟

وأمضى اللورد لوثيان في أواسط تشرين الآخر يومين في ديتشلي معي، وكان قد ركب الطائرة من مقر عمله في واشنطن إلى الوطن، وكنت قد استمعت إلى نصيحة بألا أمضي في تشيكرز جميع نهايات الأسابيع، خصوصًا عندما يكون القمر بدرًا، خشية أن يعطف على العدو بلطفه الخاص، وكان السيد رونالد تري وزوجته قد استقبلاني أحسن استقبال، أنا وموظفي، في بيتهما الكبير الجميل الذي يقع على مقربة من أكسفورد ولا تزيد المسافة على أربعة أو خمسة أميال بين ديتشلي وبلنهايم، وهكذا التقيت بسفيرنا في واشنطن في هذا الجو الآمن، وكان يعرف شتى جوانب الموقف الأميركي ولم يكن قد حصل على شيء سوى النية والثقة من واشنطن، وكان قد اتصل منذ قليل بالرئيس الذي توثقت بينهما أطيب العلاقات، وكان فكره مشغولاً بمسألة الدولار، وهي مسألة كئيبة بلا شك .

فعندما خاضت بريطانيا غمار الحرب، كان في حوزتها حوالي ٤٥٠٠ مليون دولار أما على صورة دولار بالفعل، أو ذهب أو استثمارات أميركية من المستطاع أن تتحول إلى الدولارات، وكانت الوسيلة الوحيدة المستطاعة لتزيد هذه الموجودات، هي التوسع في

استخراج الذهب في الإمبراطورية البريطانية وخاصة في جنوب إفريقيا . وبذل كافة السبل لزيادة الصادرات إلى أميركا وخاصة الكماليات كالويسكي والمنسوجات الصوفية الرائعة والخزف . وقد استطعنا بهذه الوسيلة زيادة حصيلتنا بحوالي ألفي مليون دولار في خلال ستة عشر شهرًا منذ بداية الحرب ، وكنا في السابق تتجاذبنا الحيرة بين حاجة ملحة إلى العتاد من أميركا ، وبين فزعنا من نقصان دولاراتنا الموجودة لدى أميركا ، وكان السير جون سيمون وزير المالية في حكومة المستر تشمبرلين يتحدث كثيرًا عن المصير المؤسف لأرصدتنا الدولارية ، ويوجه أنظارنا إلى ضرورة الحرص عليها ، وكنا على أية حال متفقين على ضرورة الحد من مشترياتنا الأميركية بقدر المستطاع ، وكنا نبدو كما قال مرة المستر بوفيز ، رئيس لجنة المشتريات للمستر ستيتينوس «وكأننا نحيا في جزيرة منقطعة بكمية محدودة من الطعام الذي نحاول الإبقاء عليه أطول مدة ممكنة » .

وكان يقصد بهذا إعداد ترتيبات واسعة المدى لزيادة أموالنا ، وكنا قبل الحرب نمارس حريتنا في الاستيراد ، وندفع بالعملة التي نريد ، وعندما قامت الحرب اضطررنا أن نوجد هيئة لتعبئة الرصيد الخاص من الذهب والدولار والنقد الأجنبي ، وأن نقف دون تحقيق رغبات ذوي النوايا المنحرفة في تحويل رأسمالهم إلى البلاد التي يحسون أنها أكثر أمنًا من بلادهم، وأن نقلل من قيمة الواردات إلى البلاد التي يحسون أنها أكثر أمنًا من بلادهم ، وأن نقلل من قيمة الواردات غير الضرورية وغير ذلك من وسائل الأنفاق الأخرى ، وفضلاً عن عزمنا على الإبقاء على أموالنا ، كان علينا أن نضمن استمرار الآخرين في قبول عملتنا ، وكانت بلاد الكتلة الإسترلينية معنا ، فهي تحتم سياسة الإشراف ذاتها على النقد التي تحتمها، وهي تريد التعامل الدائم بالإسترليني ، وقمنا بإبرام عقود خاصة مع الآخرين تلزم بأن ندفع لهم بالإسترليني الذي يقدرون على التعامل به في أي مكان داخل حدود الكتلة الإسترلينية ، كما ضمنوا الإبقاء على فائض الإسترليني لديهم، وأن يحرصوا في مبادلاتهم على هذه الشروط مع السويد والأرجنتين ، ثم ما لبثت أن اتسع نطاقها فشملت بلادًا أخرى في القارة وفي جنوب أميركا . وقد تم تنسيق هذه الخطة بعد ربيع عام ١٩٤٠ ، ولا شك في أن مما هو جدير بالثناء وبإطراء الإسترليني نفسه أننا استطعنا الإبقاء عليه في مثل هذه الظروف

القاسية، وقد قدرنا بهذه الوسيلة على الاستمرار في معاملاتنا التجارية مع غالبية البلاد في العالم بالإسترليني ، وأن نبقى على ما لدينا من دولار وذهب ثمين لمعاملاتنا الحيوية مع أميركا .

وعندما أصبحت الحرب واقعًا مرعبًا في أيار ١٩٤٠ ، أدركنا على الفور إننا نشيد ميلاد حياة جديدة للعلاقات الإنكليزية الأمريكية ، فمنذ أن توليت تأليف الوزارة ، وعهد إلى السير كنغزلي بوزارة المالية ، بدأنا نسير في طرق أكثر يسرا ، وهي أن توصي باحتياجاتنا ورغباتنا بغض النظر عن المصاعب المالية المقبلة ، تاركين للآلهة الخالدة أن تتولاها بعنايتها ، ولقد كان من الزيف في شؤون الاقتصاد ومن الخداع بالنظر للروية والعقل أن نترك الفرصة للقلق ونحن نواجه معركة حياة أو موت ، منفردين ، لا نصير لنا ولا معين ونقع تحت وطأة هجوم جوي مستمر ، ونتعرض لأهوال غزو يذيقنا من ويلاته ، أن نترك الفرصة للقلق يستولي علينا من جراء نفاد أرصدتنا الدولارية لدى أميركا . وكنا قد شعرنا بالتحول الكبير في الرأي العام الأميركي وشعرنا بالإدراك الجديد الذي سرى لا في واشنطن وحدها بل في جميع أرجاء الولايات المتحدة ، بأن مصير أميركا وثيق الصلة بمصيرنا نحن ، وفضلاً عن هذا فقد سرى تيار من العطف والإعجاب ببريطانيا بين صفوف الشعب الأميركي ووصلتنا برقيات مودة من واشنطن مباشرة ، وعن طريق كندا ، لمسنا في غضونها التشجيع والمؤازرة ، والإحساس بأن شيئًا ما في الأفق سيتحقق عن قريب . ولقيت قضية الحلفاء في المستر مورغنتا وزير الخزانة الأميركية نصيرها وحاميها الذي لا يكل من الذود عنها، وبسبب ورود الطلبات الفرنسية إلينا في شهر حزيران تضاعف معدل إنفاقنا في النقد الأجنبي. زيادة على ذلك أننا رغبنا من جديد في صنع طائرات ودبابات وسفن تجارية من مختلف الأنواع ، وحثنا على إنشاء مصانع ضخمة جديدة في أميركا وكندا .

وإلى شهر تشرين الآخر قد قمنا بدفع الثمن لكل ما وصلنا من أمريكا وكنا قد بعنا ما قيمته (٣٣٥) مليون دولار من السندات والأسهم الأميركية التي قمنا بمصادرتها من ذويها في لندن مقابل الدفع بالإسترليني، وكنا قد قمنا أيضًا بدفع ما يزيد على (٤٥٠٠) مليون دولار نقدًا ، وأصبح كل ما لدينا ألفي مليون معظمها في صورة استثمارات غير قابلة للبيع

الفوري في الأسواق، وظهر أن ليس في وسعنا أن نسير على هذا النوال، لأننا أنفقنا كل ما في حوزتنا من الذهب والنقد الأجنبي فلن نستطيع أن ندفع الثمن لنصف احتياجاتنا من المصانع الأمريكية، فكيف يكون الأمر والحقيقة أن امتداد زمن الحرب وشمولها يضطرنا إلى أن نحتاج من المصانع الأميركية عشرة أضعاف ما احتجنا إليه الآن. وعلينا فضلاً عن كل هذا أن نبقي على كل شيء في أيدينا لنواجه به مطالبنا اليومية المتجددة.

وكان لوثيان واثقًا من أن الرئيس ومستشاريه يفكرون جديًا في خير الوسائل لمعاونتنا، أما وقد انتهت المعركة الانتخابية، فقد دقت ساعة العمل، وكانت المباحثات دائمة في واشنطن بين ممثل لوزارة حربيتنا هناك ـ السير فريد ريك فيلبس ـ وبين المستر مورغنتاو، ورغب إلى سفيرنا في أن أحرر رسالة مفصلة للرئيس توضح كل أوضاعنا، وهكذا كتبت بالمشاورة معه في ذلك اليوم، الأحد في ديتشلي، رسالة خاصة إلى الرئيس روزفلت، ولما كان ينبغي عرض هذه الرسالة على رؤساء أركان الحرب، ووزارة الخزانة لدراستها، ثم توافق عليها وزارة الحرب فإنها لم تكن معدة للإرسال قبل رجوع لوثيان إلى واشنطن. وتمت الرسالة في صورتها الأخيرة، ثم أرسلت بتاريخ ٨ كانون الأول إلى المستر روزفلت فورًا، فانتهت ـ وهي من أهم ما أحرزته في حياتي.

إلى صديقنا العظيم وهو يمخر عباب البحر الكاريبي على ظهر البارجة الأميركية «توسكالوزا» مع أصدقائه وخاصته، وأبلغني هاري هوبكنز، بعد ذلك وكنت لم أتعرف به بعد أن الرئيس قرأ الرسالة مرارًا على ظهر البارجة وهو جالس على مقعده، وأنه أمضى يومين في دراستها، إلى أن وضحت أمامه مراميها. لقد ظل في أحضان تفكير عميق، يتمتم لنفسه في صمت.

ونتج عن كل هذا قرار عظيم، فالقضية لم تكن عدم معرفة من الرئيس لحقيقة ما نريد، وإنما كانت في أي الوسائل يجب أن يسلكها لتؤمن بلاده بالمسير معنا، وليقتنع الكونجرس بضرورة ما يرى. ويقول ستيتينروس أن الرئيس كان في أخريات الصيف الماضي قد رأى في إحدى جلسات لجنة الدفاع الاستشارية في موضوع الموارد الملاحية أن ليس من المحتم أن يبذل البريطانيون أموالهم. وليس من المحتم أيضًا أن يستدينوا منا لهذا الغرض، ولكن ـ مع

أنه لا يوجد ما يحول دون تنفيذ كل ذلك - في مقدورنا أن نأخذ الباخرة التي تم صنعها ، وأن نؤجرها لهم أثناء استخدامهم لها .

ويظهر أنه كان هناك قانون صدر في عام ١٨٩٢ ، يدع لوزير الحربية حرية تأجير ممتلكات الجيش ما دام يرى في ذلك مصلحة عامة بشرط ألا يكون الجيش في احتياج إليها مدة خمس سنوات. وكانت هناك حالات طبق الجيش فيها هذا القانون . وأجر بعض ممتلكاته من حين لآخر.

وهكذا انبثقت فكرة «التأجير» في ذهن الرئيس روزفلت لتلبية احتياجات بريطانيا . بدلاً من تقديم قروض غير محدودة ، ربما قد يؤدي ذلك إلى درجة يصعب معها الدفع والتسديد ، وسرعان ما انتقلنا من المجال النظري إلى المجال العملي ، وظهرت في هذا الزمن الذي أعلن فورًا وهو الإعارة والتأجير .

وعاد الرئيس من رحلته في البحر الكاريبي في ١٦ كانون الأول بمشروعه العميق في مؤتمر صحفي عقد في اليوم التالي ، وقد أوضحه في بساطة عندما قال: «لنفرض أن منزل جاري قد شب فيه حريق ، وكنت أملك في حديقتي خرطومًا طويلاً يبلغ أربعمائة قدم أو خمسمائة ، وكان في استطاعة جاري إذا منحته خرطومي أن يوصله بصنبور مياهه ويتغلب على النار المشبوبة ، فماذا ترون واجبي في ذلك الحين ؟ إنني لن أخاطبه قائلاً في مثل هذه الظروف : أسمع يا جاري ، لقد كلفني هذا الخرطوم خمسة عشر دولارًا وعليك أن تدفع ثمنه أولاً ... كلا .. إنني لن أفعل ذلك، وإنما سأقول له: أنا لا أريد الخمسة عشر دولارا ولكنني أريد خرطومي بعد أن تخمد الحريق.. واستطرد قائلاً : «لا ريب عند أي أميركي يرى أن أفضل سبل الدفاع العاجل عن أميركا، هي أن تنتصر بريطانيا في الدفاع عن نفسها ، ولذلك - فضلاً عن مصلحتنا التاريخية والحاضرة في المحافظة على الديمقراطية كشيء جوهري - فإن في غاية الأهمية - من الناحية الذاتية أيضًا - وبالنسبة للدفاع الأميركي أن نبذل كل ما نستطيع لمعاونة بريطانيا في الدفاع عن نفسها .. » ثم ختم كلمته قائلاً: «أنني أحاول أن أمحو حاجز الدولار ».

وعلى هذه الأضواء، ثم إعداد مشروع الإعارة والتأجير عاجلاً ليعرض على الكونغرس، وقد وصفت هذا الجهد فيما بعد أمام البرلمان في أحد البيانات قائلاً: «أكرم عمل قام به أي شعب في التاريخ» وفي الوقت الذي تمت فيه موافقة الكونغرس على هذا القانون، تغير الوضع كاملاً بصورة عاجلة، فقد أعطانا القانون الحرية في أن نبرم الصفقات الضخمة بكافة احتياجاتنا تحت رعاية اتفاق الإعارة والتأجير. ولم ينص على إعادة الدفع، كما لم يكن ثمة حساب رسمي يسجل بالدولار أو الإسترليني، فكل ما نحتاج إليه يأتينا بالإجارة أو الإعارة، لأن مقاومتنا المتصلة لجبروت هتلر، اعتبرت أعمالاً دفاعية من مصالح الولايات المتحدة، فقد قال الرئيس روزفلت أن الدفاع عن أميركا لا الدولار هو الذي سيعين منذ الآن المكان الذي ستتوجه إليه الأسلحة الأميركية.

وامتدت يد الموت في تلك الساعة الحاسمة إلى اللورد فيليب لوتيان، فانتزعته من بين جماعتنا، بعد رجوعه إلى واشنطن حيث تسلط عليه المرض بصورة غير متوقعة، ولكنه أدى واجبه حتى النهاية وبدون أدنى توقف، وتوفي في ١٢ كانون الأول وهو كدبلوماسي مرموق في قمة نجاحه. فكان موته خسارة لوطنه وللقضية كلها، ودمعت عليه عيون الأصدقاء في جانبي المحيط، أما أنا وكنت قبل أسبوعين وثيق الصلة به، كما ذكرت قبل ذلك بقليل، فقد كانت وفاته صدمة شخصية لي، وقد أبنته بخطاب في مجلس العموم أعظم تأبين ذاكرًا له بثناء جم جهوده ومسيرته.

وكان على أن أوجه اهتمامي فورًا لمن يخلفه، وأدركت أن علاقاتنا بأميركا في تلك الفترة في حاجة إلى أن يكون سفيرنا إليها شخصية بارزة متمتعة بسمعة قوية خاصة، فضلاً عن الكفاءات التي ينبغي أن يكون حائزًا لها سياسي مطلع على كافة شؤون العالم. وبعد أن ضمنت موافقة الرئيس روزفلت على وجهة نظري رغبت إلى المستر لويد جورج في أن يقوم بمهام هذا المنصب، وكان المستر لويد جورج قد اعتذر عن تولي منصب في وزارة الحرب في تموز الماضي كما كانت الظروف السيئة في السياسة البريطانية الداخلية، وكانت آراؤه في الحرب والأحداث التي أدت إليها تخالف ما أراه، وبالرغم من ذلك لم يكن هناك شك في أنه ألمع رجل في وطننا، وفي أن كفاياته وخبراته التي لا نظير لها ستساعده كلها على حمل أعبائه. وقد

تحدثت إليه طويلاً في غرفة الحرب في اليوم التالي حول مائدة الغداء، واستخفه السرور بهذا التكليف فقال: «إنني سأخبر أصدقائي بأن رئيس الوزراء عرض على عروضًا مشرفة، ولكنه كان على ثقة من أن رجلاً في السابعة والسبعين مثله، ليس في وسعه القيام بالتبعات الجسام التي يعنيها هذا المنصب» وبعد محادثات متواصلة معه اتضح لي أن الرجل قد أوهنته الشيخوخة لا سيما في الأشهر الأخيرة منذ دعوته للاشتراك في وزارة الحرب، لذلك تنحيت عن اختياري الأول.

وتنبهت إلى اللورد هاليفاكس، صاحب المقام الرفيع في حزب المحافظين والمكانة التي دعمتها أعماله في وزارة الخارجية، ولا شك في أن توجه وزير الخارجية إلى منصب سفاري يعني أهمية خاصة لهذه البعثة الدبلوماسية التي تحظى برئاسته، وبالإضافة إلى هذا المغزى فإن أعماله في سنوات ما قبل الحرب، والأسلوب الذي سارت به الأحداث في تلك الفترة قد وضعاه موضع عدم الاستلطاف بل العداء أحيانًا من جانب العمال في حكومتنا القومية، وكنت أعرف أن اللورد يدرك هذا جيدًا. وعندما عرضت الأمر عليه، الذي لم يكن بالطبع يعني أي ترقية ذاتية، اكتفى بكلمة بسيطة متعالية تعبر عن استعداده للخدمة حيث تكون خدماته نافعة ومحتمة. وتأكيدًا مني لأهمية بعثته وواجباته رتبت الأمور على أن يباشر عمله كعضو في وزارة الحرب عندما يعود في أي إجازة إلى الوطن. وقد نجحت في هذا دون صعوبات بفضل ما تنطوي عليه نفوس الشخصيات التي تناولها هذا الترتيب من ذكاء وخبرة وكفاية.

ومكث اللورد هاليفاكس يعمل في ظل الحكومة القومية الائتلافية وخليفتها الحكومة العمالية الاشتراكية كسفير في واشنطن مدى ست سنوات في نجاح مستمر لما يقوم به من أعمال ونفوذ تتضاعف يومًا بعد يوم. وقد اغتبط الرئيس روزفلت والمستر هل، وغيرهما من شخصيات واشنطن البارزة، بتعيين اللورد هاليفاكس، وسرعان ما عرفت أن الرئيس قد استحسنه عن اختياري الأول، وبذلك صادف التعيين الجديد رضا وترحيبًا في كل من أمريكا وبريطانيا، واعتبر منسجمًا مع روح الأحداث الجارية.

ولم أكن على حيرة من أمري في الشخص الذي سيخلف اللورد هاليفاكس في وزارة

الخارجية، فقد ظللت طيلة السنوات الأربع الماضية متفقًا اتفاقًا تامًا بالنسبة للقضايا الرئيسية مع أنتوني إيدن . وقد بينت مشاعر القلق في نفسي عندما تنحي عن صحبة المستر تشمبرلين في ربيع عام ١٩٣٨ وكنا قد امتنعنا معًا عن التصويت على اتفاق ميونج ، ووقفنا معًا نقاوم الضغط الحزبي الذي تعرض له كل منا في دائرته الانتخابية في شتاء تلك السنة المؤسفة ، وقد التقينا معًا عقلاً ووجدانًا عند إعلان الحرب وفي خلال مسيرها ، كزميلين ، وكان إيدن قد خصص الجزء الأكبر من حياته العامة لدراسة الشؤون العالمية ، وتولى منصب وزير الخارجية المرموق فملأه عن كفاية ومقدرة ، واستقال منه وهو في الثانية والأربعين من عمره لأسباب إذا نظرنا إليها الآن بمنظار الحقيقة فسوف تنال تأييد جميع الأحزاب . وقد قام بدور فعال كوزير للحربية في تلك السنة الرهيبة ، وكان تصريفه لشؤون الجيش ، قد قرب كلانا للآخر ، فكنا نتشابه في التفكير ، حتى بدون استشارة أو عرض لوجهات النظر ، في كثير من المسائل العملية ، التي تقابلها يوميًا ، وكنت بدوري أطمح في زمالة فياضة بالانسجام والتوافق بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، وقد جنيت ثمار هذه الرغبة ، في خلال السنوات الأربع والنصف التالية ، المليئة بأعمال الحرب والسياسة، وقد أسف إيدن حينما ترك وزارة الحربية التي كان قد دار في دوامة متاعبها واستثاراتها، ولكنه عاد إلى وزارة الخارجية ، وكأنه رجل يعود إلى بيته .

ونكتفي بهذا القدر من مذكرات تشرشل والتي أسهب فيها الكثير من التفاصيل التي قد لا تفيد القارئ كثيرًا.. متمنيًا أن نستفيد ونتعلم من تلك الشخصية ورؤيتها للأحداث .

❖ ❖ ❖

الفهرس